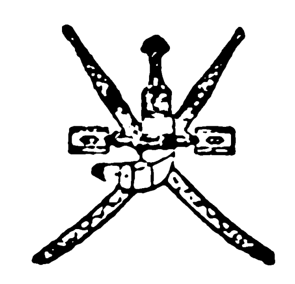


سلطنة عمان
وزارة التراث القومي والثقافة
هميان الزاد إلى دار المعاد
للعالم الحجة
محمد بن يوسف الوهبي الأباضي المصعبي
الجزء التاسع
ثاني
١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م



سلطنة عمان
وزارة التراث القومي والثقافة

هميان الزاد إلى دار المعاد

للعالم الحجة
محمد بن يوسف الوهبي الاباضي المصعبي

الجزء التاسع

القسم الثاني

١٤٠٩ هـ - ١٩٨٨ م

سورة بنى إسرائيل

وتسمى سورة سبحان وسورة الإسراء، مكية إلا قوله تعالى: وإن كادوا ليفتنونك إلى آخر ثمانى آيات، وقيل إلا قولهُ سبحانهُ وتعالى: ويسألونك عن الروح ـ الآية لما ثبت أنها نزلت بالمدينة فى جواب سؤال اليهود عن الروح وقولهُ: وإن كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا إليك إلى: إن الباطل كان زهوقا. وقولهُ: قل لئن اجتمعت الإنس ـ الآية وقولهُ: وماجعلنا الرؤيا... الخ. وقوله: إن الذين أُوتوا العلم من قبلهِ ـ الآية وقال مقاتل: إلا قوله تبارك وتعالى: وقل ربى أدخلنى مدخل صدق ـ الآية: وقوله: إن الذين أُوتوا العلم من قبله ـ الآية: وقوله: وإن كادوا ليفتنونك ـ الآية وقوله: ولولا إن ثبتناك الايتان.

وآيها مائة وعشر وقيل مائة وإحدى عشرة وكلمها خمسمائة وثلاث وثلاثون وقيل خمسمائة وخمس وخمسون، وحروفها ثلاثة آلاف وأربعمائة وستون، وقيل: ستة آلاف وأربعمائة وستون.

وعنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ من قرأ سورة بنى إسرائيل فرق قلبه عند ذكر الوالدين كان له قنطار فى الجنة ، والقنطار ألف أوقية. وعن ابن مسعود سورة بنى إسرائيل وسورة الكهف من العتاق الأُول وهما من تلادى يريد أنهما من قديم كسبه وقالوا : من كتبها فى خرقة حرير بيضاء وخاط عليها وأمسكها ورمى بالنشاب أصاب ولم يخطىء وإذا كتبت بزعفران وأذيبت بماء وسقى منها الصبي الذى لم يتكلم انطلق لسانه .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ سُبْحَانَ الَّذِى ﴾ إلخ سبحان اسم مصدر والمصدر التسبيح وعامله محذوف وجوبا، والأصل سبحوا الذى أسرى بعبده تسبيحا حذف سبحوا وناب عنه تسبيحا وأضيف للمفعول وهو الذى ناب سبحان عنه، والأصل سبحوا تسبيح الذى، أى نزهوا التنزيه اللائق به حذف سبحوا وناب عنه تسبيح، وناب سبحان عن تسبيح وأصل هذا الأصل سبحوا الذى أسرى الخ بذكر الظاهر مرتين للتقرير والتعظيم أو سبحوا الذى أسرى الخ تسبيحه بالإضمار ولما حذف سبحوا الذى أسرى الخ ظهر فيما بعد قولك تسبيح ليظهر المعنى ولا يتعطل، وعلى كل حال فسبحان يصدر به الكلام للتنزيه عما ذكر بعده ويذكر تارة للتنزيه عما ذكر قبله ويصدر به الكلام للتنزيه عن العجزعما ذكر بعد، كما هنا وأيضا ذكر لينفى توهم التشبيه بالحلول والجهات كيف يسرى إلى وأنا عنده أين ما كان وهو أبلغ فى التنزيه بقولك سبحوا لأنه اسم وهو أيضا دال على ما يدل عليه الفعل لأنه ناب عنه وقد سئل رسول الله – صلى الله عليه وسلم – عن معنى سبحان فقال: معناه تنزيه الله عن كل شىء لا يليق به وقد يستعمل علما للتسبيح فيقطع عن

الإضافة ويمنع الصرف للعلمية وزيادة الألف والنون كقول الأعشى
فى مدح عامر بن الطفيل وذم علقمة :

قد قلت لما جاءنى فخره سبحان من علقمة الفاخر

قال ذلك قبل إسلامه وقيل إنه لم يسلم جاء ليسلم فصده المشركون
بأن محمدا يحرم ،فقال أرجع أتروى منها عامى ،ثم أسلم ، فمات قبل
الإسلام والهاء فى فخره لعامر بن الخمر الطفيل ومعنى سبحان من علقمة
لعجب من علقمة إذ يفخر ،وكان علقمة قد وفد على رسول الله
ـصلى الله عليه وسلم ـ وهو شيخ فأسلم وبايع واستعمله عمر بن الخطاب
على حوران فمات بها .وقد يقال إن سبحان فى الآية ونحوها علم للتسبيح
كما شهر لكنه أضيف بعد تنكيره والأصل تسبحوا الذى أسرى الخ .
سبحان بالنصب ومنع الصرف ويجوز تقدير العامل مطلقا أسبح
بصيغة مضارع الواحد المتكلم وسبح بصيغة أمر الواحد﴿ أَسْرَى ﴾ أى
سرى فإن سرى وأسرى لغتان بمعنى واحد ، فليست الهمزة للتعدية وإنما
الذى للتعدية هو الباء بعد فى قوله بعبده ويجوز كونها للمصاحبة
لكن مصاحبة باللطف والحفظ كقوله ـصلى الله عليه وسلم ـ اللهم
أنت الصاحب فى السفر وأسند إسراء به إلى الله تعالى ليعلم أن الأمر
هبة من عنده لم تخطر بقلبه والسرى والإسراء السير ليلا وإنما ذكر

الليل للتأكيد ولإزالة الوهم عما قد يعتقد أن الإسراء والسرى يكونان فى النهار أيضا لأن القرآن خوطب به الناس كلهم أهل اللسان العربى وغيرهم ﴿ بِعَبْدِهِ ﴾هو سيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ بإجماع الأمة ولم يقع إسراء بغيره من الأنبياء بالجسم وإضافته تشريف وتعظيم وكذا تسميته عبد الإله وقد قال له تبارك وتعالى ليلة المعراج الإسراء بماشرفك فقال يارب بنسبتى للعبودية، فنزل : سبحانه الذى أسرى بعبده الخ

قال الشاعر :

بالله لا تدعنى إلا بيا عبدها   فإنه عندنا أشرف أسمائى

وقال الآخر :

ودعتنى بالعبد يوما فقالوا   قد دعته بأشرف الأسماء

ولو كان اسم أشرف من لفظ العبد لسماه به فى تلك الحال قال القشيرى لما أرقاه تلك المراقى سماه عبدا ليتواضع للألوهية ويجليها ﴿ لَيْلاً ﴾نكر للدلالة على قلة مدة الإسراء كأنه قيل ما أسرى به إلى المسجد الحرام ثم إلى ما فوق السابعة إلا فى ليلة واحدة ولذلك قرأ عبد الله بن مسعود وحذيفة من الليل أى بعضه، ذكر الزمخشرى حل ذلك ويعترض بأن كلامه يقتضى استفراغ الليلة ولم تستفرغ ويجاب بأن المراد أسرى بعبده ليلا لم يستفرغه الإسراء والحكمة فى كون

الإسرى ليلا أنهُ ـ صلى الله عليه وسلم ـ حبيب الله سبحانه وتعالى
والخلوة بالحبيب متحققة بالليل وكان فى جوف الليل لا فى أوله
ولا فى آخره لأن جوفه أشد خلوة أو كان ليلا يزداد المؤمنون إيمانا
بالغيب ويفتتن الكافرون فتنة زائدة إذا الليل أخفى من النهار
فلعله لو عرج به نهارا لفات المؤمن زيادة الإيمان والكافر زيادة الفتنة
وقال ابن مرزوق إن الله جل جلاله لما محا آية الليل وجعل آية النهار
مبصرة انكسر الليل فجبر بأن أسرى فيه بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم
وقيل افتخر النهار على الليل فقيل لهُ لا تفتخر إن كانت شمس الدنيا
تشرق فيك فسيعرج شمس الوجود فى الليل إلى السماء وقيل إنهُ
ـصلى الله عليه وسلمـ سراج والسراج إنما يوقد ليلا، واعلم بأن ليلة
الإسرى أفضل من ليلة القدر فى حق رسول الله ـصلى الله عليه وسلمـ
وليلة القدر أفضل فى حق الأُمة لأنها لهم خير من عمل فى ثمانين سنة
لمن قبلهم وأما ليلة الإسراء فلم يأت فى أرجحية العمل فيها حديث
صحيح ولا ضعيف ولذلك لم يعينها النبى ـصلى الله عليه وسلمـ
لأصحابه ولا عينها أحد من أصحابه بإسناد صحيح ولا صح إلى الآن
ولن يصح بعد، ومن قال فيها شيئا فإنما هو لمرجح استأنس به ولو
تعلق بها نفع للأُمة ولو قليلا لبينه لهم ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال

مقاتل وقتادة كان الإسراء قبل الهجرة بعام وقيل بعام ونصف والمتحقق أن ذلك كان بعد شق الصحيفة التى كتبت فيها قريش أن لا يجالس أحد بنى هاشم ولا يبايعهم ولا يواكلهم ولا يشاربهم ولا يتزوج منهم أو يتزوجوا ولاينفعوا،وقبل بيعة العقبة وقال شريك بن أبى نمر إن ذلك قبل أن يوحى إليه – صلى الله عليه وسلم – واتفق المحدثون على أن هذا وهم ورواية شريك أنه جاءه ثلاثة نفر قبل أن يوحى إليه وهو نائم فى المسجد الحرام،فقال أولهم:أيهم هو؟ قال أوسطهم: هو خيرهم. فقال آخرهم: خذوا خيرهم ثم لم يرهم حتى أتوه ليلة أُخرى وقد نامت عيناه لا قلبه وكذا الأَنبياء لا تنام قلوبهم فلم يكلموه حتى احتملوه وشقوا صدره وذهبوا به إلى المسجد الأَقصى، وقد أجمع العلماء أن الصلوات الخمس فرضت ليلة الإسرى فكيف يكون فرضها والإسراء قبل الوحى. وصرح الخطابى وعياض والنووى إن شريكا تفرد بذلك قلت لعل المجىء الثانى كان بعد الوحى، ثم رأيت ابن حجر ذكر أن فى دعوى التفرد نظرا، فقد وافقه كثير بن خنيس بمعجمة ونون مصغرة عن أنس كما أخرجه سعيد بن يحيي بن سعد الأَموى فى كتاب المغازى من طريقه. قال ولم يقع التعيين بين المجيئين ، فيحتمل أن المجىء الثانى كان بعد الوحى وحينئذ وقع الإسراء فإذا كان بينهما مدة فلا فرق

بين أن تكون تلك المدة ليلة أو ليالى أو عدد سنين وذكر بعض أن شريكا ليس بالحافظ عند أهل الحديث والله أعلم،إن صح هذا وذكر البغوى عن بعض المحدثين فى الرد على شريك أن العلماء اتفقوا على أن المعراج كان بعد الوحى بنحو اثنتى عشرة سنة، قال البغوى : هذا الرد لا يصح لأن ذلك فى النوم قبل الوحى ثم عرج به فى اليقظة بعد الوحى وقبل الهجرة بسنة تحقيقاً لرؤياه ، كما رأى فتح مكة فى المنام عام الحديبية سنة ست من الهجرة ، ثم كان تحقيقها سنة ثمان ونزل قوله تعالى : « لقد صدق الله ورسوله الرؤيا بالحق » وهذا جواب مثل ما مر لى ولابن حجر وقال النووى فى الرد على شريك : إن أقل ما قيل إن الإسراء كان بعد مبعثه ــ صلى الله عليه وسلم ــ بخمسة عشر شهراً ،

وقال الحربى : كان ليلة سبع وعشرين من ربيع الآخر ، قبل الهجرة بسنة ، وقال الزهرى : بعد مبعثه ــ صلى الله عليه وسلم ــ بخمس سنين وقال ابن إسحاق : أسرى به ــ صلى الله عليه وسلم ــ وقد فشى الإسلام بمكة والقبائل ، قال النووى : وأشبه الأقوال قول ابن إسحاق والزهرى وقيل كان فى رجب قبل الهجرة بسنة ، وقيل فى رمضان قبل الهجرة لسنة ، وذكر النووى فى فتاويه أنهُ أسرى بهِ ــ صلى الله عليهِ وسلم ــ مرة فى المنام ومرة فى اليقظة ، وذكر السهيلى تصحيح هذا المذهب عن

شيخه القاضى أبى بكر بن العربى وأن مرة النوم توطئة له وتيسير كما
أن بدوء نبوته الرؤيا الصادقة ليسهل عليه أمر النبوة لأنه تضعف عنهُ
القوى البشرية ،وقد جوز بعض قائلى ذلك أن تكون قصة المنام قبل
البعث لأجل قول شريك فى روايته أن ذلك قبل أن يوحى إليه ،واستشهد
بقول عائشة رضى الله عنها أول ما بدأ بهِ رسول الله – صلى الله عليه
وسلم – من الوحى الرؤيا الصادقة فى النوم وكان لا يرى رؤيا إلا جاءت
كفلق الصبح وقد اختلفوا : هل الإسراء بروحه وجسده فى يقظة أو
بروحه فقط فى المنام وهل تعدد أو لا ، فقلنا معشر الأباضية إنهُ بروحه
فى منامه لقولهِ تعالى : « وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس »
فإن الرؤيا مصدر رأى الحلمية وأما مصدر رأى البصرية فالرؤية وقد
أنكر ابن مالك والحريرى وغيرهما : ورود الرؤيا للبصرية ولحنوا
المتنبى فى قوله ورؤياك أحلى فى العيون من الغمص،وأجيب بأنه إنما
الرؤيا لوقوع ذلك فى الليل وسرعة تقضيه كأنه منام وبأن الرؤيا
والرؤية واحد طرفين كقربى وقربة ،ويشهد له قول ابن عباس هى الرؤيا
عين أريها – صلى الله عليه وسلم – ليلة أسرى به وإنما رأى غير الله
سبحانه وتعالى ، وزاد سعيد بن منصور عن سفيان فى آخر الحديث،
وليس رؤيا منام وسواء فى ذلك الجواب فسرنا الرؤيا بمارآه فى طريقه إلى

بيت المقدس أو بما رآه فى السموات لأن الكل عندنا فى المنام وذلك لمستدرك على من يقول باختصاص الرؤيا بالحلمية أيضاً ، وقيل الرؤيا رؤيا عام الحديبية حين رأى أنه دخل مكة فصده المشركون وارتد بذلك ناس وقيل رؤيا وقعة بدر وسأل ابن النقيب شيخه أبا العباس الأندلسى القركبي . فقال : الصحيح أنها رؤية عين يقظة أراه جبريل مصارع القوم ببدر فأرى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ والناس مصارعهم كما أراه جبريل فتسامعت به قريش فاستسخروا منه واحتج أيضاً من قال : إن الاسراء بروحه فى منامه ، تقول عائشة ما فقد جسده الشريف ، ومثله عن حذيفة ومعاوية وأجيب بأن عائشة لم تحدث به عن مشاهدة لأنها لم تكن إذ ذاك زوجاً ولا فى سن من يضبط أو لم تكن ولدت بعد على الخلاف فى الإسراء متى كان،وأجاب السعد بأن مراد عائشة ما فقد جسده عن الروح بل كان مع روحه فى اليقظة وكان الإسراء بالجسد والروح جميعاً ، واحتج من قال : بالروح والجسد فى اليقظة لإنكار المشركين ذلك وتعجبهم واختصاص أبى بكر بفضيلة التصديق وبأن الدواب لا تحمل الأرواح ، وقد صح أنه حمله البراق ولأن الأصل فى الفعل إذا أطلق أنه فى اليقظة حتى يدل دليل ولأن المتبادر من العبد الروح والجسد معاً ولو كان بالروح لم تقل أم هانى ألا تحدث الناس

بهذا لئلا يكذبوك وإن قلت : لم يذكر الإسراء إلى السماء فى الآية . قلت : مذكور بقوله : لنريه من آياتنا وما ذكرناه من كونه بالروح والجسد يقظة مذهب الجمهور وصححه الناس ،وبه كنت أقول واحتج بغالب ما مر قبل على أن أطلع على أنه مقول للجمهور ولا لغيرهم ، وقبل أن أطلع على تلك الحجج والحمد لله على ما ألهمنا وعلمنا ، وقيل كان إلى بيت المقدس بالجسد والروح يقظة ومنه إلى السماء بالروح فى المنام لقوله : « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى » فجعل المسجد الأقصى غاية الإسراء الذى وقع التعجب به بعظيم القدرة والتمدح بتشريف النبى – صلى الله عليه وسلم – به وإظهار الكرامة له بالإسراء ولو كان الإسراء إلى زائد عن المسجد الأقصى بجسده وروحه لذكره فيكون أبلغ فى المدح والإعجاز وأجيب بأن حكمه التخصيص بالإقصاء سؤال قريش له على سبيل الامتحان عما شاهدوه وعرفوه من صفة المسجد الأقصى وقد علموا أنه لم يسافر إليه ويصله فيجيبهم بما عاين ويوافق ما يعلمونه فتقوم الحجة عليهم وكذلك وقع ولذا لم يسألوه عما رأى فى السماء إذ لا عهد لهم فى ذلك ، وقيل إنه أسرى أربع إسراءات يقظة لتعدد الروايات فى الإسراء واختلاف ما يذكر فيها فبعضهم يذكر ما لم يذكره الآخر ، وبعضهم يسقط ما ذكره الآخر

فأجيب بأنه لا يدل على التعدد لأن بعض الرواة قد يحذف بعض الخبر للعلم به أو لنسيانه أو لجهله به وذلك بعيد جداً وهروب إلى غير مهرب ، ولو تعدد لأخبر به رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أمته ولنقله الناس على التعدد ، وذكر فى فتح البارى أنه وقع إسراء أيضاً بالمدينة وليس فيه ما وقع بمكة من استفتاح الأبواب ، أبواب السماوات ولقاء الأنبياء كل فى سماء ، بل فى موضع واحد مع نبى إنسان واحد ومع نبى اثنان ومع نبى ثلاثة وأكثر ولا المراجعة معهم ولا مع موسى فيما يتعلق بفرض الصلوات وتحقيقها ونحو ذلك ، وأنه تكرر لقضايا بعضها قبل الهجرة وبعضها بعدها ومعظمها فى المنام ، وذكر بعض أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أسرى به بروحه وجسده فى اليقظة مرة واحدة وبروحه فى النوم ثلاثاً وثلاثين مرة ، والحق أن الإسراء لم يكن إلا مرة واحدة وأنه ما وقع إلا فى اليقظة بروحه وجسده ، وهو مذهب الجمهور من المحدثين والفقهاء والمتكلمين وهو الذى دلت عليه ظواهر الأخبار الصحيحة ولم يذكر تعدده فى القرآن فلا يعدل عن ذلك إلا لدليل قوى ، وأما حديث فجعل يمر بالنبى ومعه واحد وبالنبى ومعه اثنان وهكذا فلا دليل فيه لاحتمال أن ذلك زيادة على الأنبياء المخصوصين المذكورين فى الحديث المشهور فى كل سماء ، ﴿ مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾

هو مسجد مكة الدائر بالكعبة ، كما روى البخارى ومسلم عن قتادة عن أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة أن النبى – صلى الله عليه وسلم – حدثهم عن ليلة الإسراء . قال : بينما أنا فى الحطيم وربما قال قتادة فى الحجر مضطجع ،والحجر هو الحطيم ،فذكر حديث الإسراء وقيل أسرى به من دار أم هانىء بنت أبى طالب وذكره الطبرانى وأنهُ بات فيه ،على أن المراد بالمسجد الحرام مكة أو الحرم كله لإحاطة كل منهما بالمسجد وعن ابن عباس : الحرم مسجد ، وقد قيل المسجد الحرام فى الآية الحرم وعلى القولين رجح ذكر المسجد الحرام مع أن المراد دار أم هانىء أو الحرم ليطابق المبدأ المنتهى فإن المنتهى هو المسجد الأقصى ، وروى الزهرى عن أنس عن أبى ذر فرج سقف بيتى وأنا بمكة ، وروى الواقدى بأسانيده أنه أسرى به من شعب أبى طالب ،ويجمع بين هذه الأقوال بأنه بات فى بيت أم هانىء وبيتها عند شعب أبى طالب ففرج سقف بيتها ،وأضيف إليه لأنه كان يسكنه فنزل منه الملك فأخرجه من البيت إلى المسجد فكان به مضطجعاً وبه أثر النعاس ثم أخذه الملك فأخرجه من المسجد فأركبه البراق وإنما جاء من السقف لا من الباب مبالغة فى المفاجأة وتنبيهاً على أنه المراد لا غير وأن الطلب وقع على غير ميعاد حملا لألم الانتظار بخلاف موسى فمناجاته على ميعاد وتنبيها وتمهيداً على

أنه يشق بطنه وقلبه ويلتئم على الفور كالسقف وذلك تهوين لأمر الشق فيصير كذا . قيل وليس المراد أنه تألم بالشق ولكن يهابه عند إرادة الشروع فيه فيكون ذلك تهوينا لهذه المهابة وكذا فى شق بطنه وقلبه حين كان فى بنى سعد ،كذا ظهر لى ثم رأيت ابن الجوزى وهو فى عصر السعد التفتازانى ، قال : فشقه وما شق عليه ، وحمله على أن مراده صبر صبر من لا يشق عليه خلاف الظاهر وقيل شق عليه لأنه ورد فى حديث فأقبل وهو متنقع اللون أى صار كلون الغبار وهو شبيه بلون الميت وذلك للمشقة قلت : بل لرغبة بما رأى أنه فعل به وإنما شق أولا لينشأ على أكمل الأحوال من العصمة من الشيطان،ولعل هذا الشق سبب فى الإسلام قرينة إذ روى أنه غلب شيطانه فاسلم وشق أيضاً عند البعث لزيادة الكرامة وليقوى على الوحى وشق عند الإسراء ليتهيأ للترقى إلى الملأ الأعلى والثبوت فى المقام الأسنى والتقوى لاستجلاء الأسماء الحسنى زاد بعضهم أيضاً أنه شق وهو ابن عشر سنين ، قال الأجهورى :

وشق صدر المصطفى وهو فى دار بنى سعد بلا مرية
كشقه وهو ابن عشر وفى ليلة المعـراج وللبعثة

ويروى شق صدره ، ويروى شق بطنه ، ويروى شق قلبه ويجمع

بأن المراد بالصدر البطن وقد ثبت أنه شق من الموضع المنخفض أسفل الصدر إلى موضع نبات شعر العانة ، ولما شق بطنه شق قلبه ولم يكن استخراج العلقة السوداء إلا فى الشق الأول،أخرجها الملك فقال: هذا خط الشيطان منك،وأما فى غير الأولى فاستخرج الأذى وهو ما يكون فى جبلة البشر أو بقية ذلك العلقة وزاد خيراً وقوة قلب وإسلام ، روى أنه أتاه جبريل وميكائيل وملك آخر فاحتملوه من الحجر تعظيماً له حتى جاءوا به زمزماً فألقوه على ظهره فشق ذلك جبريل ، وقال لميكائيل ائتنى بطست من ماء زمزم كى أطهر قلبه وأشرح صدره أى أزيده تطهيراً وشرحاً،فاستخرج قلبه وغسله ثلاث مرات ونزع ما فيه من أذى وأتاه ميكائيل بثلاث طسات من ماء زمزم وبهن كان ذلك الغسل ثم أعيد ما طهر به قلبه إلى زمزم ليحصل لزمزم كمال الشرف ، وقد جزم علماء الشافعية بأن ماء زمزم أفضل المياه أى سوى الماء النابع من بين أصابعه كما قيل :

وأفضل المياه ماء قد نبـــع بين أصابع النبى المتبع
يليه مـاء زمـزم والكوثـر فنيل حيل مصر ثم باقى الأنهر

قلت بل ماء الفرات يلى ماء النيل وماء سيحون ، يلى ماء الفرات وماء جيحون ، يلى ماء سيحون ، ثم باقى الأنهر ، لأن الأربعة من الجنة

على ما يذكر فى بعض الآثار ثم أتى بطشت من ذهب ممتلئا حكمة وإيمانا أى شيئاً من الأجسام يحصل الإيمان والحكمة أو ذلك من تجسيم المعانى أو بتمثيل ، وقال ابن أبى جمرة : الإيمان والحكمة جوهران فأفرغه فى قلبه وملأه حكماً وعلماً ويقيناً وإسلاماً،أى انقياداً لأوامر الله فهو أثبت الناس ثم أطبقه ثم ختم بين كتفيه مائلا إلى اليسار بخاتم النبوة ، وكان خاتم النبوة لغيره من الأنبياء فى أيديهم الأيمان،وشاركه الأنبياء أيضاً فى شق الصدر وإنما اختص بشق القلب وتكرر الشق وإخراج العلقة وأنكر عياض وقوع الشق عند الإسراء ، والصحيح ثبوته ذكر الطبرانى عن ميمون أنه أتاه جبريل وميكائيل فقالا : أيهم؟وكانت قريش تنام حول الكعبة . فقالا : أمرنا بسيدهم، ثم ذهبنا ثم جاءوه وهم ثلاث ، وذكر الشق . وروى مسلم : سمعت قائلا يقول : أحد الثلاثة بين الرجلين فأتيت فانطلق بى ، والمراد بالرجلين حمزة وجعفر رضى الله عنهما ، وكان نائماً بينهما وذكر الشق وروى أنه أتوه مضطجعاً بين نوم ويقظة وهو محمول على ابتداء الحال،ولما خرج إلى باب المسجد وأركب البراق استمر على اليقظة ، وروى أنه استيقظ وهو فى بيت أم هانىء أو فى المسجد وأنه ذكر ذلك وبه تمسك أيضاً من قال : أنه أسرى بروحه فإن قيل بالتعدد فلا إشكال وإلا حمل على الاستيقاظ من الملكوت

إلى عالم الدنيا وإنما كان طست من ذهب لأنه أوانى الجنة ولا تأكله النار ولا التراب ولا يصدأ وأنه أثقل الجواهر ، كما أن قلبه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أوانى أحوال الجنة لا تأكله النار ولا التراب بعد موته ولا يصدأ وأنه أثقل القلوب وأن الوحى ثقيل وأيضاً كان ذهباً ليناسب إذهاب الرجس والذهاب إلى الله تبارك وتعالى ولوقائه ونقائه وصفائه وإنما استعمل فى أمره مع أنه حرام فى شرعه على الرجال لأنه إنما حرم فى الدنيا وتلك الحال من أحوال الآخرة ، ولأنه لم يتمتع به وإنما كان بيد مالك هو المتناول به والملك لم يحرم عليه ،وذكر ابن حجر أنه إذا كان محرماً عليه تنزه أن يستعمل فى أمر يتعلق ببدنه المكرم ، فالأولى أن يجاب بأن الذهب إنما حرم بعد الهجرة ، والحكمة فى شق القلب للحكمة والإيمان مع إمكانهما بلا شق أن تحصل له القوة على يمان من ثلاثة أوجه التصديق والمشاهدة وعدم الخوف من العادات المهلكة فإنه معلوم أن القلب إذا جرح مات صاحبه وكان الغسل بماء زمزم لأنه يقوى القلب ويسكن الروع واستدل البلقينى بأنه أفضل المياه حتى ماء الكوثر إذ لو كان ماء أفضل منه لكان الغسل به ، والمراد بالصدر فى رواية فغسل صدرى القلب كما فى الواية الأخرى أو غسل صدره وغسل قلبه ولما تم الشق والغسل وأخرج لباب المسجد أركبه جبريل على البراق ومضى به

إلى بيت المقدس المراد بقوله ﴿ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى ﴾ أى الأبعد وصفه بالأقصى لأنه لم يكن حينئذ وراءه مسجد والمقدس بفتح الميم وكسر الدال مصدر ميمى بمعنى الطهارة وأضيف إليه لأنهُ لم يعبد فيه صنم ولم يكن فيهِ ، ويقال المقدس بضم الميم وفتح الدال وإسكان القاف وبفتحها فتشدد الدال والإضافة على هذين الوجهين إضافة موصوف لصفة أى البيت المقدس أو المقدس عليهما هو الله سبحانه ، ويسمى أيضاً مسجد المياء ﴿ الَّذِى بَارَكْنَا ﴾ التفات من الغيبة إلى التكلم ﴿ حَوْلَهُ ﴾ بركات الدين والدنيا لأنه متعبد الأنبياء من وقت موسى عليه السلام ومهبط الوحى محفوف بالأنهار الجارية والأشجار المثمرة وقبلة الأنبياء وهناك الحشر وحول الشىء جانبه وكان البراق مسرجاً ملجماً والسرج من لؤلؤة بيضاء ، واللجام من ياقوت أحمر ، والركابان من زمرد أخضر وليس البراق من خصوصيته ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولكن اختص بكونه مسرجا ملجماً ووضع حافره عند منتهى طرفه وكانت الأنبياء تركبه قبله ويمشى بهم على شكل سير دواب الدنيا ولكن ذكروا أن إبراهيم عليه السلام يغدو من الشام إلى هاجر وإسماعيل ويقيل بمكة ويروح منها ويبيت عند أهله بالشام عليه ولعله يبارك له فى السير تحت إبراهيم أو تطوى له الطريق أو يسرع البراق به إسراعاً ليس على شكل وضع

الرجل فى منتهى الطرف وفى هذا الجواب الآخر بعض منافرة لما ذكر من كون مشيه على شكل سير دواب الدنيا . قال النووى : شاركه - صلى الله عليه وسلم - فى ركوبه جميع الأنبياء . قال الأجهورى : وهو يحتاج إلى نص صريح وأما ركوب إبراهيم فسلم يركبه للبيت الحرام لزيارة إسماعيل وهاجر أو للحج ، قلت : بل النووى نفسه ذكر ذلك ونصه : قال صاحب مختصر العين وتبعه صاحب التحرير كان الأنبياء يركبون البراق ، قال : وهذا يحتاج إلى نقل صحيح أ. هـ. ذكر يزيد ابن أبى مالك عن أنس وصلا بالحديث ما نصه وكانت تسخر للأنبياء قبله ، وفى حديث أبى سعيد عند ابن اسحاق نحوه ، وقال ابن دحية وغيره : أنه - صلى الله عليه وسلم - اختص به وأول قول جبريل للبراق لما استعصت ما ركبك أكرم على الله منه بأن المعنى ما ركبك أحد قط فكيف يركبك أكرم منه كقول امرىء القيس على الأحب لايهتدى بمناره ظاهره أن له منارا لا يهتدى به والمراد أنه لا منار له البتة فكيف يهتدى به وقد جزم السهيلى بأن البراق استصعب عليه لبعد ركوب الأنبياء قبيله وكذا وقع عند ابن اسحاق أنها استصعبت لبعد العهد بركوب الأنبياء، لم تكن ركبت فى الفترة وعلى ذلك يحمل أحاديث - أنه صلى الله عليه وسلم - ربطه حيث تربط الأنبياء بدون ذكر

المربوط ما هو ولا حاجة إلى ادعاء احتمال أن الذى يربطونه غير البراق وأنهم يربطون أنفسهم بحلقة صخرة بيت المقدس أى يتمسكون بها وتكون من جنس العروة الوثقى ، وذكر البيهقى عن أبى سعيد فأوثقت دابتى بالحلقة التى كانت الأنبياء تربطها بها وذلك الربط عند وصوله إلى بيت المقدس والبراق يذكر ويؤنث كما رأيت . وليس بذكر ولا أنثى وهو مخلوق بلا توليد ولا لتوليد ، وذلك البراق هو نفس البراق الذى يركبه إبراهيم وغيره . وروى أن الله تبارك وتعالى أعد لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى الجنة أربعين ألف براق ترعى فى مروج الجنة ، ذكره بعض شراح البخارى ، والمرج الأرض الواسعة المخضبة والحكمة فى الإسراء به راكبا مع القدرة على طى الأرض له إشارة إلى أن ذلك تأنيس له بالعادة فى مقام خرق العادة لأن العادة جرت أن الملك إذا استدعى من يختص به بعث إليه بمركوب سنى يحمله عليه فى وفادته إليه والحكمة فى كون البراق دون البغل وفوق الحمار أبيض ولم يكن على شكل الفرس، الإشارة إلى أن الركوب كان فى سلم وامن لا فى حرب وخوف وإظهار المعجزة بوقوع الإسراع الشديد بدابة لا توصف بذلك فى العادة وسمى براقاً أخذ من البريق وهو شديد البرق وهو اللمعان ، وقيل سمى لسرعة سيره فهو كالبرق ، وقيل لأنه ذو

لزنين أبيض وأسود يقال شاة برقاء إذا كان خلال صوفها الأبيض طاقات سود وحمر وكان هو كذلك فيه طاقات سود وصح أنه يضع خطوه عند أقصى طرفه بسكون الراء وبالفاء أى رجاه عند منتهى مايرى بصره فيقطع من الأرض إلى السماء فى خطوة لأن بصر الذى فى الأرض يقع على السماء . قال ابن المنير : فبلغ أعلى السماوات فى سبع خطوات . وعن ابن مسعود كان إذا أتى على جبال ارتفعت رجلاه ، وإذا هبط ارتفعت يداه ، رواه أبو يعلى والبزار ، ومعنى ارتفعت طالت وذلك رفقا براكبه . وروى ابن سعد له جناحان ، ذكره الواقدى وذكر الغبطى أن له جناحين فى فخذيه يحفر بهما رجليه أى يعين، وكان فى فخذيه لئلا يتضرر راكبه وأنه مضطرب الأذنين أى محركهما دائماً ، وقيل طويلهما ، وعن ابن عباس بسند ضعيف له خد كخد الإنسان وعرف كَعُرْف الفرس وقوائم كالإبل وأظلاف وذنب كالبقر وكان صدره ياقوتة حمراء ولما أراد ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يركبه استصعب فقال له جبريل: ماحملك على هذا، ما ركبك خلق قط أكرم على الله منه فارفض عرقاً أى سال وجرى عرقه بسبب العتاب . رواه الترمذى وابن حبان ، قال الترمذى : حسن غريب . وقال ابن حبان : صحيح . وذكر ابن اسحاق عن قتادة أنه استصعب فوضع جبريل يده على معرفته

ثم قال : ألا تستحى يا براق، فوالله ما أركبك خلق اكرم على الله منه فاستحى حتى ارفض عرقاً وقر حتى ركبه؛ وهو مرسل لأنه أسقط ذكر الصحابي وهو أنس . وفى رواية ويثمة عند ابن اسحاق تعست حتى لصقت بالأرض فاستويت عليها وفى رواية ابن سعد فى شرف المصطفى فكان الذى أمسك بركابه جبريل وبزمام البراق ميكائيل أى بمقوده ، وأما اللجام فكان بيده - صلى الله عليه وسلم - وذكر أن جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره ، وذكر أن جبريل ركب أمامه على ذالك البراق وذكر أنه ركب خلفه ويجمع بين هذه الروايات بأنه تارة يفعل كذا وتارة يفعل كذا ، وإنما استصعب ليضمن - صلى الله عليه وسلم - اه الجنة أو لأنه لم يذلل قبل ذالك إن قلنا إنه لم يركبه أحد قبله - صلى الله عليه وسلم - أو لبعد العهد بركوبه إن قلنا إنه ركب قباله أو للزهو بركوبه- صلى الله عليه وسلم-والطرب به وعليه فإنما أراد جبريل بقوله ما حملك على هذا وقوله ألا تستحى زجره عما يوهم الامتناع أو استنطاقه بأنه لم يرد الامتناع فعرق خجلا من العتاب وما أوهمه استصعابه. وفى مسند أحمد عن حذيفة أتى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالبراق فلم يزل على ظهره هو وجبريل حتى انتهيا إلى بيت المقدس وهذا يفكر على الجمع المذكوربين الروايات آنفاً لكن لم يسند

حذيفة ذلك عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ولعله قاله عن اجتهاد أوجبريل بالنصب على المعية والمصاحبة فى مجرد السير دون الركوب أو بالرفع على الابتداء أى وجبريل سائق أو قائد ، وسار رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وجبريل وميكائيل إلى أن بلغوا أرضاً ذات نخل . فقال له جبريل: انزل فصل هنا ففعل ثم ركب . فقال له : اتدرى اين صليت . قال : لا . قال : صليت بطيبة أى المدينة وإليها الهجرة . وروى المهاجر فقيل بضم الميم وفتح الجيم مصدر ميمى بوزن مفاعلة لكن أسقطت التاء شذوذاً وكان الإسراء قبلها بعام ونصف على الراجح فانطلق البراق يهوى به أى يسرع فهو مجاز مرسل تبعى علاقته اللزوم لأنه يلزم من الهوى الإسراع أو شبه مشيه بالهوى بجامع غاية السرعة يضع حافره حيث أدرك طرفه ويسمى الحافر لأنه يحفر الأرض وهكذا سائر حوافر الدواب ، فقال له جبريل انزل فصل هنا ففعل ثم ركب فقال له أتدرى أين صليت . قال : لا . قال : صليت بمدين عند شجرة موسى ، ومدين بلد بالشام تلقاء غزة ، والشجرة هى التى استظل بها موسى عليه السلام ، وأسند ظهره ليستريح حين اتهم بقتل القبطى فهرب ، وقال الحلبى : هى التى سمع منها النداء « ياموسى إنى أنا الله رب العالمين » والراجح الأول ثم ركب فانطلق البراق يهوى به ثم قال

له : انزل فصل ، ففعل ثم ركب فقال : أتدرى أين صليت . قال :
لا . قال : صليت بطورسيناء حيث كلم الله موسى وهو جبل بالشام ،
وفى كلام بعض : جبل بين مصر وإيليا ، ويقال طور سنين ، وقد
أقسم الله جل جلاله به وألفهُ للإلحاق لا للتأْنيث فإنما منع الصرف
للعلمية مع العجمة أو مع التأْنيث على إرادة البقعة ثم بلغوا أرضاً
وبدت قصور فقال له انزل فصل ، ففعل ، ثم ركب وانطلق البراق
يهوى به ، فقال لهُ : أتدرى أين صليت . قال : لا . قال : صليت ببيت
لحم حيث ولد عيسى بن مريم،وهو قرية بالشام تلقاء بيت المقدس
سميت بذلك لأَن اللحم يطلق على البيت الذى يغتاب فيه الناس ،
فلعل هذه القرية كانت محل اغتياب الناس كما فى القاموس وجملة
المواضع التى صلى فيها فى طريقه إلى المقدس أربعة ، وذكر شداد
ابن أوس أنهُ صلى فى ثلاثة واسقط الصلاة عند الشجرة ، وذكر
مر بمدين بأَرض بيضاء هى مدين فأَمره بالصلاة فيها ذكره البزار
والطبرانى والبيهقى مصححاً لهُ فى دلائلهُ وبين ما هو يسير على البراق
إذ رأى عفريتاً من الجن يطالبه بشعلة من نار يريد أن يحرق بها وجه
رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كلما التفت رآه . فقال له جبريل :
ألا أعلمك كلمات تقولهن إذا قلتهن طفئت شعلته وخر لفيه أى على

فيهِ ،وكذلك كناية عن الموت فقال لهُ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بلى فقال جبريل : قل أعوذ بوجه الكريم وبكلمات الله التامات التى لا يجاوزهن بر ولا فاجر من شر ما ينزل من السماء ومن شر ما يعرج فيها ومن شر ما ذرأ فى الأرض ومن شر ما يخرج منها ومن فترة الليل والنهار إلا طارقاً يطرق بخير يارحمن . فقالها ، فانكب العفريت لفيهِ وانطفأت شعلته وكلمات الله القرآن والتامات صفة كاشفة وما ينزل من السماء البلايا والمصايب كالزلازل والصواعق وما يعرج فيها هو سؤال الأعمال التى هى سبب نزول البلاء، وذرأ خلق ومايخرج من الأرض نبات ودواب مضرة ومعنى فترة الليل والنهار سكون الأصوات فيهما وفى نسخة فتن الليل والنهار جمع فتنة وهى الميل عن الله وطارق الليل والنهار ما يحدث بغتة فساروا وأتى على قوم يزرعون فى يوم ويحصدون فى وقت والمراد باليوم الوقت ، فلا يقال انهُ لم يمكث عندهم يومين كلما حصدوا شيئاً عاد كما كان فقال ياجبريل ما هذا .[قال: هؤلاء المجاهدون فى سبيل الله تضاعف لهم الحسنة بسبعمائة ضعف وما أنفقوا من شىء فهو يخلفهُ وقولهُ ما هذا إشارة إلى الفعل فيقدر مضاف فى المبتدأ ومضاف فى الخبر أى كفعل هؤلاء فعل المجاهدين أو استعمل ما فى العقلاء استنكاراً لحالهم حتى كأنهم لم يعرف جنسهم والمراد

بالحسنة النفقة وغيرها وظاهر قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كل عمل ابن آدم يضاعف الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إن هذه المضاعفة لا تختص بالمجاهدين . وقد يقال تكرر الجزاء هذا العدد المذكور لا يتخلف فى المجاهدين بخلاف غير وساروا ووجد ريحاً طيبة فقال : ياجبريل ما هذه الرائحة . فقال : رائحة ماشطة بنت فرعون ، ورائحة أولادها وهى امرأة حزقيل خازن فرعون واسمها قنه ؛بينما هى تمشط بنت فرعون أى تسرح شعرها إذ سقط المشط بتثليث الميم ، فقالت : بسم الله تعس فرعون . فقالت ابنة فرعون : أو لك رب غير أبى ؟ فقالت : نعم ؟ قالت : أفأخبر بذلك أبى . قالت : نعم . فدعاها ، فقال : ألك رب غيرى ؟ قالت : نعم . ربى وربك الله الذى خلقنا ورزقنا ويميتنا ويحيينا رب السماوات والأرض لا شريك له ، وكان للماشطة ابنان كبيران وولد صغير ذكر وقيل أنثى وزوج ، فأرسل إليهم فرعون فحضروا ، فراود المرأة وزوجها إن يرجعا عن دينهما فأبيا . فقال : إنى قاتلكما . قالت : إحسانا منك إن قتلتنا أن تدفننا فى بيت واحد . قال ذلك بما لك علينا من الحق وهو الخدمة . والتقدير أحسن إلينا إحساناً منك فأمر ببقرة من نحاس أى بقدرة كبيرة واسعة من التبقر وهو التوسع أو تسع بقرة تامة بتوابلها وروى بنقرة بالنون وهى قدر يسخن

فيها الماء أو غيره فاحميت ، وروى أنه أحمى فيهما زيت طيب فألقوا فيها واحداً واحدا وابتدأ بالأولاد للتخويف والحسرة حتى بلغوا الرضيع وكانت تحمله فتأخرت قليلا ، فقال : يا أماه قعى بفتح القاف فعل أمر من الوقوع ولا تقاعسى بفتح التاء أى لا تقاعسى أى لا تتأخرى فإنك على الحق فألقيت هى وأولادها ، وأما زوجها فأرسل إليه فرعون فى طلبه فقيل إنه أوى إلى موضع كذا . . بجبل كذا . . كذا . . فبعث فى طلبه وأتى على قوم ترضخ رءوسهم كلما رضخت عادت كما كانت ولا يفتر عنهم من ذلك شىء فقال جبريل من هؤلاء قال هؤلاء الذين تتثاقل رءوسهم عن الصلاة المكتوبة أى يكسلون من الأمم السالفة لأن الصلاة لم تفرض حينئذ ومثل له حال من يكون بهذا الوصف من هذه الأمة فيكون إخبارا بما سيكون ثم أتى على قوم عراة على أقبالهم رقاع وعلى أدبارهم رقاع يسرحون فى أودية جهنم كالإبل والغنم ويأكلون الضريع والزقوم ورضف جهنم أى حجارتها المحماة فقال من هؤلاء يا جبريل فقال هؤلاء الذين لا يؤدون صدقات أموالهم وما ظلمهم الله شيئاً قيل عوقبوا بذلك لأنهم يمنعونها ليزينوا بها ملابسهم ويوفروا بها مأكلهم ومشاربهم ويتفكهوا بها فأبدلوا الرقاع والعراء بدل الملابس المزينة وأبدلوا الضريع والزقوم والرضف بدل المآكل والمشارب الطيبة

والمراد من يمنعها من الأُمم السابقة لأَنها لم تفرض حينئذ ومن يمنعها من هذه الأُمة فيكون إخبارا بما سيكون قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ينزل فى كل سنة اثنتان وسبعون لعنة لعنة على اليهود ولعنة على النصارى وسبعون على مانع الزكاة ثم أتى على قوم بين أيديهم لحم نضيج فى قدور ولحم آخر فى قدور نىّ خبيث فجعلوا يأكلون من النى الخبيث ويدعون النضيج الطيب فقال ما هذا يا جبريل فقال هذا الرجل من أُمتك تكون عنده المرأة الحلال الطيب فيأَتى امرأة خبيثة والمرأة تأْتى غير زوجها ثم أتى على خشبة على الطريق لا يمر بها ثوب ولا شىء إلا حرقته فقال ما هذا يا جبريل؟قال هذا مثل أقوام من أُمتك يقعدون على الطريق فيقطعونه أى يمنعون من سلوكه وتلا رسول الله ــصلى الله عليه وسلم ــ وقيل جبريل ولا تقعدوا بكل صراط توعدون ورأى رجلا يسبح فى نهر من دم أى يعوم يلقم الحجارة أى ترميهِ الملائكة بالحجارة فى فيهِ فقال ما هذا يا جبريل؟فقال هذا مثل آكل الربوا أى آخذه فهو مجاز مرسل من إطلاق اسم المسبب على السبب ونكتته أن الأَكل أعظم منافع المال ثم أتى على رجل جمع حزمة حطب بضم الحاء الأُولى وكسرها لا يستطيع حملها وهو يزيد عليها فقال ما هذا يا جبريل فقال هذا الرجل من أُمتك تكون عنده أمانات الناس

لا يقدر على أدائها ويريد أن يتحمل عليها قيل المراد بالأمانات ما يشمل
أيضا الوفاء بالعهد والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والنصح وسائر
ما يجب للمسلم وأتى على قوم تقرض ألسنتهم وشفاههم بمقاريض
من حديد،وروى من نار كلما قرضت عادت لا يفتر عنهم فقال من
هؤلاء يا جبريل؟قال هؤلاء خطباء الفتنة خطباء أمتك أى بعض خطباء
أمتك وهو بدل بعض يقولون مالا يفعلون والمراد بالخطباء ما يشتمل
الوعاظ والمدرسين والعلماء وغيرهم وأضافهم إلى الفتنة إضافة سبب
لمسبب لأن حالهم سبب للإفتتان لمناقضة أقوالهم أفعالهم . ومر بقوم لهم
أظفار من نحاس يخمشون بها وجوههم وصدرهم وكونها من نحاس حقيقة
أو مجازا أى شديدة كالنحاس ولا شك أن الحديد أحد من النحاس
ولكن خص النحاس لأنه فى النار أشد حرارة ولذا تصنع منه القدور
فقال من هؤلاء يا جبريل؟قال هؤلاء الذين يأكلون لحم الناس ويقعون
فى أعراضهم وخص الوجوه والصدور لأنها يظهر فيها الشين كما أظهروا
شين أعراض من اغتابوا والغيبة كبيرة فى المسلم عندنا مطلقا وقال
قوم إن كانت فى العلم وحامل القرآن وإلا فصغيرة قيل تباح فى
مواضع منظومة فى قوله :

التمدح ليس بغيبة فى ستة   متظلم ومعرف ومحـــذر
ولمظهر فسقا ومستفت ومن   طلب الإعانة فى إزالة منكر

وأتى على حجر صغير يخرج منه ثور عظيم فجعل يريد أن يدخل من حيث خرج فلا يستطيع فقال ما هذا يا جبريل؟قال هذا الرجل أى مثله يتكلم بالكلمة العظيمة تكون سببا للهلاك مثلا أو لإضاعة مال أو هجر مسلم ثم يندم عليها فلا يستطيع أن يردها وفى الحديث البلاء موكل بالمنطق وبين ما هو يسير إذ دعاه داع عن شماله يا محمد انظرنى بوصل الهمزة وضم الظاء أى انتظرنى أو انظر إلى أن أسألك فلم يجبه فقال ما هذا ياجبريل؟قال داعى اليهود أى مثل الداعى إلى هواهم وما ظلوا به وكذا فى داعى النصارى والإضافة عند اللقانى للبيان كما فى حديث ابن أبى ليلى قال له جبريل أتدرى من الرجل الذى دعاك عن يمين الطريق؟قال: لا. قال تلك اليهود تدعوك إلى دينها اهـ. أما أنك لو أجبته لتهودت أمتك وبينما هو يسير إذا دعاه داع عن شماله يا محمد انظرنى أسألك،فلم يجبه فقال ما هذا يا جبريل؟قال داعى النصارى أما أنك لو أجبته لتنصرت أمتك وبينما هو يسير إذ هو بامرأة حاسرة عن ذراعيها أى كاشفة وعليها من كل زينة خلقها الله وذلك ما يجلب القلوب فقالت يا محمد انظرنى أسألك فلم يلتفت إليها فقال:من هذا ياجبريل؟

قال تلك الدنيا أما أنك لو أجبتها لاختارت أمتك الدنيا على الآخرة وقد تعرضت له يوما فقال إنى لست أريدك . قالت إن لم تردنى فسيريدنى غيرك ، وبينما هو يسير إذا هو بشيخ يدعوه متنحيا عن الطريق مظهرا الديانة والورع يقول هلم يامحمد. فقال جبريل بل سر يا محمد قال من هذا يا جبريل؟قال هذا عدو الله إبليس أراد أن تميل إليه وقد عصمك الله منه وإنما بادره جبريل هنا بقوله بل سر يا محمد إن نبينا محمد ـصلى الله عليه وسلم ـ كان عنده زيادة لطف ورحمة بالشيوخ والفقراء وقد علم جبريل ذلك منه ولأن فتنة إبليس أشد من فتنة غيره وسار فإذا هو بعجوز على جانب الطريق، فقالت يا محمد انظرنى أسألك فلم يلتفت إليها فقال من هذه يا جبريل قال إنه لم يبق من عمر الدنيا إلا ما بقى من هذه العجوز. وروى البيهقى فى الدلائل عن أنس أنه مر بجماعة فسلموا عليه فقالوا السلام عليك يا أول السلام عليك يا آخر ، السلام عليك ياحاشر . فقال له جبريل اردد عليهم السلام وهم ابراهيم وموسى وعيسى . وفى رواية أنه مر بموسى عليه السلام يصلى فى قبره فقال أشهد أنك رسول الله ولا مانع عن صلاة الأنبياء فى قبورهم لأنهم أحياء عند ربهم يرزقون يتعبدون بما يجدون من دواعى أنفسهم لا بما يلزمون به كما يلهم أهل الجنة الذكر . وروى أبو هريرة أنه رأى

أخونة عليها لحم طيب ليس عليها أحد وأخرى عليها لحم منتن عليها ناس يأكلون قال جبريل هؤلاء الذين يأكلون الحرام ويتركون الحلال ومر بقوم بطونهم أمثال البيوت كلما نهض أحدهم خر. قال جبريل هم أكلة الربا ومر بقوم مشافرهم كالإبل يلتقمون جمرا فيخرج من أسافلهم قال جبريل هم الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما ومر بنساء علقن بثديهن، وقال جبريل إنهن الزوانى ومر بقوم يقطع من جنوبهم اللحم فيطعمون وأنهم الغمازون واللمازون ومر على واد فوجد ريحا طيبة باردة وريح مسك وسمع صوتافقال ما هذا يا جبريل؟ قال هذا صوت الجنة تقول رب ائتنى بما وعدتنى فقد كثرت عرفى واستبرقى وعبقرى ولؤلؤى ومرجانى وفضتى وذهبى وأكوابى وصحافى وأبارقى ومركبى وعسلى ومائى ولبنى وخمرى فائتنى بما وعدتنى فقال لك كل مسلم ومسلمة ومؤمن ومؤمنة ومن آمن بى وبرسلى وعمل صالحا ولم يشرك بى ولم يتخذ من دونى أندادا ومن خشينى فهو آمن ومن سالنى أعطيتهُ ومن أقرضنى أجزيته ومن توكل علىَّ كفيته إننى أنا الله لا إله إلا أنا لا أُخلف الميعاد . قد أفلح المؤمنون وتبارك الله أحسن الخالقين قالت قد رضيت، ثم أتى على واد فسمع صوتاً منكراً ووجد ريحا منتنا فقال ما هذا يا جبريل؟قال هذا صوت جهنم تقول رب ائتنى

ما وعدتنى فقد كثرت سلاسلى وأغلالى وسعيرى وحميمى وضريعى وغساقى وعذابى وقد بعد قعرى واشتد حرى فائتنى بما وعدتنى . قال لك كل مشرك ومشركة وكافر وكافرة وكل جبار لا يؤمن بيوم الحساب. قالت قد رضيت ولما وصل بيت المقدس ربط البراق بالحلقة، وروى ربط فرسه يعنى البراق لأنه نزل منزلة الفرس وأنكر حذيفة الربط إذ لايفر منه وقد سخره له عالم الغيب والشهادة. رواه أحمد والترمذى وصلى ببيت المقدس وأنكر حذيفة أيضاً الصلاة فيه والواضح ثبوت الربط والصلاة والمثبت مقدم على النافى. وعن بريدة وضع جبريل إصبعه فى الصخرة فخرقها فشد بها البراق أى بزمامه. رواه البزار والترمذى . وعن ابن مسعود وأبى سعيد دخلت أنا وجبريل بيت المقدس فصلى كل منا ركعتين أى على حدة وروى أنه دخل من بابه اليمانى ثم نزل عن البراق وربطه بالحلقة بالباب وروى أنه دخل من باب تميل فيه الشمس والقمر . ويجمع بين أحاديث الربط قبل الدخول وأحاديث الربط بعده بأنهُ ربط أولا خارج المسجد ثم فك وربط داخله إكراما لرسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وفى ربطه الأخذ بالاحتياط فى الأمور وتعاطى الأسباب وليس ذلك قادحا فى التوكل وكان فى ذلك تأنيس بالعادة فى ربط الدواب ومعنى ميل الشمس والقمر عن الباب أنهما يمران عليهِ فيغربان

منه :وقال القليوبى يميلان إليه عند طلوعهما بظهورهما عليه أو يميلان عند زوالهما عن الاستواء فيزول ضوؤهما عنه جهة المشرق وقيل فيه تمثيل الشمس والقمر أى مثالهما فيه. وكان هذا الباب مفتوحا روى أن بعض بطارقة الروم وكله هرقل بحفظ بيت المقدس وكان لا ينام حتى يغلق أبوابه ،فلما كان تلك الليلة أغلقها كلها إلا هذا الباب الذى دخل منه -صلى الله عليه وسلم- فإنه أعياه حتى استعان بعماله ومن حضره عليه فلم يستطع أحد أن يحركه ولما صلى الركعتين لم يلبث إلا يسيرا حتى اجتمع ناس كثيرون من الأموات بأرواحهم وأجسادهم على الراجح وقيل بأرواحهم من الأنبياء والشهداء ومن ألحق بهم فعرف النبيين بصفة تميزهم من بين راكع وساجد ثم أعلم جبريل الحاضرين بالصلاة وشرعوا فيها بلا أذان ولا إقامة لأنهما شرعا بالمدينة أو بهما ولو قبل أن يشرعا لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأمته وقاموا صفوفا ينتظرون من يومهم فأخذ جبريل بيد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقدمه فصلى بهم فى مقدم المسجد وكانوا سبعة صفوف ثلاثة من المرسلين وأربعة من سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وكان خلف ظهره إبراهيم وعن يساره إسحاق. وعن كعب أذن جبريل ونزلت الملائكة من السماء وحشر الله له المرسلين وزاد الله فى سعة المسجد حتى وسعهم فصلى

بهم جميعا ركعتين كانتا مفروضتين عليه وقيل هما نافلتان والراجح أنهما
نفل مطلق ولا يضر وقوع الجماعة فيها لأنه للتشريع وجوز كثير من العلماء النفل
السنن مطلقا بالجماعة وصلاة الموتى تلذذ لا تكليف لانقطاعه بالموت وعلى
أنهما مفروضتان عليه فالأقرب عند بعض أنهما الصبح ويحتملان أنهما العشاء
على أنهما قبل العروج وإما على أنهما بعده فالصبح قال ابن كثير ومن الناس
من يزعم أنه أمهم فى السماء والذى تظاهرت به الروايات أنه بيت
المقدس والظاهر أنها بعد رجوعه إليه لأنه لما مر بهم فى منازلهم جعل
يسأل جبريل عنهم واحدا واحدا وهو يخبره قال هذا هو اللايق لأنه
أولا كان مطلوبا ليفرض عليه الله وعلى أمته ما يشاء ثم لما فرغ مما أريد
به اجتمع هو وإخوانه من النبيين ثم أظهر شرفه عليهم لتقديمه
فى الإمامة والظاهر أنه صلى بهم فى السماء بعد العروج وفى بيت المقدس
قبلة وانتقلوا إليه كما انتقل موسى من قبره الذى رآه يصلى فيه
إلى بيت المقدس والسماء وعن أنس لما بلغ بيت المقدس وبلغ المكان
الذى يقال له باب محمد أتا إلى الحجر الذى به فغمزه جبريل
بإصبعه فنقبه ثم ربط البراق ولما استويا فى سرحه المسجد قال جبريل
يا محمد هل سألت ربك أن يريك الحور العين قال نعم قال فانطلق
إلى هؤلاء النسوة فسلم عليهن قال فسلمت عليهن فرددن على السلام
فقلت لمن أنتن فقلن خيرات حسان نساء قوم أبرار نقوا فلم يدرنوا

أى لم يتوسخوا وأقاموا فلم يظعنوا وخلدوا فلم يموتوا وروى أنهن راهن عن يسار الصخرة ولا يبعد أنهن صلبن خلفه ويحتمل قبل أنه كشف عنهن له حتى راهن فى ذلك المحل وهن فى الجنة كرامة له وخرقا للعادة والحكمة فى رويته لهن تعظيمه واحتياجه إلى معرفتهن لأنه يزوجهن أمته وكن على اليسار مع شرف النبى إشارة لتيسير حصولهن لهذه الأمة وليتفاول بتيسير المعراج وسهولته أو ليكون جانب اليمين له يرقى منه الصخرة وهل رقى الصخرة أو عرج من جهة يمينها خلاف والحور خلقن من الزعفران أو من تسبيح الملائكة ومن قطرات تقطر من جناح جبريل لينتفض بعد خروجه من بعض الأنهار ولما فرغ من صلاته قال جبريل يا محمد أتدرى من صلى خلفك مؤتما بك قال لا قال كل نبى بعثه الله أى أوحى إليه ولا ينافى قوله ما مر من أنه عرف النبيين لأنه يحتمل أنه عرفهم بأشخاصهم ولم يعرف أنهم صلوا كلهم خلفه مكانه. قال له أتدرى من صلى خلفك منهم لو عرف ونسى أو عرفهم ولم يعرف أنه لم يبق منهم أحد، ولما فرغ أثنى كل نبى على ربه سبحانه بثناء جميل فقال ابراهيم الحمد لله الذى اتخذنى خليلا وأعطانى ملكا عظيما وجعلنى أمة قانتا يؤتم بى وأنقذنى من النار وجعلها على بردا وسلاما وقال موسى الحمد لله الذى كلمنى تكليما وجعل هلاك فرعون ونجاة بنى إسرائيل

على يدى وجعل من أُمتى قوما يهدون بالحق وبه يعدلون وقال داود الحمد لله الذى جعل لى ملكا وعلمنى الزبور و ألان لى الحديد وسخر لى الجبال يسبحن والطير وأعطانى الحكمة وفصل الخطاب وقال سليمان الحمد لله الذى سخر لى الرياح وسخر لى الشياطين يعملون لى ما شئت من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات وكانت باليمن لا تحرك من مواضعها يأكل من الواحدة ألف رجل ، وعلمنى منطق الطير وآتانى من كل شىء فضلا وسخر لى الإنس والطير والدواب وفضلنى على كثير من عباده المؤمنين وآتانى ملكاً لا ينبغى لأحد من بعدى وجعل ملكى ملكاً طيباً ليس فيه حساب ولا عقاب ، وقال عيسى عليه السلام : الحمد لله الذى جعلنى كلمته وجعل مثلى مثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ، وعلمنى الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل وجعلنى أبرىء الأكمه والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله ورفعنى وطهرنى وأعاذنى وأمى من الشيطان الرجيم فلم يكن للشيطان علينا سبيل . فقال النبى – صلى الله عليه وسلم – كلكم أثنى على ربه وأنا مثن على ربى أى مزيد للثناء عليه ثم شرع يقول : الحمد لله الذى أرسلنى رحمة للعالمين وكافة للناس بشيراً ونذيراً ،وأنزل على الفرقان فيه تبيان كل شىء وجعل أُمتى خير أمة أُخرجت للناس وجعل أُمتى وسطاً أى خياراً

عدولا ، وجعل أمتى هم الأولون والآخرون ، وشرح لى صدرى ووضع عنى وزرى ، ورفع لى ذكرى ، وجعلنى فاتحاً أى للشفاعة ، خاتماً . . أى للنبوة . فقال إبراهيم – صلى الله عليه وسلم – بهذا فضلكم محمد – صلى الله عليه وسلم – الإشارة إلى الثناء لا خصوص قولهِ ورفع لى ذكرى خلافاً للأجهورى أى بفصاحته وبلاغته وثوابه ، وفضلكم بفتح الضاد والتخفيف زاد عليكم فى الفضل والأجر دنيا وأخرى وفيه رد على المعتزلة القائلين لا فضل لبعضهم على بعض ، ويرد عليهم ظاهر القرآن أيضاً تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض وتوقف بعضهم ، وقال السكوت أفضل والصحيح ثبوت التفضيل بين الأنبياء غير المرسلين وأن المرسلين أفضل والتفضيل بين المرسلين ، وفى حديث أبى أمامة عند الطبرانى فى الأوسط ثم أقيمت الصلاة فتدافعوا حتى قدموا محمداً – صلى الله عليه وسلم – والجمع بينه وبين ما مر من أن مقدمه جبريل أنهم لما قدموه لم يتقدم حتى قدمه جبريل ، وأخذ النبى – صلى الله عليه وسلم – من العطش أشد ما أخذه فجاءه جبريل – صلى الله عليه وسلم – بإناء من خمر وإناء من لبن فاختار اللبن ، فقال له جبريل: اخترت الفطرة ، ولو شربت الخمر لغوت أمتك ولم يتبعك منهم إلا قليل . وفى رواية أن الآنية كانت ثلاثة والثالث فيه ماء ، وأن جبريل

قال له : لو شربت الماء لغرقت أمتك . وفى رواية أن أحد الآنية التى عرضت عليه فيه عسل بدل الماء ، وأن جبريل قال له : لو شربت العسل لهلكت أمتك بحب الدنيا ، ويجمع بين ذلك بان يكون بعض الرواة اقتصر على إناءين وأن يكون أحد الثلاثة كان فيه عسل،ثم جعل فيه الماء أو مزج العسل به وغلب الماء على العسل أو تكون الأوانى أربعة ، وبعض الرواة اقتصر وبعض وفىً ، روى أنه شرب من العسل قليلا . وروى أنه شرب من الماء قليلا ،فمعنى لوشربت لورويت ،والخمر التى أتى بها هى من خمر الجنة كما جزم به اللقانى وإنما تجنبها لشبهها بخمر الدنيا التى ستحرم ويكون ذلك ابلغ فى الورع وأدق لأنه ترك ما يشابه ما سيحرم ،وأراد بالفطرة اللبن الذى هو علامة الفطرة التى خلق الله عليها العبد وهى الإسلام لكون اللبن سهلا طيباً طاهراً سائغاً للشاربين سليم العاقبة ،أوالمعنى اخترت اللبن الذى عليه تنبت الخلقة وبه نبت اللحم ونشر العظم أو اخترته لأنه الحلال الدائم فى دين الإسلام بخلاف الخمر فستحرم وهى أم الخبائث جالبة لأنواع الشر حالا ومئالا ، وبما ذكرته أولا قال النووى ، وقال القرطبى : يحتمل أنه سمى اللبن فطرة لأنه أول شىء يدخل جوف المولود ويشق أمعاءه والسر فى ميله – صلى الله عليه وسلم – إليه كونه مألوفا له ، وترد القريبى القرطبى

والغيطى فى كون تلك الخمر من الجنة أو لا فعلى أنها منها توقاها لمشابهة الخمر التى ستحرم وهى خمر الدنيا،حرمت فى المدينة وعلى أنها من الدنيا فتوقاها تورعاً وتعريضاً بأنها ستحرم ولما وافق الصواب قال له جبريل : أصبت الفطرة ، وروى : أصبت أصاب الله بك ، قال ابن المنير :اتخذ شراباً حلالا ولو ماء وضاهى به الخمر فى الصورة وهيأه بالهيئة التى يتعاطاها أهل الشهوات من اجتماع وآلات فقد أتى منكراً ولا يجد وقد ذكر مثل ذلك صاحب المعلقات وهو من أصحابنا الأباضية لكنه مجهول فالتحقيق أن ماء البن بلام واحدة وباء مضمومة ونون مشددة المسمى بالقهوة يحرم من حيث تسميته بالخمر وهى لفظ القهوة والاجتماع عليه بهيئة مخصوصة وآلة ،فإن لم يكن ذلك لم يحرم ولو سماه شاربه الخمر قهوة مع أن القهوة من أسماء الخمر إذا لم يعرف معنى هذا الاسم أو عرف ولكن لم ينو المضاهاة ، وعن بعض أنه أتى بإناء خمر وإناء لبن بعد ما خرج من المسجد ولم يذكر ثالثاً . وروى شداد وأوس أنه أتى بإناء لبن وإناء عسل فأخذ العسل بهداية الله فقال جبريل للملك الذى ناوله أخذ صاحبك الفطرة ، وذكر ابن كثير وغيره أنه أتى بالأوانى أيضاً عند سدرة المنتهى ، قال جبريل أيضاً : أصبت الفطرة للتأكيد والتحذير فيما سواه ثم أتى بالمعراج الذى تصعد عليه أرواح

بنى آدم غير المشركين مع الملائكة بعد قبضها حتى تأتى الدار البيضاء تحت العرش فتسجد ثم تؤمر بالرجوع حتى تحضر الدفن وما يفعل بجسدها ولم تر الخلائق أحسن من المعراج يراه المحتضر له مرقاة من فضة ومرقاة من ذهب أحد جانبيه ياقوتة حمراء والآخر زمردة خضراء ، وهو من جنة الفردوس منضد باللؤلؤ ، عن يمينه ملائكة وعن يساره ملائكة ليصعد عليه رسول الله – صلى الله عليه وسلم – مع جبريل عليه السلام إلى السماوات ليرى فيهن قدرة الله وآياته كما قال ﴿ لِنُرِيَهُ ﴾ وقرأ الحسن ليريه بالتحتية التفاتاً عن قوله باركنا ، وقال أيضاً بعد أنه هو والالتفات من طرق البلاغة ، ﴿ مِنْ آيَاتِنَا ﴾ فى السموات فإنما أسرى به إلى بيت المقدس ليسرى منه إلى السماوات فيرى الآيات وقد رأى آيات عظاماً سأذكرها إن شاء الله لك : وهى أعظم وأكثر مما رأى إبراهيم الخليل عليه السلام ، ولو ذكرت بمن التبعيضية لأن إبراهيم رأى ملكوت السماوات والأرض وهى بعض الآيات ، وآيات الله أعم رؤيا منها أكثر مما رأى إبراهيم ويحتمل أن يراد لنريه من آياتنا فى طريقه إلى المسجد الأقصى وفى طريقه إلى السماوات ، وذلك كله فى ليلة واحدة على الراجح وبما قررت به الآية يعلم بطلان استدلال بعض على أن المعراج كان فى ليلة غير ليلة الإسرى إلى المسجد الأقصى بالآية ، لأن الإسراء إلى

السماوات لم يذكر هنا وإنما قدم الإسرى إليه على المعراج ليعرج منه مستويا وقصداً لتفاؤله بالاستقامة وفى رؤيته بيت المقدس مطلقاً فوائد منها : إظهار الحق على من عاند لأنه لو عرج به إلى السماء من مكة ولم ير المقدس فى ذهابه ولا رجوعه لم يجد لرد معاندتهم سبيلا إلى البيان والإيضاح وقد سألوه عن أشياء من بيت المقدس كانوا رأوها فأخبرهم بما يصدقونه ،فيلزم أن يصدقوه فى بقية ما ذكر من العروج ومنها أن يرى القبلة التى صلى إليها زماناً كما عرف الكعبة التى صلى إليها ومنها أن المسجد الأقصى مجمع أرواح الأنبياء عليهم السلام فاراد أن يشرفهم بزيارته ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولما ارتقى هو وجبريل على المرقاة الأولى ارتفعت بهما خمسمائة عام حتى بلغا السماء كما أن بين الدرجتين فى الجنة خمسمائة عام تنحط الدرجة كالجمل المبرك فيصعد عليها ولى الله ثم ترتفع إلى مكانها والظاهر أنهُ سلم واحد خرق السماوات السبع من الأرض لا سبع سلالم لكل سماء سلم ، وفى كلام بعض ما يدل على أنه ارتقى على البراق والمشهور ما ذكرته ،ورأيت فى كلام البخارى نصاً عن أنس أنه ارتقى على البراق وهو حسن ولو اشتهى أنه ارتقى على السلم ،ولما ارتقيا بلغا بابا من أبواب السماء الدنيا يقال له باب الحفظة عليه ملائكة يحفظون السماوات من الشياطين لا يسمعون إلى الملأ الأعلى

ويحفظون الوحى النازل عليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولكل أمة باب فى السماء الأُولى وقيل لكل شخص بابان،باب ينزل منه رزقه وباب يصعد منه عمله ، وقيل للسماء باب واحد ينزل منه الرزق وتصعد منه الأعمال،وعليه فالجمع باعتبار تعدد الأمور الصاعدة منه والنازلة وعلى هذه السماء ملك يسكن الهواء أسفلها قريباً منها هو خازنها وقائمها ، ويسمى إسماعيل أى مطيع الله لم يصعد إلى السماء بالدخول فيها قط وقيل يدخلها ولا يصعد إلى الثانية ولم يهبط إلى الأرض قط إلا يوم مات النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فإنه نزل مع ملك الموت ثم رجع وذكروا أن بين يديه فى خدمته سبعين ألف ملك ، وعن أبى سعيد اثنا عشر ألف ملك ، ألف ملك جند كل ملك مائة ألف ملك، فاستفتح جبريل باب السماء بالقرع وكان صوته معروفاً ولكونه بالقرع قيل من هذا وإنما لم يفتح قبل مجىء رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مع أنه أبلغ فى الكرامة ليعلم أن الفتح لأجله ولإطلاعه على أنه معروف عند أهل السماء،بدليل قولهم أبعث إليه ولم يقولوا ومن محمد وكذلك فى كل سماء ولما استفتح قال له أهل السماء : من هذا . قال : جبريل وذلك أنهم رأوهما ولم يعرفوهما بدليل قولهم من هذا ، وقولهم ومن معك : وقد ذكروا أن جبريل لم يكن حينئذ على الصورة التى يعرفونه بها

فسألوه من هذا ولما أخبرهم قالوا : ومن معك . قال : محمد وذلك أنهم أحسوا أن معه رفيقاً بالمشاهدة لكون السماء شفافة أو لزيادة النور بحضوره - صلى الله عليه وسلم- فسألوه عنه فقال : محمد . فقالوا : أوقد أرسل إليه وفى رواية بعث إليه وعلى الوجهين ، فالمراد البعث للعروج لا الرسالة ، لأنهم عرفوا بها قبل ذلك واشتهرت فى الملأ الأعلى ، وقيل سألوا عن بعثه للعروج تعجباً من نعمة الله عليه بذلك واستبشاراً به وقد علموا أن بشر لا يترقى هذا الترقى إلا بإذن من الله تعالى وأن جبريل لا يصعد بمن لم يرسل إليه ، وقيل إن الله تعالى أراد اطلاع نبيه على أنه معروف عند الملأ الأعلى، لأنهم قالوا أو بعث إليه أو أرسل إليه فدل على أنهم كانوا يعرفون أن ذلك سيقع له وإلا لقالوا : ومن محمد كما مر ولما قيل أو بعث إليه وقال جبريل نعم . قيل : مرحبا به وأهلا ، أى صادفت رحبا بك ، أى وسعاً أو رحب الله بك مرحباً أى ترحيباً ، وأتيت أهلا وأهلك الله أهلا أى تأهيلا ، ويزيد الناس فى كلامهم وسهلا أى وصادفت أو أصبت مكاناً سهلا وعامل الثلاثة محذوف وجواباً لجريان ذلك مجرى المثل حياه الله من أخ ومن خليفة ، أى أبقاه الله من الحياة أو سلم عليه من التحية أو طال حياته أو أكرمه غاية الإكرام ومن زائدة فى التمييز عند بعض الأخوة أخوة الإيمان . قال الله سبحانه

وتعالى : « إنما المؤمنون أخوة » والخليفة وكيل الله فى تنفيذ الأحكام والباقى دينه لأنه خلف الأديان كلها ولا ينسخ والآخر لأنه خاتم الأنبياء قالوا ولنعم المجىء جاء أى جاء ونعم المجىء مجيئه ، ويحتمل أن يكون قالوه لما عاينوه من بركاته عليه السلام التى سبقته السماء مبشرة بقدومه وفيه تقديم وتأخير كما علمت ويحتمل أن يكون جملة جاء حالا من المجىء ، أى جاءه أو جاء وهو أى المجىء مجازاً وإنما قيل مرحباً به لا مرحباً بك ، لأنه حيا قبل فتح الباب وقبل صدور الخطاب من النبى - صلى الله عليه وسلم - أو لتعظيم لأن الغيبة ربما كانت أفخم من كاف الخطاب ، والمتكلم بذلك هو ملك غير صاحب السماء وقيل هو صاحبها إسماعيل المذكور ، وقيل جماعة وهكذا سائر السماوات ، ففتح الملك لهما فلما قطعا غلظ السماء وجد فيها آدم كهيئته يوم خلق على صورته وجماله تعرض عليه أرواح الأنبياء وذريته المؤمنين بعد موتهم ، فيقول : روح طيبة نفس طيبة ، وهذا عطف تفسير على أن الروح والنفس واحدة وهو الراجح ، اجعلوها فى عليين ثم تعرض عليه أرواح ذريته الكفار ، فيقول : روح خبيثة ونفس خبيثة اجعلوها فى سجين ، وعن يمينه أسودة وباب يخرج منه ريح طيبة ، وعن شماله أسودة وباب يخرج منه ريح خبيثة وإذا نظر قبل يمينه ضحك واستبشر وإذا نظر

قبل شماله حزن وبكى فسلم عليه النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فرد عليه السلام ، ثم قال : مرحباً بالابن الصالح ، والنبي الصالح ، فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ من هذا ياجبريل . قال : أبوك آدم وهذه الأسودة نسم بنيه ، فأهل اليمين منهم أهل الجنة ، وأهل الشمال منهم أهل النار ، فإذا نظر قبل يمينه ضحك ، وإذا نظر قبل شماله بكى ، وهذا الباب الذى عن يمينه باب الجنة إذا نظر من يدخله من ذريته ضحك واستبشر ، والباب الذى عن يساره باب جهنم إذا نظر من يدخله من ذريته بكى وحزن ، وقوله اجعلوها فى عليين ، وقوله اجعلوها فى سجين تفويض من الله الأمر إليه فهو يقضى بحكم الله السابق والأسودة جمع سود وهى أرواح لم تدخل الأجساد ستخلق أجسادها بعد فهى غير المعروضة ،وكرر الصلاح فى وصف النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ مع ذكر النبوة ، وذكر النبوة بصلاحيته لكل من النبوة الكاملة والنبوة والصالح هو القائم بحقوق الله سبحانه وحقوق العباد وإن قلت أرواح المؤمنين فى عليين ، وأرواح الكفار فى سجين ، قال الله عز وجل : « لا تفتح لهم أبواب السماء » قلنا يحتمل أن تلك الأرواح التى فى السماء هى التى لم تدخل فى الأجساد وقد تقرر أن الأرواح خلقت قبل الأجساد أو أنها أرواح الأجساد حين خروجها وقبل استقرارها فى عليين أو سجين

أو رآها من مكانه وهى فى محالها أو مثلت له حالة الأرواح فى الاخرة فليست أرواحاً حقيقية أو كانت تعرض عليه الأرواح فى بعض الأوقات أو عرضت عليه فى ذلك الوقت فوافق المعراج ،وفى بعض ذلك منافرة لقوله اجعلوها فى عليين اجعلوها فى سجين ، إلا أن يقال معناه الاستبشار والتحسر أو معناه أبقوها كما هي ولا ينافى كون باب الجنة عن يمينه وباب النار عن يساره ما قيل أن الجنة فى السماء السابعة والنار تحت الأرض السابعة ،لأن الشىء قد يكون عن يمينك أو يسارك وهو أعلى أو أسفل وكان آدم فى السماء لأنه أول الآباء وأول الأنبياء والرسل وهو الأصل ولأجل تأسيس النبوة بالأبوة فى أول انتقاله إلى العالم العلوى والتنبيه على ما سيقع له - صلى الله عليه وسلم - من خروجه من مكة ثم عودة إليها كخروج آدم من الجنة ثم عودة إليها وكلا الخروجين بسبب العدو ،ثم مضى قليلا فوجد أكلة الربا وأموال اليتامى والزناة وغيرهم على حالة شنيعة بنحو ما تقدم من الحالة التى رآهم عليها قبل صعوده وأشنع ، وروى البخارى عن شريك أنه - صلى الله عليه وسلم - رأى فى السماء الدنيا النيل والفرات أصلهما والمشهور أن أصلهما تحت سدرة المنتهى ويجمع بأن أصل نبعهما من تحتها ومقرهما فى السماء الدنيا ومنها ينزلان إلى الأرض ، ووقع فى هذه الرواية أيضاً ما

نصه : ثم مضى به فى السماء الدنيا فإذا هو بنهر آخر عليه قصور من لؤلؤ وزبرجد، وأنهُ الكوثر وهو مما استشكل من رواية شريك فإن الكوثر من الجنة وهى فى السماء السابعة وأُجيب بأَن التقدير :ثم مضى فى السماء الدنيا إلى السماء السابعة فإذا هو نهر ثم صعد إلى السماء الثانية فاستفتح جبريل فقيل : من هذا . قال : جبريل . قيل : ومن معك . قال : محمد . قيل : أو قد أرسل إليه . قال : نعم . قيل : مرحباً به وأهلا حياه الله من أخ ، ومن خليفة فنعم الأَخ ونعم الخليفة ونعم المجىء جاء فلما خلصا إذا هو بابنى الخالة عيسى بن مريم ، ويحيى بن زكريا ، شبيه أحدهما لصاحبه بثيابهما وشعرهما ومعهما نفر من قومهما ، وإذا بعيسى جعد الشعر ليس طويله ولا قصيره من نوع إلى الحمرة والبياض ، سبط الرأس أى مسترسل الشعر كأَنما خرج من ديماس أى حمام والحمام والطاعون والزجاج والقص والصابون من عمل الجن وشبهه ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعروة بن مسعود الثقفى فسلم عليهما فردا عليه السلام، ثم قالا مرحباً بالأَخ الصالح ، والنبى الصالح ودعوا له بخير توافقت الأَنبياء والرسل فى مخاطبة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بصيغة واحدة وذلك من وقوع الخطر وذلك لأَنهم على قلب واحد، ولسان واحد وكذا توافقت الملائكة فى سؤال جبريل والكلام معه فى شأن رسول الله

ـصلى الله عليه وسلمـ وإن قلت لم لم يسل عن عيسى ويحيي عليهما السلام ، قلنا لعل وجهه أنه رأى عيسى عليه السلام فى بيت المقدس حيا فرآه فى السماء كما رآه فى الأرض،لأن ذاته لم يحصل فيها تغير ويعلم أن يحيي مع عيسى فى محل فلم يسأل عنهما بخلاف غيرهما فإنه تغيرت حالته فى السماء؛فسأل عنه وكل منهم قد رفع له من قبره إلى بيت المقدس وإلى السماوات بالروح والجسد عند بعض؛ وحكمة رؤية عيسى ويحيي فى السماء الثانية أنهما الممتحنان باليهود أما عيسى فكذبته اليهود وأذته وهموا بقتله فرفعه الله ، وأما يحيي فقتلوه ففيه الإشارة إلى ما وقع له ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى السنة الثانية من الهجرة من امتحانه باليهود؛ أذوه وعادوه وهموا بإلقاء الصخرة عليه ليقتلوه فنجاه الله منهم كما نجى عيسى منهم ، ثم سموه فى الشاة فلم تزل تلك الأكلة تعاوده حتى قطعت أبهره وتوفى شهيداًـصلى الله عليه وسلمـ فعيسى طلب الانتصار عليهم بقوله « من أنصارى إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله»كذا نبينا ـ صلى الله عليه وسلمـطلب الانتصار،فى السنة الثانية للخروج إلى بدر العظمى فأجابوه ونصروه ولأنه أقرب الأنبياء إلى رسول اللهـصلى الله عليه وسلمـومانسخت شريعته إلا شريعة رسول الله ـصلى الله عايه وسلم ـ ولأنه ينزل فى آخر الزمان لأمة محمدـصلى الله عليه

وسلم ــ على شريعتهم ويحكم بها ، وإذا قال ــ صلى الله عليه وسلم ــ أنا أولى الناس بعيسى وكان يحيي معه لأنه ابن خالته وهما كالشيء الواحد وهذا ما يفيده ظاهر الحديث ، أن مريم أخت أم يحيي ، وعليه مالك وجماعة ،وقيل أم مريم أخت أم يحيي فعيسى ابن بنت خالة يحيي ابن خالة أم عيسى ،فهما أبناء خالة كما فى الحديث لكن بواسطة ثم صعد إلى السماء الثالثة فاستفتح جبريل ، فقيل : من هذا . قال : جبريل . قيل : ومن معك . قال : محمد . قيل : قد أرسل إليه . قال : نعم . قيل : مرحباً به وأهلا وسهلا حياه الله من أخ ومن خليفة فنعم الأخ ونعم الخليفة ، ونعم المجىء جاء ففتح لهما فما خلصا إذا هو بيوسف ومعه نفر من قومه ، فسلم عليه فرد عليه السلام ، ثم قال مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح أى كامل فى الصلاح والمراد بالأخوة أخوة النبوة ، وهكذا فى مثل هذا ودعا له بخير وإذا هو قد أعطى شطر الحسن ، وفى رواية أحسن ما خلق الله قد فضل الناس بالحسن كالقمر ليلة البدر على سائر الكواكب ، قال من هذا ياجبريل . قال : أخوك يوسف ، أى شطر الحسن المنقسم بين الناس غير نبينا محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ فإنه قد أعطى الحسن الكامل كما قال البوصيرى :

منزه عن شريك فى محاسنه   فجوهر الحسن فيه غير منقسم

ولم يحصل الافتتان به كيوسف عليه السلام لأن حُسن يوسف لم يكن عليه غطاء ، وحُسن نبينا ــ صلى الله عليه وسلم ــ غطى بالجلال والمهابة والمتكلم لا يدخل فى عموم كلامه إلا بقرينة فلا يقال إن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ مقاسم للناس فى الشطر الباقى ولا يقال إنهُ داخل فى قوله احسن ما خلق الله وقوله قد فضل الناس ، وقال ابن المنير جد الدماميني إن المراد أنهُ أعطى شطر الحسن الذى أوتيه نبينا محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ وعن أنس عن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ما بعث الله نبياً إلا حسن الوجه حسن الصوت وكان نبيكم أحسنهم وجهاً وأحسنهم صوتاً ، قيل حكمة رؤيته ــ صلى الله عليه وسلم ــ يوسف عليه السلام فى السماء الثالثة ثلاثة أمور الأول : الإشارة إلى حاله فى السنة من الهجرة تشبه حالة يوسف وما جرى له مع أخوته الذين أخرجوه من بين أظهرهم ثم ظفر بهم فصفح عنهم ، وقال : لا تثريب عليكم اليوم وكذا نبينا ــ صلى الله عليه وسلم ــ جرى له مع قريش كذلك نصبوا له الحرب وأرادوا هلاكه ،وكانوا سبباً فى إخراجه من بين أظهرهم ثم ظفر بهم فى غزوة الفتح فصفح عنهم وقال : أقول كما قال أخى يوسف : لا تثريب عليكم اليوم ، وفى هذا نظر فإنهُ لا يختص بالسنة الثالثة . الثانى : أن المناسبة أن السنة الثالثة من سنى الهجرة

وقعت فيها غزوة أحد ومما اتفق فيه من المناسبة شيوع قتل النبي – صلى الله عليه وسلم – فناسب ما حصل للمسلمين من الأسف على فقد نبيهم ما حصل ليعقوب من الأسف لاعتقاد فقده إلى أن وجد ريحه بعد تطاول الأمد الثالث أن يوسف كيد وألقى فى غيابات الجب حتى استنقذه الله تعالى على يد من شاء ورسول الله – صلى الله عليه وسلم – وقع يوم أحد فى حفرة حفرها أبو عامر الفاسق لعنه الله مكيدة للمسلمين على جنبه فضرب بالحجارة على جبهته فأخذ على بيده واحتضنه طلحة حتى قام – صلى الله عليه وسلم – وقال ابن أبى جمرة – حكمة ذلك أن أمة سيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم – تدخل الجنة على حُسن يوسف ، فأرى له فى الثالثة تبشيراً ثم صعد إلى السماء الرابعة فاستفتح جبريل فقيل من هذا . قال : جبريل . قيل : ومن معك . قال : محمد . قيل : وقد أرسل إليه بحذف همزة الاستفهام ، قال : نعم . قيل : مرحباً به واهلا حياه الله من أخ ومن خليفة فنعم الأخ ونعم الخليفة ونعم المجىء جاء، وفتح لهما فلما خلصا إذا هو بإدريس قيل هو جد أى نوح قد رفعه الله مكانا علياً هو الجنة أو السماء الرابعة وخص بالرفعة مع أن من فى الخامسة أو فوقها أرفع لأنه أرفع حيا فسلم عايه فرد عليه السلام ثم قال مرحباً بالأخ الصالح والنبى الصالح ثم دعا له بخير وقال بالأخ الصالح

تلطفاً وتأدباً ، وقد روى مرحباً بالابن الصالح على أنه من آبائه ، وفى عمود نسبه ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقيل المراد به إلياس وهو بعد نوح وليس من عمود نسبه وهو ضعيف، ولم يسأل عن إدريس لأنه رآه فى بيت المقدس على حاله فى السماء الرابعة وحكمة رؤيته فى الرابعة الإشارة لحالة رابعة فى السنة الرابعة من الهجرة من علو شأنه ورفعة منزلته وعظم سطوته وأحرزه ـ صلى الله عليه وسلم ـ لخصائص إدريس ـ عليه السلام ـ فإنه أول من كتب بالقلم وكتب إلى الملوك يدعوهم إلى التوحيد وقاتل بنى قابيل فكذلك نبينا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ اتخذ الكاتب والخاتم، وكتب عنه بالقلم إلى ملوك الآفاق عند استعجال الإسلام يدعوهم إلى طاعته ، وقال ابن أبى جمرة : كان إدريس فى الرابعة لأنه هناك توفى، ولم تكن له توبة فى الأرض على ما ذكر ثم صعد إلى السماء الخامسة فاستفتح جبريل ، قيل من هذا . قال : جبريل . قيل : ومن معك . قال : محمد . قيل : أو قد أرسل إليه. قال: نعم . قيل مرحباً به وأهلا حياه الله من أخ ومن خليفة فنعم الأخ ونعم الخليفة ونعم المجىء جاء، ففتح لهما فلما خلصا فإذا هو بهارون والنصف الأعلى من لحيته أبيض والنصف أسود تكاد تصل سرته من طولها والنصف الأسود هو الذى قبض عليهِ موسى وحوله قوم من بنى إسرائيل

وهم أولاد يعقوب عليهم الصلاة والسلام ومعنى إسرائيل بالعربية صفوة الله ، وقيل عبد الله فأسر عبداً وصفوة وائل الله وهو يقص عليهم أخبار الأمم السابقة فسلم عليه فرد عليه السلام ، ثم قال مرحبا بالأخ الصالح والنبي الصالح ثم دعا له بخير ، فقال : ياجبرايل من هذا . قال : هذا الرجل المجيب فى قومه هارون بن عمران ، وكان ألين وفى موسى شدة فكانوا يؤذونه وكان فى الخامسة ملك ، نصفه نار ونصفه ثلج يقول سبحان من ألف بين الثلج والنار ، وقال القرطبى إن هذا تسبيح أهلها كلهم ، وإن من قالها مرة كان له مثل ثوابهم ومات هارون قبل موسى ، وقال يارب مات أخى فاغفر له فأوحى الله تبارك وتعالى إليه لو سألتنى الأولين والآخرين لأعطيتك إلا قاتلى الحسين ابن على فإنى انتقم منهم يوم القيامة وحكمة رؤيته لهارون فى الخامسة ثلاثة أمور الأول : الفصاحة فإنه أفصح من موسى كما قال الله تعالى عن موسى ، هو أفصح منى لساناً ولا شك أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أفصح من هارون لأن كلامه عربى وكلام هارون عبرى ، والعربية أفصح ثم هو أفصح العرب كلهم ، وكثر ظهور فصاحته فى العام الخامس من الهجرة لكثرة انتشار القرآن والأمر والنهى فيه لظهور الإسلام فيه أكثر مما سبق. الثانى : المحبة فإن هارون محبب فى قومه فلقيه فى الخامسة

ليؤذن بمحبة قريش له ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى السنة الخامسة فإنه كثر فيها الإسلام وحبه ولو بقى جمهورهم على الكفر تبعاً لمن توغل فى الكفر والبغض. الثالث: الإشارة إلى حصول حالة له ــ صلى الله عليه وسلم ــ تشبه حاله هارون مع بنى إسرائيل مما ناله منهم من الإيذاء ثم انتصاره عليهم بعد ما عبدوا العجل بعد ذهاب موسى للمناجاة ونظير ذلك ما وقع لنبينا ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى السنة الخامسة من قريظة والنضر وقينقاع، فإنهم نقضوا العهد وحزبوا الأحزاب وجمعوها وأظهروا عداوته ــ صلى الله عليه وسلم ــ وأرادوا قتله فأظهره الله بهم وقتلهم ذكره النجم الغيطى. قال اللقانى: فيه شىء يمنع المناسبة فى ذكر بنى النضير وقينقاع إذ وقعة بنى النضير إنما كانت فى الرابعة بعد أحد وكانت أحد فى الثالثة باتفاق، وأما بنو قينقاع فغزوتها فى الثانية فلا مناسبة إلا فى ذكر قريظة، إذ كانت بعد الخندق والخندق على قول الجمهور كانت فى السنة الخامسة، ثم صعد إلى السماء السادسة فاستفتح جبريل قيل من هذا. قال: جبريل. قيل: ومن معك. قال: محمد. قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحبا به وأهلا حياه الله من أخ ومن خليفة فنعم الأخ ونعم الخليفة ونعم المجىء جاء ففتح لهما فجعل يمر بالنبى والنبيين معهم الرهط، أى أقل من عشرة رجال والنبيين معهم القوم

والنبي والنبيين ليس معهم أحد لعدم من صدق به ،ثم مر بسواد عظيم فقال :من هذا. قيل :موسى وقومه ولكن ارفع رأسك فإذا هو بسواد عظيم قد سد الأُفق من الجهات الست ،فقال هؤلاء أُمتك وسوى هؤلاء من أُمتك سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب لا يكتوون ولا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون ،ولما ذكر ذلك قال عكاشة رضى الله عنه أنا منهم. قال : نعم. فقال منافق :أنا منهم. قال : سبقك بها عكاشة ولم يقل لست منهم سترا عليه ،والقول بأَن القائل لهُ بعد عكاشة مسلم وأنهُ سعد بن عبادة مردود ولما جاوزا ما ذكر من النبي والنبيين فإذا هو بموسى بن عمران رجل آدم أى أسمر طوال بضم وتخفيف كأَنه من رجال أزدشنوءة كثير الشعر مع صلابته ، لوكان عليه قميصان لنفذ شعره دونهما حال الغضب فسلم النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فرد عليه السلام ثم قال مرحبا بالأَخ الصالح والنبي الصالح ثم دعا له بخير ،وقال يزعم الناس أنى أكرم بنى آدم على الله منى فلما جاوره النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بكى فقيل له ما يبكيك. قال :أبكى لأَن غلاما بعث من بعدى يدخل الجنة من أُمته أكثر ممن تدخل الجنة من عم بنو أُمتى إسرائيل إنى أكرم بنى آدم على الله ،وهذا رجل من بنى آدم خلفنى فى دنيا وأتى فى أخرى بتخفيف اللام أى أتى خلفى

فلو أنه فى نفسه لم أبال ولكن معه أمته وهم أفضل الأمم عند الله
وفى رواية لهان على وإنما سماه غلاما على عادة العرب وهى أنهم لا يطلقون
الغلام على الرجل إلا إذا كان سيدا فيهم. قاله ابن أبى جمرة، وقيل
باعتبار زمان موسى وسنه إلى أن اجتمعا وقيل العرب يسمى مستجمع السن
غلاما ما دامت فيه بقية القوة، وكان وهو مستمر القوة إلى أن دخل
سن الشيخوخة حتى أن الناس فى قدومه للمدينة لما رأوه مردفا أبا بكر
أطلقوا عليه اسم الشاب وعلى أبى بكر اسم الشيخ مع أنه -صلى الله عليه
وسلم - سن أمن أبى بكر ، واعلم أن أكثر أهل الجنة هذه الأمة ،
وقد صح أن أهل الجنة مائة وثمانون صفا ، هذه الأمة ثمانون صفا
وسائر الأمم أربعون وبكى موسى، وكلامه فى شأن ذلك كله الغبطة
المحمودة وأسف على ما فاته من الأجر لأن لكل نبى مثل أجر من اتبعه
والقائل له ما يبكيك هو الله سبحانه وهو أعلم ويدل لهذا قوله فى
بعض الروايات: وكيف لا أبكى يارب، وكان بكاؤه بعد مفارقته
-صلى الله عليه وسلم - وقبل أن يبعد مراعاة لجانبه وليسمع بشارته
بأن داخلى أمتهُ الجنة أكثر من داخلى أمة موسى، وكان لقاء موسى فى
السادسة لأنهُ - صلى الله عليه وسلم - أراد فى العام السادس أن يدخل
مكة بمن معهُ ليقيم شريعة الله سبحانهُ وسنة إبراهيم فصدوه ودخلها فى

العام المقبل وآل أمره إلى أن فتح مكة وقهر المتجبرين والمستهزئين
كما أن موسى عليهِ السلام أراد أن يقيم الشريعة فى الأَرض المقدسة
وحمل قولهُ على ذلك فتقاعدوا وقالوا إن فيها قوما جبارين وإنا لن
ندخلها حتى يخرجوا منها ،وتعجلوا بعد ذلك بالشرط فقالوا إنا لن
ندخلها حتى يخرجوا منها أبدا ما داموا فيها وأوقعهم الله فى التيهِ وآل
الأَمر إلى قهر الجبارين على يد يوشع عليه السلام وإخراجهم من أرضهم
قد عالج موسى قومهُ كما عالج رسول الله ـ صلى الله عليهِ وسلم ـ قومهُ
فلذلك لقيهُ إيذانا بذلك وأوذى كما أذى موسى قومهُ بل أكثر لقولهِ
ـصلى الله عليه وسلم ـ لقد أوذى موسى بأَكثر من هذا فصبر ،قال ابن أبى
جمرة كان موسى فى السادسة لفضائلهِ ولأَنهُ الكليم وأكثر الأَنبياء
اتباعا بعد نبينا ـصلى الله عليهِ وسلم ـفلذلك لم يكن هارون معهُ فى
السادسة بل كان فى الخامسة ثم صعد إلى السماء السابعة فاستفتح جبريل
فقيل :من هذا: قال :جبريل. قيل :ومن معك. قال :محمد. قيل :أو قد أُرسل
إليهِ. قال :نعم. قيل :مرحبا بهِ وأهلا ،حياه الله من أخ ومن خليفة فنعم
الأَخ ونعم الخليفة ونعم المجىء جاء ففتح لهما فلما خلصا فاذا هو النبى
ـصلى الله عليهِ وسلم ـبإبراهيم الخليل ـصلى الله عليهِ وسلم ـجالس عند
باب الجنة أشمط على كرسى من ذهب ،وقال القليوبى من زبرجد أخضر

مسند ظهره إلى البيت المعمور، أى أكثر من يدخله ويسمى الضراح لأنه ضرح عن الأرض أى بعد، فقيل إنه فى السماء الرابعة وقيل فى الأولى وهو من عقيق، وقيل من ياقوتة حمراء لاصدع فيها ولاوصل وفى حديث إن له أربعة أركان ركن من ياقوت أحمر وركن من زمرد أخضر وركن من فضة بيضاء وركن من ذهب أحمر، ومعهُ نفر من قومه فسلم عليه النبى - صلى الله عليه وسلم - فرد عليه السلام وقال مرحبا بالابن الصالح والنبى الصالح، فقد عرفه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بمجرد الرواية فلم يسأل عنه، وفى رواية أن جبريل قال له بلا سؤال هذا أبوك فسلم عليه، فسلم عليه وقال مرحبا بالابن الصالح من أمتك فلتكثر من غراس الجنة أى من مغروسها، أى سببه أو هى ثوابه غراس الجنة، فإن تربتها طيبة أى لا يخيب غراسها وأرضها واسعة، فقال وما غراس الجنة قال: لاحول ولا قوة إلا بالله أى فيغرس لقائلها بكل مرة شجرة. قال ابن مسعود عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن جبريل عن الله بمعنى ذلك لاحول عن معصية الله إلا بعصمة الله ولاقوة على طاعة الله إلا بعون الله. وفى رواية: أقرىء أمتك منى السلام وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة عذبة الماء وأن غراسها سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، ويجمع بأن كلا من غراسها وعنده أطفال

فقال : من هم ياجبريل قال أولاد المؤمنين وأولاد الكافرين وهم فى كفالته وعنده قوم جلوس بيض الوجوه أمثال القراطيس بياضا ونقاء وقوم فى ألوانهم شىء فقام هؤلاء الذين فى ألوانهم شىء فدخلوا نهرا فاغتسلوا فيه فخرجوا وقد خرج من ألوانهم شىء، ثم دخلوا نهرا فاغتسلوا فيه وقد خلص من ألوانهم شىء ثم دخلوا نهرا فاغتسلوا فيه وقد خلص ألوانهم فصارت مثل ألوان أصحابهم فجاءُوا فجلسوا إلى أصحابهم أى عندهم. فقال جبريل من هؤلاء البيض الوجوه ومن هؤلاء الذين فى ألوانهم شىء وما هذه الأنهار التى دخلوها فاغتسلوا. فقال : أما هؤلاء البيض الوجوه فقوم لم يلبسوا أى يخلطوا إيمانهم بظلم أى بمعصية وأما هؤلاء الذين فى ألوانهم شىء فقوم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا فتابوا فتاب الله عليهم أى قبل توبتهم ورجعت نعمته إليهم وألطافه فمحا ذنوبهم ولم يؤاخذهم بها وأما هذه الأنهار فأولها رحمة الله والثانى نعمة الله والثالث سقاهم منه ربهم شرابا طهورا، أى صيرهم من أهله وحكمته رؤية ابراهيم فى السماء السابعة أن ابراهيم الأب الأخير فناسب أن يتجدد للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بلقيه أنس لتوجهه بعده إلى عالم آخر وأيضا فمنزلة الخليل تقتضى أن تكون أرفع المنازل ومنزلة الحبيب أرفع من منزلته. ولذلك ارتفع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى

ما فوق السابعة وأيضا أنه اعتمر عمرة القضاء فى السنة السابعة ودخل مكة هو وأصحابه ملبين معتمرين محييا لسنة إبراهيم عليه السلام فكان لقاؤه فى السماء السابعة فقد علمت حكمة اختصاص كل نبى من تلك الأنبياء بسماء وتلك الخصال المذكورة عنهم أيضا هى سبب لقاء النبى – صلى الله عليه وسلم – إياهم دون سائر الأنبياء وقيل إن الأنبياء كلهم امروا بملاقاته – صلى الله عليه وسلم – فمنهم من أدركه فى أول وهلة ومنهم من تأخر فلحقه ،ومنهم من فاته وقد قيل إنه لم يرنوحا مع أنهُ من أولى العزم أو أنهُ أبوه لأن تلك الليلة رحمة ، فناسب أن لا يرى من استأصل قومهُ بالعذاب ؛ وروى شريك عن أنس أن إدريس فى الثانية وهارون فى الرابعة وإبراهيم فى السادسة وموسى فى السابعة بتفضيل كلام الله ولم أحفظ الباقى ؛ وقال يزيد بن أبى مالك عن أنس كذلك لكنه قال هارون فى الرابعة وإدريس فى الخامسة ،وكذا قال بعض لكن قال يوسف فى الثانية ويحيى وعيسى فى الثالثة وقد يجمع بتعدد الإسراء أو بأن موسى كان حالة العروج فى السادسة وإبراهيم فى السابعة وعند الهبوط كان موسى فى السابعة لأنه هو الذى كلمه فيما يتعلق بما فرض على أمته من الصلاة فناسب أن يكون فى السابعة لأنها أول ما ينتهى إليه الهبوط أو لقيه فى السادسة فأصعد معه إلى السابعة

تفضيلا له من أجل كلام الله،وظهرت فائدة ذلك فيما يتعلق بأمر أمته في الصلاة والله أعلم. رأى أرواحهم إلا عيسى وإدريس فرأى روحيهما وجسديهما ويحتمل رؤيتهم في بيت المقدس بأرواحهم أو بها وبأجسادهم أو عاين كلا في قبره من الموضع الذى ذكرنا أنه رآه فيه؛بأن قوى الله بصره وبصيرته ولا ترجيح لوجه على الآخر إذ القدرة صالحة لكل ثم قيل له-صلى الله عليه وسلم-هذا مكانك ومكان أمتك وإذا أمته شطران شطر عليهم ثياب كأنها القراطيس وشطر عليهم ثياب رمد جمع أرمد أى أكدر؛فدخل البيت المعمور ودخل معه الذين عليهم الثياب البيض وحجب الذين ثيابهم رمد،وهم على خير،فصلى ومن معه من المؤمنين ركعتين فيه أعلمه جبريل أنه يدخله أى من بابه الشرقي سبعون ألف ملك ويخرجون أى من الغربي ولا يعودون إليه أبدا،قيل وفي ذلك إشارة إلى أنه إذا دخل البيت الحرام بعد الهجرة لا يدخليه إلا يوم الفتح ثم لا يعاوده إلا في حجة الوداع وهكذا أوقع على الصحيح وفي رواية يدخله كل يوم سبعون وجيها مع كل وجيه سبعون ألف ملك والوجيهِ الرئيس ودل ذلك في الروايتين أن الملائكة أكثر المخلوقات إذ لا يعرف من جميع العوالم ما يتجدد من جنسهِ كل يوم ذلك العدد،والبيت المعمور بحذاء الكعبة لو خر لخر عليها وقيل

فى البيت المعمور بالمؤمنين والأنبياء والملائكة قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم رفعت إلى سدرة المنتهى أى أظهرت لى وإليها ينتهى ما يعرج من الأرض بواسطة الملائكة فيقبض عندها، وإليها ينتهى ما يهبط من فوق فيقبض عندها وإليها ينتهى ما يهبط من فوق فيقبض عندها، من أمر ونهى وحكم وعمل وغير ذلك مما يجرى على الخلق وما يصدر منهم وعندها تقف الحفظة وغيرهم ولا يتعدونها ولذلك سميت سدرة المنتهى، ولا يجاوزها من فوقها ولا من تحتها وقيل لأنه ينتهى إليها علم الخلق لا يعلم ما وراءها إلا الله، وقيل لأنه ينتهى إليها من مات مؤمنا حقا من هذه الأمة قال النووى لأن علم الملائكة ينتهى إليها ولم يجاوزها أحد إلا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأكثر الأخبار أنها فى السماء السابعة ؛ وروى مسلم عن ابن مسعود أنها فى السادسة ويجمع بينهما بأن أصلها فى السادسة وفروعها وأغصانها فى السابعة ، وروى أن أغصانها تحت الكرسى . قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ وإذا هى شجرة يخرج من أصلها النهار من ماء غير آسن بمد الهمزة وقصرها أى لا يتغير فيتبين وأنها من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى ومراده بأصلها ، أصلها حقيقة أو ما يقرب منه يسير الراكب فى ظلها سبعين عاماً ، وفى رواية مائة

عام لا يقطعها ، وروى مسلم عن أنس ثم ذهب بى إلى سدرة المنتهى فإذا ورقها كآذان الفيلة ، وإذا ثمرها كالقلال أي قلال هجر ، كما صرح به فى روايات وهجر بفتحتين قرية من قرى المدينة ، والفيلة بكسر الفاء وفتح الياء جمع فيلة بكسر فإسكان والمراد أن شكل ثمارها وشكل أوراقها كما ذكر وإلا فهى أعظم من ذلك ولكن مثل لهم بما يعرفون ، روى تكاد الورقة منها تغطى هذه الأمة ، وروى الورقة منها تغطى الخلق على كل ورقة ملك يسبح الله تعالى،فغشيها ألوان لا يدرى ما هى فلما غشيها من أمر الله ما غشيها وهو الملائكة أو فَراش الذهب بفتح الفاء تغيرت إلى حالة من الحسن غير التى كانت عليها،والمفرد فراشة وهى الطير الشبيهة بالذباب يلقى نفسه فى ضوء السراج ،والمراد هناجراد حقيقة من ذهب والقدرة صالحة لذلك ، كما ورد فى حديث يزيد ابن مالك ، عن أنس ، وقال البيضاوى : ذكر الفراش تمثيلا لأن من شأن الشجرة أن يسقط عليها الجراد وشبهه ، وروى ثابت عن أنس عند مسلم فلما غشيها من أمر الله ما غشيها تغيرت فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها ، وروى حميد عن أنس عند ابن مردويه ، تحولت ياقوتاً وزبرجدا ومغرسها تراب من أرض الجنة أو الهواء أو لا مغرس لها ، والله على كل شىء قدير ، وإذا فى أصلها أربعة أنهار

نهران باطنان ونهران ظاهران ، فقال ما هذه الأنهار ياجبريل . قال : أما الباطنان فنهران فى الجنة أى الكوثر والسلسبيل ، وأما الظاهران فالنيل والفرات . قال القرطبى : ما فى الجنة نهر إلا يخرج من أصل سدرة المنتهى قيل ولعلها مغروسة فى الجنة ، والأنهار من أصلها فيصح أن الأنهار المذكورة من الجنة كما روى مسلم عن أبى هريرة : أربعة أنهار من الجنة ، النيل والفرات وسيحان وجيحان ؛ ومن خواص ماء الجنة أن من شربه لا يموت ، وأنه لا فضلة له ولكن ذلك مادام فى محله . قيل : والباطنان يبطنان ويغيبان فى الجنة بعد خروجهما من أصل السدرة ، وذكر بعضهم أن النيل والفرات ينزلان من الجنة على أغصان سدرة المنتهى ثم ينزلان إلى أصلها فإلى السماوات وإلى الأرض ؛ وعن أبى حاتم عن أنس أن جبريل عليه السلام انطلق برسول الله – صلى الله عليه وسلم – على ظهر السماء السابعة حتى انتهى به إلى الكوثر فوجد عليه طيراً خضراً أنعم طير ؛ وعن أبى سعيد عند البيهقى فإذا فيها عين تجرى يقال لها السلسبيل ينشق منها نهر الكوثر ؛ ونهر الرحمة ؛ ويروى أن تحت ساق العرش شجرة تشبه الرمان فيها أوراق على عدد أرواح الخلق ، مكتوب فى كل ورقة اسم صاحبها وملك الموت ينظر إليها فإذا اصفرت منها ورقة علم قرب أجل صاحبها فيوجه إليه أعوانه فإذا

سقطت قبض روحه. وفى بعض طرق هذا الأثر أن سقوطها على ظهرها علامة حسن الخاتمة وعلى بطنها علامة سوء الخاتمة ، أعاذنا الله من ذلك. وروى أن فى يمين العرش نهراً من نور يقال له الحيوان يدخله جبريل كل سحر يوم فينغمس ويغتسل فيه، فيزداد نوراً وجمالا ويخرج فينتفض فيخرج سبعون ألف قطرة بخلق الله من كل قطرة ملكاً وفيهم الذين يصلون فى البيت المعمور كل يوم منهم سبعون ألفاً ولا يعودون إليه أبداً ، وروى أن ثم ملائكة يسبحون الله تعالى فيخلق بكل تسبيحة ملكاً وهم غير ملائكة التعبد وغير ملائكة النبات والرزق والحفظ وتصوير ابن آدم والسحاب وكتابة الناس يوم الجمعة والجنة والنار والتعاقب بالليل والنهار والتأمين على قراة المصلى وقول ربنا ولك الحمد والدعاء المنتظر الصلاة ولعن من هجرت فراش زوجها ، وفى السماء الأولى ملائكة من ماء وريح عليهم ملك يقال له الرعد موكل بالسحاب والمطر، يقولون سبحان ذى الملك والملكوت ، وفى الثانية ملائكة على ألوان شتى رافعين أصواتهم يقولون سبحان ذى العز والجبروت وفيها ملك نصفه نار ، ونصفه ثلج فلا النار تذيب الثلج ولا الثلج يطفىء النار يقول يامن ألف بين الثلج والنار ألف بين قلوب عبادك المؤمنين وأهل الثالثة يقولون سبحانك أنت الحى الذى لا يموت وهم صفوف كبنيان

مرصوص . لا يعرف أحدهم لون صاحبه من خشية الله ؛ وأهل الرابعة يقولون سبوح قدوس ربنا الرحمن الذى لا إله إلا هو وهم على ألوان شتى من العبادة يبعث الملك إلى أمر فينصرف ولا يعرف الذى بجنبه من شدة العبادة ، وأهل الخامسة ركوع وسجود لم يرفعوا أبصارهم إلى يوم القيامة ؛ فإذا كان يوم القيامة قالوا : ربنا لم نعبدك حق عبادتك ، وأهل السادسة عليهم ملك جنده سبعون ألف ملك وكل واحد جنده سبعون ألف ملك وأهل كل سماء على ضعف التى تحتها والسابعة على أضعاف لا تحصى ، ولحملة العرش وجوه وأعين لكل واحد لا يشبه بعضها بعضاً يتجاوبون بصوت حسن رخيم ؛ يقول أربعة منهم سبحانك وبحمدك على عفوك بعد قدرتك ؛ وأربعة سبحانك وبحمدك على حلمك بعد علمك تطبق الدنيا بريشة واحد منهم ، وقيل هم فى الدنيا أربعة فقط وفى رواية أنه ــ صلى الله عليه وسلم ــ رأى جبريل عند السدرة وله ستمائة جناح يتناثر من أجنحته الدر والياقوت مما لا يعلمه إلا الله ثم أخذ يسير جهة الكوثر حتى دخل الجنة فإذا فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر فرأى مكتوباً على بابها الصدقة بعشر والقرض بثمانية عشر ، فقال ياجبريل : ما بال القرض أفضل من الصدقة . قال : لأن السائل يسأل وعنده ، والمستقرض لا يستقرض

إلا من حاجة أى غالباً.والمعتمد أن ذلك غير باق وأن الصدقة أفضل وإنما قال : ما بال . . الخ . قبل أن يعلمه الله بأفضلية الصدقة وجمع ابن حجر بأن القرض أفضل من حيث الابتداء لما فيه من صون وجه من لا يعتاد السؤال عن السؤال والصدقة أفضل من حيث الانتهاء لما فيها من عدم رد المقابل ، ووجه تخصيص ثمانية عشر ، أن درهم القرض بدرهمين من دراهم الصدقة كما ورد ، ودرهم الصدقة بعشرة.فدرهم القرض بعشرين اثنان أصل والبقية فضل ودرهم القرض يرجع مثله للمقرض وهو بدرهمين من جملة مبلغ أصله الدرهم المردود وعدله لما ورد أنه بدرهمين ومبلغ أصله عشرون يتأخر للمقرض ثمانية عشر وإنما لم تبطل يرجع أصلها،كما بطل ذلك الأصل برجوعه له لأنه محض فضل من الله الرحمن الرحيم ،والباب الذى كتب فيه ذلك هو باب الزكاة للمناسبة ولذلك الزكاة وأبوابها ثمانية :باب الصلاة وباب الزكاة وباب الصوم وباب الجهاد وباب التوبة وباب الراضين وباب الكاظمين الغيظ وباب من لا حساب عليهم ، وقال رأيت رمان الجنة كالدلاء ، وروى كجلود الإبل المقتبة أى التى بأقتابها والعرب تتخذ جلد ناقة دلو فتناسب الروايتان ، وطيرها كالبخاتى فى العظم وطول العنق والبختى البعير العظيم الطويل العنق ذكراً أو أنثى ، قال أبو بكر : يارسول الله

إن تلك الطير لناعمة أى متنعمة . عرف أبو بكر ذلك بمحلها ، قال لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أكلتها بفتح الهمزة والكاف جمع آكل أنعم منها وإنى أرجو أن تأكل منها ؛ ورأى نهر الكوثر على حافته قباب الدر المجوف وإذا طينه مسك أذفر كالمسك فى الرائحة وكالزعفران فى اللون ، وقيل ابيض اللون وكل تراب الجنة أبيض وشرب منه وهو أبيض فوق اللبن وأحلى من العسل وهو غير حوضه الذى بعد النار وقبل الجنة على الراجح ثم عرضت عليه النار فإذا فيها غضب الله ونقمته لو طرح فيها الحجارة والحديد لأكلتها فإذا قوم يأكلون الجيف أى الميتات المنتنات فقال :من هؤلاء ياجبريل . قال : هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس أى المغتابين ، ورأى مالكاً خازن النار فإذا هو رجل عابس يعرف الغضب فى وجهه رآه على صورة الرجل ولو كان بصورته لم يطق أن ينظر إليه ويحتمل أن يكون رآه على باب النار أو فيها إذا لم تسلط عليه فبدأ مالك النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالسلام تعظيماً وإزالة للوحشة . وفى رواية بدأه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وجمع بأن هذه مرة ثانية ثم أغلقت النار دونه ولما رفع فوق سدرة المنتهى غشيته سحابة فيها من كل لون فتأخر جبريل ، فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ يا أخى ياجبريل : فى مثل هذا المحل يترك الخل خليله . فقال :

إن تجاوزته احترقت بالنور وما منا إلا له مقام معلوم ،ثم عرج به
-صلى الله عليه وسلم - حتى وصل موضعاً مسترفعاً سمع فيه صرير الأقلام
أى صوتها ،تنقل الملائكة من اللوح المحفوظ ما كتبه القلم فيه فى
كتبهم بأقلامهم ورأى رجلا مغيباً فى نور العرش حقيقاً أو مثالا
ترغيباً فى الذكر فقال : من هذا . أملك . قيل : لا . قال : أنبى . قيل : لا .
قال : من هو . قيل : هذا رجل كان فى الدنيا لسانه رطب من ذكر
الله وقلبه معلق بالمساجد ولم يستسب لوالديه قط ،لم يتعرض لشتمهما
بأن يشتم والدى غيره فيسب والديه . وعن ابن مسعود أن إبراهيم عليه
الصلاة والسلام ، قال للنبي - صلى الله عليه وسلم - يانبى إنك لاق ربك
الليلة وإن أمتك آخر الأمم وأضعفها فإن استطعت أن تكون حاجتك
فى أمتك فافعل ، وذكر بعضهم أنه لما قال جبريل إن جاوزته احترقت
قال له رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ياجبريل : هل لك من حاجة
إلى ربك . قال يامحمد : سل الله أن يبسط جناحى على الصراط لأمتك
حتى يجوز ولما كامه الله سبحانه وتعالى هنالك بالوحى كما يكامه به
فى الأرض قال له - صلى الله عليه وسلم- الله تبارك وتعالى وأين حاجة
جبريل . فقال : اللهم إنك أنت أعلم . فقال : يامحمد قد أجبته فيما
سأل ولكن فيمن أحبك وصحبك وظاهر ذلك ثبوت الصراط بمعنى

الجسر الممدود على النار ولامانع منه ولوشدد أصحابنا على من أثبته وإنما الممنوع تفسير الصراط المستقيم به فإن الصراط المستقيم دين الحق ولم ير ربه ،ومن زعم أنه رأى ربه سبحانه وتعالى فقد أعظم الله الفرية كما قال الربيع بن حبيب رحمه الله عن عائشة ومثله فى صحيح البخارى ومسلم بلا وحى الله جل جلاله إليه. سل . فقال : إنك اتخذت إبراهيم خليلاً وأعطيته ملكاً عظيماً ،أى الجمع بين سياسة الدنيا وشرع الدين ، والملك فى ذريته لسليمان وكلمت موسى تكليماً وأعطيت داود ملكاً عظيماً أى إباحة النساء فكان له مائة امرأة وألنتَ له الحديد وسخرت له الجبال للتسبيح وأعطيت سليمان ملكاً عظيماً سخرت له الجن والإنس والرياح وأعطيته ملكاً لا ينبغى لأحد من بعده وعلمت عيسى التوراة والإنجيل وجعلته يبرىء الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذنك وأعذتهُ وأمهُ من الشيطان الرجيم. قال بعض العلماء : قال عيسى عليه السلام : أعيانى مداوة الأحمق ولم يعينى مداوة الأكمه والأبرص وإن ملك رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بعد ذلك أعظم من ملك سليمان لأنه أعطى مفاتيح خزائن الأرض وجبال تهامة وبطحاء مكة ذهباً وفضة فأباها، فقال : يارب أجوع يوماً وأشبع يوماً ،فأشكرك إذ شبعت وأتضرع إليك إذا جعت. ولما كان قوله - صلى الله عليه وسلم - إنك اتخذت

إبراهيم خليلا الخ متضمناً للسؤال ولا سيما أنه مجيب لربه إذ قال له :
سل أجابه الله سبحانه وتعالى بأنى قد اتخذتك حبيباً ، قال القليوبى
الحبيب أعلى رتبة من الخليل والمحبة أرفع من الخلة ، والخلة لازمة
للمحبة خلافاً لبعضهم وهو مكتوب فى التوراة حبيب الله وأرسلتك
للناس كافة بشيراً ونذيراً وشرحت لك صدرك ووضعت عنك وزرك
ورفعت لك ذكرك لا أذكر إلا ذكرت معى وجعلت أمتك خير أمة
أخرجت للناس، وجعلت أمتك وسطاً وجعلت أمتك هم الأَولون وهم
الآخرون وجعلت أمتك لاتجوز ،أى لا تكمل لهم خطبة حتى يشهدوا
أنك عبدى ورسولى وجعلت من أمتك أقواما قلوبهم أناجيلهم أى محل
أناجيلهم جمع إنجيل والمراد القرآن ،أى يحفظونه فى قلوبهم وجعلتك
أول النبيين خلقاً وآخرهم بعثاً وأولهم يقضى له بالانصراف من المحشر
وبدخول الجنة وأعطيتك سبعاً من المثانى لم أعطها نبياً قبلك ،
وأعطيتك خواتم سورة البقرة من كنز تحت العرش لم أعطها نبياً قبلك
وأعطيتك الكوثر وأعطيتك ثمانية أسهم الإسلام والهجرة والجهاد والصدقة
وصوم رمضان والأَمر بالمعروف والنهى عن المنكر وأى يوم خلقت السماوات
والأَرض فرضت عليك وعلى أمتك خمسين صلاة فقم بها أنت وأمتك
والأَكثر على أن صوم رمضان من خصوصية هذه الأُمة على أن الضمير

فى قوله عز وعلا: كما كتب على الذين من قبلكم لمجرد الصوم والمختص
به من الأمر والنهى استمرار وجوبهما بعد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ
ودخل فى المعروف الواجب والمندوب والمستحب وفى المنكر ما كان حراماً
أو مكروها أو خلاف الأولى والإسلام اختص باسمه هذه الأمة عن
الأمم لا عن الأنبياء فإنهم قد اتصفوا بها ، وفى رواية وأعطى رسول الله
ـ صلى الله عليه وسلم ـ الصلوات الخمس أى بحسب آخر الأمر وأما
أولا فكانت خمسين أو بحسب الأول والآخر لأن الخمسين هى الخمس
لأن الحسنة بعشر وأعطى خواتم سورة البقرة وغفر لمن لم يشرك بالله
شيئاً للقحطان أى الكبائر بمجرد التوبة وشروطها بلا قطع عضو عصى
به ونحو ذلك،ثم انجلت عنه السحابة المسماة بالرفرف الأخضر وبحجاب
النور وأخذ بيده جبريل فانصرف سريعاً فأتى على إبراهيم فلم يقل شيئاً
ثم أتى على موسى فرده ليراجع ربه فى أمر الصلاة كما يأتى وذلك أن
إبراهيم خليل ومقام الخلة التسليم وموسى كليم ومقام المكالمة المراجعة ،
قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ نعم الصاحب كان لكم يعنى
موسى. قال له : ما صنعت يامحمد ، ما فرض ربك عليك وعلى أمتك .
قال : خمسين صلاة كل يوم وليلة ، قال : ارجع إلى ربك أى إلى
موضع مناجاة ربك ، فاسأله التخفيف عنك وعن أمتك فإن أمتك

لا تطيق ذلك فإنى قد خبرت الناس قبلك ، وبلوت بنى إسرائيل وهم مراده بالناس والعطف تفسير وعالجتهم أشد المعالجة على أدنى من هذا يعنى ركعتين بالغداة وركعتين بالعشى ، وقيل ركعتان بالزوال لا خمسون صلاة ،كما قيل إنها من الأمر الذى كلفوه. وفيه حديث موضوع وقيل خاص لبعضهم . قال موسى : فضعفوا عنه وتركوه فأمتك أضعف أجساداً فى النحافة وأبداناً أى فى الطول وقلوبا أى فى الرقة وأبصاراً وأسماعاً وهما تابعان لقوة البدن وضعفه غالباً ، وقول موسى ذلك المذكور من عدم الطاقة بحسب العادة ،واستدل بعضهم به على أن الحكم بالعادة جائز ،وإنما قال إن أمتك لا تطيق ذلك لأن العجز مقصور عليها لا يتعداها إلى نبينا ومقام النبوة لا يليق به العجز فإن نبينا ـ صلى الله عليه وسلم يطيق ذلك وأكثر لما أعطى من الكمال ولا سيما أنه قال : جعلت قرة عينى فى الصلاة وتستشهد بقوله فإنى قد خبرت الناس. . الخ . فالتفت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى جبريل يستشيره فيما قال موسى عليه السلام ، فأشار إليه جبريل أن نعم إن شئت ، فرجع سريعاً حتى انتهى إلى الشجرة فغشيته السحابة وخر ساجداً ، وقال : رب خفف عن أمتى فإنها أضعف الأمم ولم يقل وعنى أو عنها وعنى تأدباً ولأنه يفهم طلب التخفيف عنه ، قال الله تبارك وتعالى : قد وضعت عنهم

خمساً ولزم من الوضع عنهما وضع عنه ثم انجلت السحابة ورجع إلى موسى فقال :وضع عنى خمساً . فقال :ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف فإن أمتك لا تطيق ذلك فلم يزل يرجع بين موسى وبين موضع مناجاة ربه يحط عنه خمساً خمساً حتى قال : يامحمد . قال : لبيك وسعديك . قال : هن خمس صلوات كل يوم وليلة لكل صلاة عشر فذلك خمسون صلاة لا يبدل القول لدى أى أن الخمس هى الخمسون المأمور بها أولا بلا نقص ولكن أظهر له أنها خمسون ثم ما زال يحط عنه إظهاراً لكرمه وقبول شفاعة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فى أمته وفى ذلك دليل على أن كل صلاة مكررة عشر مرات فالظهر كانت عشرة أظهار كل واحدة أربع ركعات ، وأن صلاة الحضر تامة خففت فى السفر وهو قول الجمهور وصححوه ، قال ابن عباس : فرضت أربعاً إلا المغرب فثلاثا وإلا الصبح فاثنتين ، وقال بعض فرضت اثنتان ثم زيد فى الحضر إلا الفجر فلم يزد فيه وبه قال أصحابنا قال بعض :والحكمة فى كون الصلاة خمساً أن الحواس التى تقع بها المعصية خمس فيمحون معاصى الحواس وجعلت مثنى وثلاث ورباع لتوافق أجنحة الملائكة لتطير بها إلى الله سبحانه وتعالى وفرضت ليلة الإسرى لأنه رأى فيها الملائكة متعبدين فمنهم قائم لا يقعد وراكع لا يسجد وساجد لا يقعد فجمع

الله سبحانه ذلك لنا فى ركعة نصليها بإخلاص . قال الله جل جلاله يعد الخط إلى الخمس ومن هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة فإن عملها كتبت له عشرا أو من هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب شيئاً فإن عملها كتبت سيئة واحدة ، قوله فى الحسنة فلم يعملها المراد به أنه لم يعملها لمانع أو لغير مانع ويتفاوت عظم الحسنة بحسب المانع فإن كان خارجياً وقصد الذى هم مستمر فهى عظيمة القدر ،وإن كان الترك من قبل الذى هم فهى دون ذلك فإن قصد الأغراض عنها جملة فالظاهر أنه لا تكتب له حسنة أصلا ولا سيما أن عمل بخلافها مثل أن يهم بأن يتصدق درهماً فصرفه بعينه فى معصية وإن قل هل تكتب بمجرد الهم قلت لابد من العزم والتصميم ويحتمل أن تكتب بمجرد الهم زيادة فى الفضل،وكل من الهم والعزم والتصميم قلبي لكن يطلع سبحانه وتعالى الملائكة الحفظة على ذلك أو يجعل لذلك رائحة طيبة والوجهان فى الهم بالسيئة فإن تركها الله كتبت له حسنة وإن صمم على السيئة ،كتبت له سيئة ولكن إثم العامل أكبر من إثم المصمم وإنما اقتصر فى ذكر الحسنة على العشر لأنه لابد من العشر لكل حسنة مقبولة وإلا فالتضعيف يكون إلى المبلغ مائة وضعفه وأضعاف كثيرة بسبب قوة الإخلاص وبعد ذلك انجلت السحابة فنزل حتى انتهى

إلى موسى - صلى الله وسلم عليهما - فأخبره بذلك إلا قوله ما يبدل القول لدى بدليل أن موسى أمره بالرجوع فإنه قال له ارجع إلى ربك الكريم فاسأله التخفيف فإن أمتك لا تطيق ذلك، فقال: قد راجعت ربى حتى استحييت منه ولكن أرضى وأسلم ، فنادى مناد وهو ملك أو صوت خلقه فى الهوى حكاية عن الله جل جلاله أن قد أمضيت فريضتى وخففت عن عبادى وكأن موسى لم يوافق نبينا - صلى الله عليهما وسلم - على ترك الرجوع فنادى المنادى إعلاماً بذلك له وذلك التخفيف واقع فى حقنا وحقه - صلى الله عليهِ وسلم - خلافاً للسيوطى فى قوله : أنه - صلى الله عليه وسلم - باق عليه فرض الخمسين . قال أبو هريرة : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان موسى عليه السلام أشدهم على حين مررت ، وخيرهم لى حين رجعت ، رواه الطبرانى والبزار. قال السهيلى : اعتنى موسى عليه السلام بهذه الأُمة وألح فى التخفيف عليها كما يعتنى بالقوم من هو منهم شفقة ورحمة لأنه لما رأى فى المناجاة أمة صفتهم كذا صفتهم كذا فكان يقول : اللهم اجعلهم أمتى ، اللهم اجعلهم أمتى ، فيقول الله جل جلاله : هى أمة محمد . قال : اللهم اجعلنى منهم ، وإن قلت هل فى نسخ الخمسين إلى الخمس دليل على جواز النسخ قبل التبليغ ، قلت : لا دليل فيه وذلك ممنوع

إجماعاً والنبى -صلى الله عليه وسلم- مكلف بذلك ؛ وقد بلغه الملك فذلك نسخ فى حقه بعد التبليغ وقيل الفعل لجواز النسخ قبله وبعد التبليغ خلافا للمعتزلة وقد مر ما يدل على أنهُ لا نسخ فى ذلك أصلا ولكن بيان وإيضاح فى كون الخمس قائمة مقام الخمسين بفضل الله وكرمه وأن الخمسين المأمور بها أولا هى الخمس فمن صلى الخمس فقد صلى الخمسين فلم يتبدل القول . ثم قال له موسى : اهبط بسم الله ولم يمر على ملأ من ملائكة إلا قالوا عليك بالحجامة ، وفى رواية : مر أمتك بالحجامة ويجمع بأنهم الحجامة منه ومن أمته - صلى الله عليه وسلم - إذا ظهرت مضرة الدم ولا سيما الأرض الحارة كالحجاز ثم انحدر فقال لجبريل: مالى لم آت أهل سماء إلا رحبوا بى وضحكوا لى غير واحد سلمت عليه فرد على السلام ورحب بى ودعا لى ولم يضحك لى ، فقال ذالك مالك خازن النار لم يضحك منذ خلق ؛ ولو ضحك لأحد لضحك لك ولما نزل إلى سماء الدنيا نظر إلى أسفل منها ،فإذا هو برهج ودخان وأصوات والرهج الغبار ،فقال: ماهذا ياجبريل . قال : هذه الشياطين أى رهجهم ودخانهم وأصواتهم يحومون على أعين بنى آدم لا يتفكرون فى ملكوت السماوات والأرض ولولا ذلك لرأوا العجائب المؤدية إلى التوحيد والعبادة ثم ركب البراق منصرفاً إلى مكة وهو معد له فى الأرض أو تحت السماء

الدنيا وتقدم قول بعضهم أنه عرج به إلى السموات ويوافقهُ مافى حياة الحيوان ، وقول البوصيرى :

وترقى به إلى قاب قـو سين قبلك السيادة القعساء

وصححوا أنه صعد على المعراج وقد يجمعوا بأنه صعد عليه راكباً على البراق والله أعلم. ويأتى باقى الكلام إن شاء الله تعالى عند قوله تبارك وتعالى : « وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس » فإن المشركين كذبوا بالإسراء وهددهم بقوله عز وجل :﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ ﴾ لتكذيبهم لأقوال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ودعائه وكل صوت أى العليم بذلك كله﴿ الْبَصِيرُ ﴾ العليم بأفعال المكذبين وغيرهم والحافظ لرسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقت إسرائه فى الليل .﴿ وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ ﴾ التوراة ﴿ وَجَعَلْنَاهُ ﴾ أى الكتاب ﴿ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلاَّ تَتَّخِذُوا ﴾ أن مفسره لأن فى إيتاء الكتاب وفى جعلناه هدى معنى القول دوماً حروفه ولا ناهية أو أن ناصبة ولا نافية وعليه فالتقدير على أن لا تتخذوا أو بأن لا تتخذوا أو لئلا تتخذوا،وقرأ أبو عمر وأن لا تتخذوا بالتحتية وفيه الأوجه السابقة ،﴿ مِن دُونِي وَكِيلًا ﴾ أى ربا تكلون إليه أموركم غيرى تجعلونه شريكاً ومن دونى مفعول ثان ووكيلا مفعول أول ،﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ﴾ منادى بحرف محذوف

أى ياذرية من حملنا مع نوح،على معنى القول والنهى،أى قلنا لهم لا تتخذوا من دونى وكيلا ياذرية من حملنا أو على التعليل أى لئلا تتخذوا ياذرية وكذا على تقدير على أو الياء أو منصوب على الاختصاص أى أخص ذرية من حملنا . . الخ . . لأن الاختصاص قد يلى ضمير المخاطب نحو بك الله نرجو الفضل ، وأما على قراءة يتخذوا بالتحتية فلا يصح الاختصاص لأنه لا يلى ضمير غائب ولا يصح النداء بل يكون مفعولا أولا ووكيلا مفعولا ثانيا ، وقدم لأن الأهم النهى عن اتخاذ الوكيل لا بيان من اتخذ ومفاصلة كذا قال ابن هشام ، وقيل إن الفاصلة لا تكون قبل تمام الكلام ومن دونى حالا من وكيلا أى من ضميره ويجوز ذلك أيضاً على قراءة التاء الفوقية أيضاً وذلك أنهم اتخذوا بعض الناس أربابا فنهوا أو ذلك نفى بمعنى النهى لأن المراد الزجر عن ذلك،والذرية يطلق على البعض والكل والمراد ببنى إسرائيل والذرية فى أوجه النداء والاختصاص واحد فإن بنى إسرائيل ذرية من حمل مع نوح وكذا غيرهم ذرية من حمل مع نوح وفى غير أوجه النداء والاختصاص المراد لا تتخذوا بعض ذرية من حملنا مع نوح وكيلا،وقد ارتكبوا هذا النهى لما اتخذوا عزيراً وعيسى وأمه آلهة والمراد بمن حملنا أولاد نوح فقط لأن غيرهم لم يلد أوالمراد المجموع

لكن بتخصيص أولاده وقرئ برفع ذرية على أنه خبر لمحذوف أى هم
ذرية من حملنا مع نوح على قراءة الياء التحتية أوأنتم ذرية على قراءة
الفوقية ويجوز أن يكون بدلا من واو يتخذوا بالتحتية لا بالفوقية
لأن الظاهر لا يبدل من ضمير الحاضر إلا بدل بعض أو اشتمال أو بدل
كل بشرط أن يبدل بدل الكل على الإحاطة كقولك جئتم صغيركم
وكبيركم وقرأ زيد بن ثابت ذرية بكسر الذال وفسرها بولد الولد
ولو بواسطات كثيرة كما هنا،والتحقيق أن الذرية بالضم والكسر سواء
بمعنى ولد الولد أو بمعنى الولد وعلى كل حال فنكتة ذكر ذرية من حمل مع
نوح التذكير بإنعام الله عليهم فى إنجاء آبائهم من الغرق بحملهم
فى السفينة مع نوح والحث على الشكر ليقتدوا بنوح فإنه شكور كما قال
﴿ إِنَّهُ ﴾ أى نوحاً ، ﴿ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾ فذكر هذه الجملة للحث
عليه وللايماء بأن أنجاه ومن معه ببركة شكره وللتعليل أى لا تتخذوا
من دونى وكيلا لأن نوحاً شكرنى ولم يكفر نعمتى باتخاذ الشريك وأنتم
ذريته فكونوا مثله ويجوز أن يكون تعليلا لاختصاصهم والثناء عليهم
بأنهم أولاد المحمولين مع هذا العبد الشريف فهم متصلون به،ويجوز
أن تكون الجملة قد ذكرت استطراداً حين ذكر نوح كما قال بعضهم
الشىء بالشىء يذكر،أى يجوز ذكر شىء من قصة الشىء ولو لم تلائم

المقام لذكر ذلك الشيء الذى له قصة وذكر الجملة هذه لحكمة عظيمة ولو خالفت ما قبلها وهى التلويح لكل أحد بالأمر بالشكر، قيل كان نوح إذا أكل قال الحمد لله الذى أطعمنى ولو شاء أجاعنى ، وإذا شرب قال الحمد لله الذى سقانى ولو شاء أظمأنى ، وإذا اكتسى قال : الحمد لله الذى كسانى ولو شاء أعرانى ، وإذا احتذى أى لبس نعلا قال الحمد لله الذى حذانى ولو شاء أحفانى ، وإذا قضى حاجته قال : الحمد لله الذى أخرج عنى إذاه فى عافية ولو شاء حبسه ، وكان إذا أراد الإفطار عرض طعامه على من آمن به فإن وجده محتاجاً آثره به. وقال سلمان الفارسى رضى الله عنه وغيره : وصف نوح -صلى الله عايه وعلى نبينا وسلم- بالشكر لأنه يحمد الله فى كل حال وعلى كل نعمة على المطعم والمشرب والملبس والبراز ،أى قضى حاجة الإنسان وعلى فى ذلك كله للتعليل وقيل شكره حمده الله إذا لبس ثوبا جديدا وقيل الإيمان،ونسب هذا للعامة وقيل الضمير لموسى أى أن موسى كان عبدا شكورا . قال ابن مبارك فى رقائعه أخبرنى أبو ذؤيب عن سعيد المقبرى عن أبيه عن عبد الله بن سلام أن موسى عليه السلام قال: يارب ما الشكر الذى ينبغى لك . قال يا موسى لا يزال لسانك رطبا من ذكر الله. وقد روى عن رسول الله - صلى الله لميه وسلم- بإسنادين: الشكر الذى ينبغى أن لا يزال لسانك رطبا

من ذكر الله ﴿ وَقَضَيْنَا إلى بنى إِسْرَائِيلَ ﴾ أى عليهم فإلى بمعنى على ﴿ فِى الْكِتَابِ ﴾ اللوح المحفوظ وذلك لا ينافى الخطاب ويعد خلافا لبعضهم الجواز، كتبت عليه أن قم ونحوه مما فيه خطاب وغيبة والجواز كون ذلك التفاتا إلى الخطاب فالأصل فيما بعد ذلك هو الغيبة لكن إنما يتم هذا إذا خرجناه على مذهب السكاكى فى الالتفات وعلى أن المكتوب فى اللوح المحفوظ ليفسدن أو يفسدون ونحو ذلك من ألفاظ الغيبة ويجوز أن يضمن قضينا معنى أوجبنا فعدى بإلى فيكون الكتاب التوراة أى أثبتنا الموحى فى التوراة وقطعناه فيها ﴿ لَتُفْسِدُنَّ ﴾ بالمعاصى أى والله لتفسدن وجملة القسم المحذوف وهذا الجواب المذكور مفعول لقضينا لأن فيه على كل حال معنى القول أو لتفسدن جواب لقضينا إجراء له مجرى القسم وقرىء لتفسدن بالبناء للمفعول وقرىء بفتح التاء من فسد ﴿ فِى الْأَرْضِ ﴾ أرض الشام أو حقيقة الأرض والمراد الشام ﴿ مَرَّتَيْنِ ﴾ أى وقتين وهو ظرف متعلق بتفسد أو مفعول مطلق على حذف مضاف أى إفساد مرتين أو على استعماله بمعنى إفسادتين ﴿ وَلَتَعْلُنَّ ﴾ الأصل تعلوونن بضم اللام والواو وبعدها حذفت ضمة الواو لثقلها، فالتقت ساكنة مع واو الجماعة فحذفت ثم حذفت نون الرفع لئلا تتوالى نونان فالتقت واو الجماعة ساكنة مع النون

المدغمة ،والمراد بالعلو كبرهم عن طاعة الله وعلى الناس وظلمهم الناس ﴿ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾عظيما والمرة الأُولى مخالفة أحكام التوراة وقتل شعياء وأرمياء والمرة الثانية قتل زكريا ويحيي وقصد قتل عيسى عليه السلام وقيل الأُولى قتل زكريا وحبس أرمياء حين أنذرهم سخطا لله عز وجل والثانية قتل يحيي بن زكريا وقصد قتل عيسى عليه السلام ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا ﴾ أى وعد عقاب أُولى المرتين أى الأُولى منهما والوعيد بمعنى العقاب نفسه فإن الوعد يستعمل بمعنى الإِخبار بالخير أو الشر بمعنى نفسه الخير أو الشر وأصله الأَول واعلم أن أُولى مؤنث اسم تفضيل بوزن فعلا بألف التأنيث وضم الفاء وإسكان العين فالواو مدة للهمزة فالهمزة تمد بها،والمرة الأُولى هى ما ذكرناه آنفا ﴿ بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا ﴾ وقرىء عبيدا وأكثر مايقال عباد الله وعبيد الناس﴿ لَّنَا ﴾ نعت لعبادا وهم على الأَصح بخت نصر وجنوده وهو عامل لهراسف وقيل جالوت الخزرى وجنوده وهو الذى قتله داود والخزرى نسبة إلى الخزر،وهو ضيق العين وصغرها أو جيل من الناس وقيل سنجاريب وجنوده . وروى القول الثانى عن ابن عباس وسنجاريب فيما قيل هو ملك بابل من أهل نينوى والقول الأَخير روى عن ابن إسحاق وابن جبير واختاره الزمخشرى﴿ أُوْلِي بَأْسٍ ﴾ بطش﴿ شَدِيدٍ ﴾ فى الحرب أوالبأس

هو نفس الحرب ﴿ فَجَاسُوا ﴾ طافوا وترددوا للقتل والغارة طالبين لذلك ﴿ خِلَالَ الدِّيَارِ ﴾ وسط الديار بين دار أُخرىٍ ووسط كل الدار قتلوا كبارهم وسبوا سبعين ألفا من صغارهم وأحرقوا التوراة وخربوا بيت المقدس. وقرأ أبو السماك فحاسوا بالحاء المهملة ،والمعنى واحد ولله أن يسلط الكفرة على قتل المسلمين وسبي صغارهم وغنم مالهم وإحراق كتابهم وتخريب المسجد ،وذلك لحكمة استأثر الله جل وعلا بها ويعاقب الكفرة بذلك لأنهم فعلوا باختيارهم وإن شئت فعل ذلك تخلية لهم منه وعدم منع ،والعبارة الأُولى أنسب بقوله بعثنا ﴿ وَكَانَ ﴾ وعد أُولاهما أو كان بعثنا العباد عليهم أو كان جوسهم خلال الديار والمعنى واحد ﴿ وَعْدًا مَّفْعُولاً ﴾ لابد أن يفعل ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ ﴾ الدولة سميت كرة لأنهم يكرون بها أى يرجعون بها إلى ما كانوا فيه ﴿ عَلَيْهِمْ ﴾ أى على الكفرة الذين بعثوا عليكم وذلك حين تبتم عن الفساد والعلو. روى أن الله الرحمن الرحيم ألقى شفقة عليهم في قلب بهمز راسفيديار لما ورث الملك من جده كشتاسف بن الهراس فرد أسراهم إلى الشام وملك ذانيال عليهم فاستولوا على من كان فيها ممن أتى بخت نصر ،وقيل تلك الكرة هى تسليط داود على جالوت حتى قتله ،ولفظ رددنا ماض ومعناه مستقبل وذلك لعطفه على بعثوا الواقع جوابا للشرط بل على

جاسوا المعطوف عليه وإن استؤنف بناء على جواز ثم للاستئناف فالتعبير للمضى لأن رد الكرة واقع بعدلا محالة فكأنه واقع ﴿ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً ﴾ منهم أو مما كنتم عليه والنفير من ينفر مع الرجل من قومه إلى العدو وقيل جمع نفر وفسره بعضهم بالعشيرة وبعض بالعدد﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ ﴾ الخ . من جملة ما قضى الله جل جلاله إلى بنى إسرائيل فإن الكلام كله إلى حصيرا داخل تحت قوله عز وجل وقضينا إلى بنى إسرائيل وقدر بعضهم القول أى وقلنا لهم إن أحسنتم باتباع الأوامر واجتناب المناهى﴿ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ﴾ لأن ثواب ذلك لكم﴿ وَإِنْ أَسَأْتُمْ ﴾ بترك الأوامر وارتكاب النواهى ﴿ فَلَهَا ﴾أى فإساءتكم لأنفسكم لأن عقاب ذلك عليها واللام بمعنى على وعبر بها ليزدوج بقوله لأنفسكم أو هى لام استحقاق أى كنتم أهلا للعقاب. قال على بن أبى طالب ما أحسنت إلى أحد ولا أسأت إليه وتلا الآية﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ ﴾ أى المرة الآخرة أى وعد عقوبة المرة الأخيرة أو الوعد بمعنى العقاب أى عقاب المرة الآخرة وقد مر بيانها وجواب إذا محذوف تقديره بعثناهم عليكم يدل عليه الأول أو سلطنا عليكم الفرس والروم وبذلك المحذوف يتعلققوله﴿ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ ﴾ أى ليجعلوها سيئة بادية عليها آثار الحزن والهم،وذلك فرع إدخال

الحزن والغم فى قلوبهم فكأنه قيل ليغموكم ويحزنوكم وقرأ أبو عمرو وحمزة وأبو بكر ليسيء الياء وكسر السين وفيه ضمير مستتر عائد إلى الله جل جلالهُ على أن يقدر الجواب سلط الله عليكم أو بعث الله عليكم وإما على تقدير سلطنا أو بعثنا فعلى طريق الالتفات أو عائد البعث أو الوعد وتؤيد قراءة الكسائى لنسوء بالنون مفتوحة عوده إلى الله سبحانهُ وتعالى،وقرأ على ليسؤن بفتح اللام والياء وضم السين ممدودة بواو بعدها همزة بعدها نون التوكيد خفيفة قرأ بعضهم كذلك لكن بتشديدة وقرأ بعض كذلك لكن بنون المتكلم أولا ونون التوكيد الخفيفة آخراً وبعض كذلك بالنون أولا لكن بالنون الخفيفة آخراً ، ووجه فتح اللام فى هذه القراءة أن الجملة جواب لقسم مقدر قيل إذا مستغنية عن جواب إذا فوالله إذا جاء وعد الآخرة ليسوءن،أو يقدر جواب إذا مثلها بلا لام ولا توكيد أو الجملة جواب لقسم مقدر بعد جواب إذا المقدر من جنس جواب إذا الأولى واللام فى قراءة الكسر لام تعليل كما علمت وهو الواضح وقيل لام الأمر وهو ضعيف هنا لتنافر غيبة المأمورين مع خطاب المخاطبين وكذا القولان فى اللامين بعد ، ﴿ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ ﴾عطف على ليسوءوا والمراد بالمسجد بيت المقدس ونواحيه ﴿ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ أى وقت إفسادهم الأول وكلا

الدخولين لتخريب المسجد ، ﴿ وَلِيُتَبِّرُوا ﴾ أى يهلكوا فالتشديد للتعدية يقال تبر بالتخفيف بمعنى هلك وتبره بالتشديد بمعنى أهلكه وإن جعلناه من تبر المخفف المتعدى كان التشديد للتأكيد ومن المخفف المتعدى لفظه متبوراً فإنهُ اسم مفعول تبر الثلاثى وفيه ضمير مستتر ، ﴿ مَا عَلَوْا ﴾ما اسم وهو مفعول يتبروا والرابط محذوف أى وليتبروا ما علوه أى ما غلبوه واستعلوا عليهِ من بنى إسرائيل وأموالهم وبلادهم أو ظرفية مصدرية والمفعول محذوف أى وليتبروا كل شيء سلطوا عليه ما داموا غالبين﴿ تَتْبِيرًا ﴾ إهلاكاً ،﴿ عَسَى رَبُّكُمْ أن يَرْحَمَكُمْ ﴾ بعد المرة الثانية فيرد دولتكم إن تبتم . قال فى عرائس القرآن ؛ قال محمد ابن اسحاق بن بشار وغيره من أهل الأخبار : كانت بنو إسرائيل يرتكبون الأحداث والذنوب بعد موسى عليهِ الصلاة والسلام ، وكان الله سبحانهُ يتجاوز عنهم ويحسن إليهم وكان أول ما نزل بهم لذنوبهم ملكاً منهم يدعى صديقه ،وكان الله إذا ملك عايهم ملكاً بعث معهُ نبياً يسدده ويرشده ولا ينزل عليهم كتاباً إنما يؤمرون بأحكام التوراة فبعث الله عز وجل شعياء بن أمضياء يسدد ويرشد صديقه ، وشعياء هذا هو الذى بشر ببيت المقدس حين شكا الخراب ، فقال : أبشرى سيأتيك راكب الحمار ومن بعده صاحب البعير وصاحب الحمار

هو سيدنا عيسى وصاحب البعير هو سيدنا محمد ـ صلى الله عليهما وسلم ـ وكان شعياء قبل مبعث زكريا ويحيى وعيسى عليهم السلام وبقى الملك لصديقه وشعياء يرشده ولما عظمت فيهم الأحداث بعث الله عليهم سنجاريب ملك بابل معه ستمائة ألف راية فنزل بيت المقدس وقد هابهم الناس وفروا منهم فكبر ذلك على الملك وهو مريض فى ساقه قرحة ، فقال لشعياء : يانبى الله هل أتاك وحى من الله تعالى فيما حدث فتخبرنا كيف يفعل الله بنا وبسنجاريب وجنوده. فقال: لا، فبينما هم كذلك إذا أوحى الله إلى شعياء عليه السلام أن ائت ملك بنى إسرائيل فمره أن يوصى بوصيته ويستخلف على أهل مملكته من يشاء من أهل بيته وعشيرته ومراد الله سبحانهُ وتعالى بذلك بيان أن الاجل كأنه قد حضر ولو طال وبقيت له خمس عشرة سنة وبيان نعمة الله عليه إذ أنجاه وجنوده من سنجاريب، كان كمن حضره الموت يقينا فنجى منه وإلا فقد بقى من أجله خمس عشرة سنة ، والمراد أن عمره قسمان قد انقضى القسم الأول وبقى القسم الثانى الذى زاده الله لدعائه وتضرعه الذى أذكره فيما بعده بقليل ،وهذا القسم الثانى قضاه الله فى الأزل وعلم به أيضاً والله أعلم ، فأتى شعياء صديقه فأخبره بذلك فاستقبل القبلة يصلى وبكى ودعا وقال فى دعائه وهو يبكى :اللهم رب الأرباب إله القدوس

المتقدس ، يارحمن يارحيم ، يارءوف الذى لا تأخذه سنة ولا نوم ، اذكرنى بعملى وفعلى وحسن قضائى ، وذلك كله كان منك وأنت أعلم به منى،سرى وعلانيتى لك. فأوحى الله جل جلاله إلى شعياء أن خبر صديقه أنى استحييت له ورحمته وأخرت أجله خمس عشرة سنة وأنجيته من عدوه سنجاريب فأخبره بذلك شعياء عليه السلام،ومعنى أخرت أجله أى قضيت له فى الأزل خمس عشرة سنة يعيشها بعد هذه المدة التى هى فى صورة حضور الموت،فلما أخبره ذهب عنه الحزن والوجع وخر لله ساجداً ، وقال : يا إلهى وإله آبائى لك سجدت وسبّحت وكرمت وعظمت، أنت الذى تعطى الملك لمن تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء عالم الغيب والشهادة الأول والآخر والظاهر والباطن،وأنت ترحم وتجيب دعوة المضطرين،أنت الذى أجبت دعوتى ورحمت تضرعى، فلما رفع رأسه أوحى الله إلى شعياء أن قل للملك صديقه يأمر عبداً من عبيده فيأتيه بالتين ويجعله على قرحته فيبرأ ففعل ذلك وبرىء ، وقال الملك لشعياء : سل ربك أن يجعل لنا علماً بما هو صانع بعد فينا . قال الله تعالى لشعياء: قل له إنى قد أكفيتك عدوك وأنجيتك منهم وأنهم سيصبحون موتى كلهم إلاسنجاريب وخمسة نفر من كتابه ، فلما أصبح جاء صارخ يصرخ على باب المدينة :

يامللك بنى إسرائيل قد كفاك الله عدوك فاخرج إن سنجاريب ومن معه قد هلكوا فخرج الملك فالتمس سنجاريب فلم يجده فى الموتى فبعث فى طلبه فأدركه الطلب فى مغارة وخمسة من كتابه أحدهم بخت نصر فجعلهم فى الجوامع أى فى القيود والسلاسل ثم أتوا بهم الملك، فلما رآهم خر لله تعالى ساجداً من حين طلعت الشمس إلى العصر ثم قال لسنجاريب: كيف ترى فعل الله بكم ألم يغلبكم بحوله وقوته ونحن وأنتم غافلون؟ فقال سنجاريب : قد أتانى خبر ربكم ونصره إياكم قبل أن أخرج من بلادى فلم أطع مرشداً فلم يلقنى فى الشقوة إلا قلة عقلى ولو سمعت أو عقلت ما غزوتكم ، ولكن الشقوة غلبت على وعلى من معى فقال صديقه الحمد لله رب العالمين ، الحمد لله الذى كفاناكم بماشاء، إن ربنا لم يبقك ومن معك لكرامتك ولكنه إنما إبقاك لتزدادوا شقوة فى الدنيا وعذاباً فى الآخرة ولتخبروا من وراءكم بما رأيتم من فعل الله ، ودمك ودم من معك أهون عند الله من دم قراد لوقتلت، ثم إن ملك بنى إسرائيل أمر أمير جيشه فقذف فى رقابهم الحبال وطاف بهم سبعين يوماً حول بيت المقدس وإيلياء وكان يرزقهم فى كل يوم خبزتين من شعير لكل رجل منهم ، فقال سنجاريب لملك بنى إسرائيل : القتل خير مما يفعل بنا فافعل ما أمرت فأمر بهم إلى السجن حتى يخرجهم إلى

القتل فأوحى الله تعالى إلى شعياء أن قل لملك بنى إسرائيل يرسل سنجاريب ومن معه لينذروا من وراءهم ويكرمهم ويحملهم حتى يبلغوا بلادهم ، فبلغ شعياء ذلك فخرج سنجاريب ومن معه حتى قدموا بابل ، فلما قدموا جمع الناس فأخبرهم كيف فعل الله بجنوده ، فقال له سحرته : ياملك بابل قد كنا نقص عليك خبرهم وخبر نبيهم ووحى الله إليهم فلم تطيعونا وهم أمة لا يستطيعها أحد من ربهم وكان ذلك آية وعبرة ومات سنجاريب بعد ذلك بسبع سنين واستخلف بخت نصر وكان ابن ابن له ، وكان بخت نصر يعمل كما يعمل جده ويقضى بقضائه فلبث سبع عشرة سنة ثم قبض الله ملك بنى إسرائيل صديقه فمرج أمر بنى إسرائيل وتنافسوا الملك حتى قتل بعضهم بعضاً وظهر فيهم الفساد ونبيهم شعياء ينهاهم عن ذلك ولا يرجعون إليه ولا يقبلون منه فلما فعلوا ذلك ، قال الله تعالى لشعياء عليه السلام : قم فى قومك فأوحى على لسانك فلما قام فيهم أنطق الله لسانه بالوحى فقال : ياسماء اسمعى ويا أرض أنصتى فإن الله يريد أن يقص شأن بنى إسرائيل الذين أنعم الله عليهم بنعمته واصطفاهم لنفسه وخصهم بكرامته وفضلهم على عباده واستقبلهم بالكرامة وهم كالغنم الضائعة لا راعى لها فآوى شاردها وجمع ضالتها وجبر كسيرها وداوى مريضها وسمن مهزولها

وحفظ سمينها فلما فعل ذلك بطرت وتناطحت كباشها فقتل بعضها بعضاً حتى لم يبق فيهم عظم صحيح يجبر إليه آخر كسير ، فويل لهذه الأمة الخاطئة الذين لا يريدون ما جاءهم من الخير وهم أولو الألباب والعقول ليسوا ببقر ولا حميراً إني ضارب لهم مثلا فليسمعوه : قل كيف ترون أرضا مواتا لا عمران فيها وكان لها رب حكيم فأقبل عليها بالعمارة يكره أن تخرب أرضه فأحاط عليها جداراً وشيد فيها قصراً وأنهر فيها نهراً وصنف فيها غرساً من الزيتون والرمان والنخيل والأعناب وأنواع الثمار كلها وولى عليها واستحفظ ذا رأي وحكمة حفيظاً قوياً أميناً وانتظرها فلما أطلعت جاء طلعها خروباً فقالوا بئست الأرض هذه نرى أن نهدم جدارها وقصرها وندفن نهرها ونقطع قيمها ونحرق غرسها حتى تصير كما كانت أول مرة خراباً مواتاً لا عمران فيها . قال الله عز وجل : قل لهم إن الجدار ديني والقصر شريعتي والنهر كتابي والقيم نبيي والغرس هم والخروب الذي أطلعه الغرس أعمالهم الخبيثة وإني قضيت لهم قضاءهم على أنفسهم وأنه مثل ضربه الله لهم يتقربون إلي بذبح البقر والغنم وليس ينالني اللحم ولا آكله ، ويدعون أن يتقربوا إلي بالتقوى والكف عن ذبح الأنفس التي حرمتها فأيديهم مخضوبة منها مائت بدمائهم يشيدون بها المساجد ويطهرون أبوابها وينجسون قلوبهم وأجسادهم

ويدنسونها فأى حاجة لى بتشييد البيوت ولست أسكنها وأى حاجة لى بتزويق المساجد ولست أدخلها إنما أمرت برفعها لأذكر فيها ولأسبح ولتكون معلما لمن أراد أن يصلى فيها، يقولون لو كان الله يقدر على أن يفقه قلوبنا لفقهها فائت بعمودين يابسين وقل لهما الله يأمركما أن تكونا عوداً واحداً فلما قال لهما ذلك اختلطا فصارا واحداً، فقال الله عز وجل قل لهم إنى قدرت على أن أجمع بين الأعواد اليابسة وأن ألف بينهما فكيف لا أقدر أن أجمع ألفتهم إن شئت، أم كيف لا أقدر أن أفقه قلوبهم يقولون صمنا فلم يرفع صيامنا وصلينا فلم تقبل صلاتنا وتصدقنا فلم تنزل صدقتنا ودعونا مثل حنين الحميم وبكينا بمثل عواء الذئاب وفى كل ذلك لا يستجاب لنا ، قال الله عز وجل : فاسألهم ما الذى يمنعهم أن أستجيب لهم ألست أسمع السامعين وأنظر الناظرين وأقرب المخبتين وأرحم الراحمين ولست قليلا ذات اليد كيف ويداى مبسوطتان بالخير أنفق كيف أشاء، مفتاح الخزائن عندى لا يفتحها غيرى أو الآن رحمتى ضاقت كيف ورحمتى وسعت كل شىء وإنما يتراحم المتراحمون بفضلها أو الآن البخل يعترينى أو لست أكرم الأكرمين والفتاح بالخيرات أجود من أعطى وأكرم من سأل لو أن هؤلاء القوم نظروا لأنفسهم بالحكمة لنورت قلوبهم ونبذوها واشتروا بها الدين

أو لا يعلمون أنها أعدى الأعداء فكيف أرفع صيامهم وهم يلبسونهُ بقول الزور ويتقون عليهِ بطعمه الحرام أم كيف أقبل صلاتهم وقلوبهم طاغية تركن إلى من يحاربنى وينتهك محارمى أو تزكو عندى صدقاتهم وهم يتصدقون بأموال غيرهم، إنما أجزى أهلها المغصوبة هى منهم أم كيف أستجيب لهم دعاءهم وإنما هو قول بألسنتهم والفعل من ذلك بعيد إنما أستجيب للورع اللين ، وإنما أسمع قول المتعفف المسكين وأنه من علامة رضائى رضاء المساكين ولو قربوا الضعفاء وأنصفوا المظلوم وأدوا اليتيم والأرملة والمسكين وكل ذى حق حقه لكلمتهم،لو كان ينبغى أن أكلم البشر ولكنت أبصارهم وسمع آذانهم ومعقول قلوبهم ولكنت عمارة أركانهم وقوة أيديهم وأرجلهم ولكنت ألسنتهم وعقولهم،يقولون لما سمعوا كلامى وبلغتهم رسالتى إنها أقاويل منقولة وأحاديث متواترة وتأليف مما يؤلف السحرة والكهنة وزعموا أن لو شاءوا لأتوا بحديث مثله وأن يطلعوا على ذلك من علم الغيب بما يوحى إليهم الشيطان وكلهم يستخفى بالذى يقول ويسر وهم يعلمون إنى أعلم غيب السموات والأرض قضاء أثبته على نفسى وجعلت دونه أجلا مؤجلا لابد منه واقعاً فإن صدقوا فيما ينتحلون من علم الغيب فليخبروك متى أنفذه وإن كانوا يقدرون بمثل كلامى فليأتوا بمثل هذه القدرة

التى أمضى بها القضاء وليؤلفوا مثل الحكمة التى دبرتها وإنى قضيت يوم خلقت السماوات والأرض بأن اجعل النبوة فى الأرض والغنى فى الفقر والثروة فى الأقلام والمدائن فى الفلوات والعلم فى الجهلة والحلم فى الأميين فسألهم متى هذا ومن القيم بهذا وعلى يد من أسسه ومن أعوان هذا الأمر وأنصاره فإنى باعث لذلك نبياً أمياً أهدى به أعمى من العميان وضالا من الضالين ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب فى الأسواق ولا مريد الفحش ولا قوال بالخباء أسدده بكل جميع أهب له كل خلق كريم ثم أجعل السكينة لباسه والوقار شعاره والتقوى ضميره والحكمة معقوله والصدق سجيته والوفاء طبيعته والعفو والمعروف خلقه والعدل سيرته والحق شريعته والهدى إمامه والإسلام ملته وأحمد اسمه، أهدى به من الضلالة وأعلم به بعد الجهل وأرفع به الخمالة وأستشهد به النكرة وأكثر به بعد القلة وأغنى به بعد العيلة وأجمع به بعد التفرقة وأؤلف به قلوباً مختلفة وأهواء مشتتة وأمما متفرقة، فاجعل أمته خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر إيماناً وتوحيداً وركوعاً وسجوداً ويقاتلون فى سبيلى صفوفاً وزحوفاً ويخرجون من ديارهم وأموالهم ابتغاء مرضاتى ألهمهم التحميد والتكبير والتسبيح فى مساجدهم ومجالسهم ومضاجعهم ومنقلبهم ومثواهم يكبرون ويهللون

ويقدسون على رءوس الأشهاد والأشراف ويطهرون الوجوه والأطراف ويعقدون فى الأنصاف قربانهم دماءهم وأناجيلهم صدورهم، رهبان بالليل ليوث بالنهار، ذلك فضلى أوتيه من أشاء وأنا ذو الفضل العظيم. فلما فرغ شعياء من مقالته عدوا ليقتلوه فهرب منهم فلقيته شجرة فانفلقت له فدخل فيها فأدركه الشيطان فأخذ بهدبة من ثوبه فأراهم إياها فوضعوا المنشار فى وسطها فنشروها حتى قطعوها وقطعوه، واستخلف عليهم رجلا منهم يقال له قاسية بن أرمص ملكاً وبعث إليهم نبياً ليسدده ويأتيه بالخبر من الله تعالى واسمه أرمياء بن خليفا فيما قيل، وقال الله تعالى له: يا أرمياء من قبل أن خلقتك اخترتك، ومن قبل أن صورتك فى بطن أمك قدستك، ومن قبل أن أخرجتك من بطن أمك طهرتك ومن قبل أن تبلغ السعى نبأتك، ولأمر عظيم اجتبيتك فذكر قومك نعمتى وعرفهم أحداثهم وادعهم إلى. فقال أرمياء إنى ضعيف إن لم تقونى عاجز إن لم تنصرنى، فقال الله عز وجل أنا ألهمك، فقام أرمياء فيهم ولم يدر ما يقول، فألهمه الله عز وجل فى الوقت خطبة بليغة طويلة بين لهم فيها ثواب الطاعة وعقاب المعصية، وقال لهم فى آخرها عن الله عز وجل إنى لأحلف بعزتى لأقيضن لهم فتنة يتحير فيها الحليم ولا سلطان عليهم جباراً قاسياً ألبسه الهيبة وأنزع من صدره الرحمة يتبعه عدد

مثل سواد الليل المظلم ثم أوحى الله سبحانه وتعالى إلى أرميا عليه السلام
إنى مهلك بنى إسرائيل بيافث،يعنى ذرية يافث بن نوح عليه السلام
من أهل بابل فلما سمع أرمياء صاح وبكى فأوحى الله سبحانه وتعالى
وعز وجل شق عليك ما أوحيت إليك . قال : نعم ، يارب أهلكنى قبل
أن أرى فى بنى إسرائيل ما لاأسر به ، قال الله : وعزتى لأهلك بنى إسرائيل
حتى يكون الأمر فى ذلك من قبلك ففرح أرمياء بذلك وطابت نفسه
فقال : لا والذى بعث موسى بالحق لا أرضى بهلاك بنى إسرائيل ثم
أتى الملك فأخبره بذلك وكان ملكاً صالحاً فاستبشر وفرح وقال :
إن يعذبنا ربنا فبذنوب لنا كثيرة وإن عفى عنا فبرحمته ثم لبثوا بعد
الوحى ثلاث سنين لم يزدادوا إلامعصية وتماديا فى الشر وذلك حين
اقترب هلاكهم فقد الوحى ودعاهم الملك للتوبة فلم يفعلوا فسلط
الله عليهم بخت نصر فخرج فى ستمائة ألف راية يريد أهل بيت المقدس
فاما فصل سائراً أتى الملك الخبر ، فقال الملك : لأرمياء أين ما وعدتنا
زعمت أن أوحى إليك ، فقال : إن الله لا يخلف الميعاد وأنا به واثق ،
فبعث الله عز وجل إلى أرمياء ملكين فى صورة رجل من بنى إسرائيل .
فقال يانبى الله أستغيثك فى أهل رحمى وصلتهم ولا يأتيهم منى إلا حسن
ولا يزيدوننى إلا تسخطا فافتنى فيهم . فقال : لا حسن فيما بينك وبين

الله عز وجل وصلهم وأبشر بخير ، فانصرف الملك فما لبث إلا أياما ثم أقبل فى صورة ذلك الرجل فقعد بين يديه ، فقال أرمياء ، أو ما ظهرت أخلاقهم لك بعد . فقال نبى الله : والذى بعثك بالحق ما أعلم كرامة يأتيها أحد من الناس إلى أهل رحمه إلا قدمتها إليهم وأفضل ، فقال أرمياء عليه السلام : ارجع إلى أهلك وأحسن إليهم واسأل الله الذى يصلح عباده الصالحين أن يصلحهم لك فقام الملك ومكث أياماً ونزل بخت نصر وجنوده حول بيت المقدس بأكثر من الجراد ففزع منهم بنو إسرائيل وشق عليهم ذلك . فقال الملك لارمياء : فأين ما وعدك الله فقال إنى بربى واثق ، ثم أقبل الملك على أرمياء وهو قاعد على جدار بيت المقدس يضحك ويستبشر بنصر ربه الذى وعده وقعد بين يديه ذلك الملك ، وقال : أنا الذى أتيتك فى شأن أهل رحمى فقال ألم يأن لهم أن يقلعوا عن الذى هم فيه . فقال الملك يانبى الله كل شىء كان قبل ، كنت أطيعهم واليوم رأيتهم على عمل لا يرضاه الله عز وجل فقال النبى عليه السلام : على أى عمل رأيتهم ؟ قال : على عمل عظيم من سخط الله تعالى ، فغضبت لله تعالى على ذلك وأتيتك لأخبرك وإنى أسألك بالله الذى بعثك بالحق إلا ما دعوت الله عليهم ليهلكهم ، فقال أرمياء : اللهم يامالك السماوات والأرض إن كانوا على حق وصواب

فأبقهم وإن كانوا على سخط وعمل لا ترضاه فأهلكهم .

فلما خرجت الكلمة من فم أرمياء أرسل الله صاعقة من السماء إلى بيت المقدس فالتهب مكان القربان وخسف بسبعة أبواب من أبوابها فلما رأى ذلك أرمياء عليه السلام صاح وبكى وقال : يامالك السماوات والأرض أين ميعادك الذى وعدتنى فنودى إنه لم يصبهم الذى أصابهم إلا بدعائك وهى فتياك، فاستيقن أنها فتياه ، وأن ذلك السائل كان رسول ربه ، فطار أرمياء حتى خالط الوحوش ودخل بخت نصر وجنوده بيت المقدس ثم أمر جنوده أن يملأ كل واحد منهم ترسيه تراباً ثم يقذفه فى بيت المقدس،فقذف فيه التراب حتى ملأه ثم انصرف راجعاً إلى بابل واجتمع عنده سبايا بنى إسرائيل،واختار منهم سبعين ألف صبى فلما أراد أن يقسم الغنائم فى جنوده ،قال له الملوك الذين كانوا معه : أيها الملك لك غنائمنا كلها وأقسم بيننا هؤلاء الصبيان الذين اخترتهم من بنى إسرائيل ، ففعل ذلك فأصاب كل رجل منهم أربعة غلمان،وكان من أولئك الغلمان دانيال وحماليا وعزازيا ومنشانيا وسبعة آلاف من بيت داود ، وأربعة عشر ألفاً من سبط يوسف بن يعقوب عليه السلام وأخيه بنيامين ، وثمانية آلاف من سبط آرمر بن يعقوب، وأربعة آلاف من سبط يهودا ، وأربعة آلاف من سبط روبيل ولاوى

ابنى يعقوب والباقى من بنى إسرائيل فجعل بخت نصر سبايا بنى إسرائيل ثلاث فرق،ثلث أقر بالشام وثلث سبى وثلث مثل وذهب بأوانى بيت المقدس حتى قدم بها بابل وهذه هى الوقعة الأولى،وذلك قوله سبحانه وتعالى: فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عباداً لنا،يعنى بخت نصر وأصحابه ، روى حجاج عن ابن جريج عن يعلى بن مسلم عن سعيد ابن جبير ، قال : كان رجل من بنى إسرائيل يقرأ توراة حتى إذا بلغ: بعثنا عليكم عبادا لنا أولى بأس شديد، فاضت عيناه ثم أطبق المصحف وقال : أى ربى أرنى وجه هذا الرجل الذى جعلت هلاك بنى إسرائيل على يديه ، فرأى فى المنام مسكيناً ببابل يقال له بخت نصر فانطلق بمال وعبيد له وكان رجلا موسراً،فقيل له: أين تريد . قال : أريد التجارة ، فسار حتى نزل داراببابل فاستكراها ليس فيها أحداً غيره فجعل يدعو المساكين ويلطف بهم حتى لايأتيه أحد إلا ساءله عن اسمه، فقال هل بقى منكم مسكين غيركم. فقالوا:نعم مسكين بفتح آل فلان مريض يقال له بخت نصر. فقال لغلمانه احتملوه، وأتوا به إليه وداواه وكساه وأعطاه نفقته وقال له: ما اسمك فأخبره باسمه ثم أذن الإسرائيلى بالرجل فبكى بخت نصر،وقال له الإسرائيلى: مايبكيك فقال أبكى لأنك فعلت معى ما فعلت ولا أجد شيئاً أجزيك به . قال

بلى شيئا يسيرا . فقال :ماهو ؟فقال :إن ملكت فأعتقنى ،فجعل يتبعه ويقول أتستهزىء بى ،فبكى الإسرائيلى وقال لقد علمت ما يمنعك أن تعطينى ما سألتك إلا أن الله تعالى يريد أن ينفذ ما قضى وضرب الدهر ضرباته فقال صحيون وهو ملك فارس وبابل لو أنا بعثنا طليعة إلى الشام ،قالوا وما ضرك إن فعلت ؟قال: فمن ترون ؟قالوا : فلانا فبعث رجلا وأعطاه مائة ألف راية وخرج بخت نصر فى مطبخته لم يخرج إلا ليأكل فى مطبخته وكان مسكينا يسائل ما يقتات به فلما قدم الشام رأى صاحب الطليعة أكثر أرض الله فرسا ورجلا جلدا فكبر ذلك فى ذرعه فلم يسأل فجعل بخت نصر يسأل مجالس الشام ويقول ما يمنعكم أن تغزوا بابل فلو غزوتموها لغنمتم غنيمة عظيمة .قالوا : لانحسن القتال .قال :فلو أنكم غزوتم لأحسنتم القتال. قالوا :لانقاتل فلم يزل يقول ذلك فى كل مجلس حتى أتم مجلس الشام ثم رجعوا فأخبر الطليعة ملكهم بما رأوا وجعل بخت نصر يقول لفوارس الملك لو دعانى الملك لأخبرته غير ما أخبره فلان ،قد دعاه فقال إن فلانا لما رأى أرض الله كراعا ورجلا جلد أكبر ذلك فى ذرعه ولم يسألهم عن شىء ،وإنى لم أدع مجلسا بالشام إلا سألت أهله فقلت لهم كذا وكذا . قال سعيد بن جبير قال صاحب الطليعة لبخت نصر أعطى لك مائة ألف وتنزع عما قلت. قال لو

أعطيتنى بيت بابل ما نزعت فضرب الدهر من به ،فقال الملك لو بعثنا جريدة خيل إلى الشام فإن وجدوا مساغا سعوا وإلا مشوا ما قدروا قالوا ما ضرك لوفعلت. قال :فمن ترون.قالوا :فلانا.قال : بل الرجل الذى أخبرنى فدعا بخت نصر فأرسله واختار معه أربعة آلاف فارس من فرسانهم فانطلقوا وخربوا وقتلوا ومات صحيون فقالوا :نستخلف رجلا ،فقالوا : على رسلكم حتى يأتى أصحابكم فإنهم فرسانكم فأمهلوا حتى جاء بخت نصر بالسبي ومن معهم فقسموا بين الناس فقالوا ما رأينا أحق بالملك من هذا فملكوه. وقال السدى بإسناده إن رجلا من بنى إسرائيل رأى فى المنام أن خراب بيت المقدس وهلاك بنى إسرائيل على يد غلام يتيم ابن أرملة من أهل بابل ويدعى بخت نصر ،فأقبل يسأل حتى نزل على أمه وقد ذهب يحتطب فجاء وعلى رأسه حزمة من حطب فألقاها ثم رأى رجلا قاعدا بجانب من البيت فكلمه ثم أعطاه ثلاثة دراهم وقال اشترى بها طعاما وشرابا، فاشترى بدرهم لحما وبدرهم خبزا وبدرهم خمرا ،فأكلوا وشربوا حتى إذا كان اليوم الثانى فعل ذلك واليوم الثالث فعل ذلك ثم قال :إنى أحب أن تكتب لى أمرا إن ملكت يوما من الدهر فقال :تسخر بى. قال: لاإنى لا أسخر بك ولكن ما منعك أن تكتب لى تتخذها عندى يدا فكلمته أمه ،وقالت : ماعليك إن كان وإلا لم ينقصك

شيئا فكتب له أمانا فقال :أرأيت إن جئت والناس حولك قد حالوا بيني وبينك فاجعل لى علامة تعرفنى بها. قال: ترفع صحيفتك على قصبة أعرفك بها فأعطاه وكساه،ثم إن ملك بنى إسرائيل كان يقرب يحيي ابن زكريا ويدنى مجلسه ويستشيره فى أموره ولا يقطع أمرا دونه وإنه هم أن يتزوج امرأة، هذا قول السدى وقيل: كانت ابنة أخيه وهو الصحيح إن شاء الله لما روى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: بعث الله عيسى بن مريم ويحيي بن زكريا فى إثنى عشر من الحواريين يعلمون الناس، فكان ما نهاهم عنه نكاح بنت الأخ قال وكانت لملكهم بنت أخ تعجبه يريد أن يتزوجها،وكانت لها فى كل يوم حاجة تقضيها من الملك فسأل الملك يحيي عن ذلك، فنهاه عن نكاحها فقال :لست أرضاها لك،فبلغ ذلك أمها فحقدت على يحيي عليه السلام فألبست بنتها لباساً رقيقاً أحمر وطيبتها بالمسك وألبستها الحلى وفوق ذلك كساء أسود،وأرسلتها إلى الملك حين جلس على سريره للشراب وأمرتها أن تسقيه وتتعرض له ،فلما أخذ فيه الشراب وراودها عن نفسها قالت لا أفعل حتى تعطينى ما أسألك. قال :ما تسألينى؟ قالت:أسألك أن تبعث إلى برأس يحيي بن زكريا فى هذا الطست فقال ويحك اسألينى غير ذلك. قالت :ماأريد إلا هذا. وقال :اسألينى غيرهذا فقالت :ما أريد إلا هذا

وقال: اسألينى غير هذا،فلما أبت عليه الثالثة بعث إليه فأتى برأسه والرأس يتكلم حتى وضع بين يديه وهو يقول لا تحل لك.فلما أصبح الملك إذا دمه يغلى فأمر بتراب فألقى عليه فرقى الدم فوق التراب يغلى فألقى عليه التراب أيضاً فارتفع الدم فوقه،فلم يزل يلقى عليه التراب حتى بلغ سور المدينة وهو مع ذلك يغلى. وروى أن الملك فى ذلك الزمان لا يليه من كذب عمدا وإن الملك سأل أن يتزوج بنت أخيه فرخصوا له ومنع يحيي،فلما قال لابنة أخيه سلى حكمك. قالت حتى أنطلق إلى أمى فقالت أمها:قوى دم يحيي فقالت:أقول خيرا من هذا فقالت أمها:هذا خير لك فوضعت الشفرة على عنقه فقال بالله وتا الله هذا ما بايع عليه يحيي بن زكريا عيسى بن مريم على أن لا يزنى ولا يسرق ولا يلبس أمانة بسوء،فلما مرت الشفرة على أوداجه وذبحته نادى مناد يارب البنت الخطئة الغاوية. قيل:إنها كذلك فما تريد منها قال: إن تهلك فإنها أول من يدخل النار فخسفت البنت فجاءوا بالمعاويل ويحفرون وهى تدخل فلم يقدروا عليها فبلغ ذلك سنجاريب ملك بابل فنادى فى الناس وأراد أن يبعث إليهم جيشا ويؤمر عليهم رجلا،فأتاه بخت نصر وكلمه وقال له: إن الذى أرسلت تلك المرة ضعيف وإنى قد دخلت المدينة وسمعت كلام أهلها فابعثنى فبعثه

فسار بخت نصر بالجيش حتى بلغوا ذلك المكان تحصنوا منه فى مدائنهم فلم يطقهم فلما اشتد عليه المقام وجاع أصحابه أرادوا الرجوع فخرجت إليهم عجوز من بنى إسرائيل فقالت :أين أمير الجيش فأتوا بها إليه فقالت له :بلغنى عنك أنك تريد الرجوع بجندك قبل أن تفتح هذه المدينة . قال :نعم ،طال مقامى وجاع أصحابى فلست أستطيع المقام فوق الذى كان منى.فقالت :أرأيتك إن فتحت لك المدينة أتعطينى ماأسألك. قال :نعم. قالت :أتقتل من أمرتك بقتله وتكف إذا أمرتك أن تكف. قال : نعم. قالت: إذا أصبحت فاقسم الجيش أربعة أقسام ثم أقم على كل زاوية ربعاً ثم ارفعوا أيديكم إلى السماء ونادوا إنا استفتحناك بالله وبدم يحيى بن زكريا فإنها تساقط ففعلوا فتساقطت المدينة ،فدخلوا من جوانبها : فقالت له :كف يدك واقتل على هذا الدم حتى يسكن ،فانطلقت به إلى دم يحيى بن زكريا وعليه تراب كثير وهو يغلى فقتل عليه سبعين ألفاً فسكن الدم فلما سكن الدم قالت له :أمسك يدك فإن الله تبارك وتعالى إذا قتل نبى لم يرضى حتى قتل من قتله وأتاه صاحب الصحيفة بصحيفة فكف عنه وعن أهل بيته ،وخرب بيت المقدس وأمر أن تطرح الجيف والعذر فيه ،وقال لبنى إسرائيل من طرح فيه جيفة فله جزية تلك السنة وأعانه على خرابه الروم من أجل أن بنى

إسرائيل قتلوا يحيي بن زكريا فلما خربه بخت نصر ذهب معه بنو
إسرائيل وأمراءهم ودانيال وقوم من أولاد الأنبياء وذهب برأس يحيي
فلما قدم بخت نصر أرض بابل وجد سنجاريب قد مات،فملك مكانه
واستقام له الأمر وأتت على ذلك مدة،ثم إن بخت نصر رأى رؤيا
عجيبة فأفزعته فساءل عنها الكهنة والسحرة فعجزوا عن تفسيرها
فبلغ ذلك دانيال،وكان فى السبى مع أصحابه وقداحه صاحب السجن
وأعجب به لما رأى من حسن سمعته فقال دانيال لصاحب السجن:إنك
قد أحسنت إلى وإن صاحبكم قد رأى رؤيا فدله على لأعبرها له فجاء
السجان فأخبر الملك بقصة دانيال فقال:على به،وكان لا يقف بين
يديه أحد إلا سجد له فأتوا به فقام بين يديه ولم يسجد فقال ؛ ما الذى
منعك من السجود . فقال : إن لى رباً أتانى العلم والحكمة وأمرنى
أن لا أسجد لغيره فخشيت إن سجدت لغيره أن ينزع منى علمه
الذى أتانى فيهلكنى،فعجب منه وقال : نعم ما عملت حين وفيت بعهده
وجللت علمه ، وقال له : هل عندك علم بهذه الرؤيا . قال : نعم . قال :
أى شىء رأيت . قال : إنك رأيت كذا . . وكذا . قال : نعم .
روى عبد الرحمن .بن معقل أنهُ سمع وهب بن منبه يقول : إن بخت
نصر رأى رؤيا آخر زمانه صنما رأسه ذهب ، وصدره فضة ، وبطنه

نحاس ، وفخذاه من حديد ، وساقاه من فخار ، ثم رأى حجراً وقع عليه من السماء فدقه ثم ربا الحجر حتى ملأ ما بين المشرق والمغرب،ورأى شجرة أصلها فى الأرض وفرعها فى السماء ثم رأى رجلا عليها وبيده فأس،وسمع منادياً ينادى اضرب جذعها لينفر الطير من فرعها وتفرق الدواب والسباع من تحتها واترك أصلها قائما،فعبرها دانيال فقال : أما الصنم الذى رأيته رأسه من ذهب فأنت الرأس وأنت أفضل الملوك ، وأما الصدر الذى من فضة فابنك يملك بعدك ، وأما البطن الذى رأيت من نحاس فملك يكون من بعدك وأما الفخذان اللذان رأيت من حديد ففرقتان فى فارس تملكان أشد الملك ، وأما الفخار فأمتان ضعيفتان تملكهما امرأتان ، وأما الحجر الذى رأيت قد ربا حتى بلغ ما بين المشرق والمغرب فنبي يبعثه الله فى آخر الزمان فيغرق ملكهم كله حتى يبلغ ما بين المشرق والمغرب ، وأما الشجرة التى رأيت والطير والسباع والدواب والذى أمر بقطعها فيذهب ملكك فيردك الله طائراً تكون نسراً تملك الطير ويردك الله ثوراً تملك الدواب ثم يردك الله أسداً تملك السباع والوحوش سبع سنين فى كل من ذلك على حدة وقلبه فى ذلك كله قلب إنسان حتى يعلم أن الله سبحانهُ له ملك السماوات والأرض وهو يقدر على الأرض ومن عليها،فما دام أصلها قائما فإن ملكك قائم

فمسخ بخت نصر نسراً ثم ثوراً ثم أسداً ثم رد الله عليه ملكه فآمن ودعا الناس إلى الله عز وجل ، وشك ابن وهب أمات مؤمناً ، قال : وجدت أهل الكتاب اختلفوا فمنهم من قال : مات مؤمنا ، ومنهم من قال : مات كافراً لأنه أحرق بيت المقدس وكتبه وقتل الأنبياء ، وغضب الله عليهِ غضباً شديداً فلم يقبل منه توبته ، قال : فلما عبر دانيال لبخت نصر رؤياه وأخبره بها أكرمه وأكرم أصحابه وجعل يقبل منه ويستشيره فى أمره ،حتى كان أكرم الناس عليه وأحبهم إليه ،فحسده أصحابه المجوس على ذلك فأتوا به وأصحابه إلى بخت نصر وقالوا : إن دانيال وأصحابه لا يعبدون إلهك ولا يأكلون ذبيحتك. فدعاهم فسألهم . فقالوا : إن لنا رباً نعبده ولسنا نأكل من ذبيحتك فأمر بخد فخد لهم فألقاهم فيها هم ستة وألقى معهم سبعاً ضارياً ليأكلهم، ثم قال لأصحابه : انطلقوا بنا لنأكل ونشرب فذهب وأكلوا وشربوا ، ثم رجعوا فوجدوهم جلوساً والسبع مفترش ذراعيه بينهم لم يخدش منهم واحداً ووجدوا معهم رجلا فعدوهم فوجدوهم سبعة ،فقالوا :ماهذا السابع إنما كانوا ستة فخرج السابع وكان ملكاً فلطمه لطمة فصار فى الوحوش ثم رده الله إلى صورته ورد عليه ملكه،فلما رده الله كان دانيال وأصحابه أكرم الناس عليه فحسده المجوس ووشوا به ثانية ، وقالوا لبخت نصر

إذا شرب الخمر لا يملك نفسه أن يبول وكان ذلك فيهم عاراً فجعل لهم بخت نصر طعاماً فأكلوا وشربوا ، وقالوا : للبواب انظر أول من يخرج عليك ليبول فاضربه وإن قال : أنا بخت نصر أمرنى،فحبس الله البول على دانيال عليه السلام وكان أول من خرج من القوم يريد البول بخت نصر فقام ليبول وكان ذلك ليلا فقام يسحب أذياله فلما رآه البواب فقال : أنا بخت نصر قال : كذبت . بخت نصر أمرنى أن أقتل أول من يخرج فضربه فقتله ،فقال السدى :لما أراد الله جل جلاله هلاك بخت نصر قال لمن كان فى يده من بنى إسرائيل : أرأيتم هذا البيت الذى خربت وهؤلاء الناس الذين نلت منهم ، وما هذا البيت . قالوا: بيت الله عز وجل ومسجد من مساجده وهؤلاء أهله كانوا من ذرارى الأنبياء فظلموا وتعدوا وعصوا الله فسلطك الله عليهم بذنوبهم وربهم رب السماوات والأرض يكرمهم ويمنيهم ويعزهم فلما فعلوا ما فعلوا أهلكهم الله تعالى وسلط عليهم عدوهم فقال : أخبرونى ما يطلع بى إلى السماء العليا فأقتل من فيها وأتخذ ملكاً فإنى قد عرفت من فى الأرض ومن فيها. قالوا :لا يقدر أحد من الخلائق . قال : لتفعلن أو لأقتلنكم عن آخركم ، فشكوا إلى الله عز وجل وتضرعوا إليه فبعث الله بعوضة ليريه قدرته وضعفه أى ضعف بخت نصر ودخلت فى منخره

ثم ساخت به حتى غاصت بأُم رأسه فما كان يقر ولا يسكن حتى شرف على الموت فلما أيقن بالموت قال لخاصته من أهله : إذا مت فشقوا رأسى وانظروا ماذا الذى قتلنى ، فلما مات شقوا رأسه فوجدوا البعوضة غاصت بأُم رأسه ليرى عباده قدرته وسلطانه ونجى الله من بقى فى يده من بنى إسرائيل ورحمهم وردهم إلى أيليا والشام وتبوأوا فيها وربوا وكثروا حتى كانوا أكثر مما كانوا قبل ذلك،فيزعمون أن الله عز وجل أحيا أولئك المؤمنين الذين قتلوا ولحقوا بهم:أنهم لما رجعوا إلى الشام وقال بعضهم : عمر بخت نصر أيام مسخه ألفاً وخمسمائة عام وخمسين يوماً ، ولما مات استخلف ابنه سطاس وكانت آنية بيت المقدس التى حملها بخت نصر إلى بابل عنده وشحمها بلحوم الخنازير وأكل وشرب فيها واستقضى دانيال ولم يقبل منه واعتزله دانيال فبينما سطاس قاعد ذات يوم إذا برزت له كف متعلقة بغير ساعد وكتبت له ثلاثة أحرف بمشهده ، ثم غابت وعجب من ذلك ولم يدر معنى ذلك فدعا دانيال عليه السلام واعتذر إليه وسأله أن يقرأ ذلك ويخبره بتأويله . فقال دانيال : بسم الله الرحمن الرحيم وزن يخف ووعد يجز وجمع يتفرق فقال :أما وزن يخف فإنه وزن عملك فى الميزان ، ووعد يجز فإنه ما تقدم لك ولأبيك من الملك العظيم ، والجمع المتفرق تفرقكم إلى يوم القيامة

فلم يلبث إلا يسيراً حتى أهلكه الله تعالى وأضعف ملكهم وبقى دانيال بأرض بابل حتى إلى أن مات بالسوس ، قيل لما فتح الله السوس على يد أبي موسى الأشعرى فى خلافة عمر بن الخطاب -رضى الله عنه- غنم أموالهم وأفضى إلى خزانة مقفلة ختم قفلها بالرصاص . فقال أبو موسى ما فى الخزانة فإنى أراها مختومة بالرصاص . فقالوا : أيها الأمير ليس فيها من حاجتك . فقال : لابد لى أن أعلم بما فيها فافتحوا لى بابها حتى أنظر ما فيها فكسروا القفل وفتحوا الباب ودخل أبو موسى الخزانة فنظر فإذا هو بحجر طويل محفور على مثل الحوض وفيه رجل ميت كُفن فى أكفان منسوجة بالذهب ورأسه مكشوف،فتعجب أبو موسى من طوله وكذلك كل من كان معه ثم أنهم شبروا أنفه ، فإذا أنفه يزيد على شبر . فقال أبو موسى : ويحكم من هذا الرجل . فقالوا : هذا الرجل كان بالعراق وكان أهل العراق إذا حبس عنهم الغيث بستسقون به فيسقون فأصابنا من قحط المطر ما كان يصيب أهل العراق فأرسلنا إليهم وسألناهم أن يدفعوه إلينا حتى نستسقى به فأبوا علينا ، فرهنا عندهم خمسين رجلا وحملناه إلى بلدنا هذا ثم استسقينا به فسقينا فرأينا أن نرده عليهم فلم يزل مقيماً عندنا إلى أن أدركته الوفاة ، وكتب أبو موسى إلى عمر يخبره بما فتح الله عز وجل عليه من السوس

وأموالها وبخبر الرجل فدعا عمر ـ رضى الله عنه ـ أكابر أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فسألهم عن ذلك فما وجد عند أحد علما ، فقال على بن أبي طالب : إن هذا الرجل هو دانيال الحكيم وهو نبي غير مرسل كان فى قديم الزمان مع بخت نصر ومن بعده من الملوك وجعل على يحدث عمر بقصته إلى وفاته ، ثم قال له اكتب إلى صاحبك وأمره أن يصلى عليه ويدفنه فى موضع لا يقدر أهل السوس على حفره . فكتب عمر إلى أبي موسى فأمر أبو موسى أهل السوس أن يقلبوا نهرهم إلى موضع آخر ثم أمر بدانيال فكفن فى أكفان فوق التى كانت عليه ثم صلى عليه هو وجميع أصحابه ومن كان معه من المسلمين وأمر بقبره فحفره فى وسط النهر ثم دفنه وأجرى عليه الماء . ويقال إن دانيال فى نهر السوس إلى يومنا هذا يجرى عليه الماء . قال الأستاذ : بعض ما ذكر من قصة بخت نصر غلط لأن بخت نصر غزا بنى إسرائيل عند قتلهم شعياء ، وفى عهد أرمياء عليه السلام وهى الوقعة الأولى التى قال فيها الله تبارك وتعالى: فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عباداً لنا أولى بأس شديد. يعنى بخت نصر وأصحابه ومن عهد أرميا وتخريب بخت نصر بيت المقدس إلى مولد يحيى بن زكريا أربعمائة وستون سنة وإنما الصحيح من ذلك محمد بن إسحاق أن بنى إسرائيل عَمَّرُوا الشام

وعادوا إليه بعد تخريب بخت نصر فأحدثوا أحداثاً بعد موت عزير وبعث الله تعالى فيهم أنبياء فريقاً كذبوا وفريقاً يقتلون وآخر من بعث الله جل جلاله إليهم زكريا ويحيي وعيسى على نبينا وعليهم الصلاة والسلام ، وكانوا من بيت آل داود فمات زكريا وقتل يحيي وبعض يقول قتل زكريا فبعث الله سبحانهُ وتعالى إليهم ملكاً من ملوك بابل يقال له كردوس فلما ظهر عليهم قال لرئيس جنوده : إنى حلفت بإلهم لئن ظهرت على بيت المقدس لأقتلنهم حتى تسيل دماؤهم فى وسط عسكرى إلا إن لم أجد أحداً أقتلهُ،فأمره أن يقتلهم حتى يبلغ ذلك فأقام ذلك الرئيس ويسمى نبوازراذان فى البقعة التى يقربون فيها قربانهم فوجد دماً يغلى فسألهم عنه فقالوا : هذا دم قربان قربناه فلم يتقبل منا فلذلك كان يغلى كما تراه ولقد قربناه منذ ثمانى مائة سنة ، قال ما صدقتمونى الخبر . قالوا له : لوكان من أول زماننا تقبل منا ولكنه قد انقطع منا الملك والنبوة والوحى فلذلك لم يقبل منا فذبح منهم على ذلك الدم سبعمائة وسبعين من رؤسائهم فلم يهدأ الدم فأمر بسبعة آلاف من سباياهم وذبحهم على الدم فلم يهدأ فقال لهم وياكم يابنى إسرائيل اصبروا واصدقوا على أمر ربكم فقد طال ما ملكتم فى الأرض تفعلون ما شئتم قبل أن لا أترك فيكم نافخ نار منكم

ذكراً ولا أنثى إلا قتلته فلما رأوا الحد وشدة القتل صدقوه الخبر .
فقال : هذا دم نبي منا كان ينهانا عن أمور كثيرة من سخط الله تعالى
فلوأطعناه فيها كان أرشد لنا وكان يخبرنا بأمركم فلم نصدقه وقتلناه
وهذا دمه .فقال لهم : ما اسمه . قالوا : يحيى بن زكريا . قال : الآن
صدقتمونى لمثل هذا ينتقم منكم ربكم فخر ساجداً ، وقال لمن حوله :
أغلقوا أبواب المدينة وأخرجوا من كان هنا من جيش كردوس وخلا فى
بنى إسرائيل، ثم قال يايحيى بن زكريا قد علم ربى وربك ما أصابك
قومك من أجلك وما قتل منهم من أجلك فهذا بإذن الله قبل أن لا أبقى
من قومك أحداً فهذا دم يحيى بن زكريا بإذن الله تعالى ورفع بنوازرادان
عنهم القتل ، وقال : آمنت بالذى آمنت به بنو إسرائيل ، وصدقت
به وأيقنت أن لا رب غيره ، فأوحى الله إلى رئيس من رؤسائهم من
بقية الأنبياء أن بنوازرادان حنون صدوق وحنون بالعبرانية حديث
الإيمان قريب العهد به ، ثم قال بنوازرادان أن عدو الله كردوس أمرنى
أن نقتلكم حتى تسيل دماؤكم وسط عسكره وإنى لست أستطيع أن
أعصيه . قالوا له :نفعل ما تؤمر به ، فأمرهم فحفروا خندقا وأمروا بما
لهم من الخيل والبغال والحمير والإبل والبقر والغنم فذبحوها حتى سال
الدم فى العسكر ، وأمر بالقتلى الذين كانوا قتلوا قبل ذلك فطرحوا على

ما قتل من مواشيهم فلما نظر كردوس ما فى الخندق من الدم وبلغ الدم عسكره بعث إلى بنوازرادان أن ارفع عنهم القتل ثم انصرف عنهم إلى باب وقد أفنى بنى إسرائيل فى الوقعة الأخيرة التى أنزل الله فى بنى إسرائيل فى قوله تعالى : « فإذا جاء وعد الآخرة وكان لكردوس وجنوده فلم تقم لهم بعد ذلك راية وانتقل الملك عن الشام ونواحيها إلى الروم الآن بقايا بنى اسرائيل كثروا بعد ذلك وانتشروا وكانت لهم الرياسة ببيت المقدس ونواحيها على غير وجه الملك وكانوا فى نعمة ومتعة إلى أن بدلوا وأحدثوا واستحلوا المحارم وضيعوا حدود الله عليهم طلطوس الرومى ابن اشتيانوس فأخرب بلادهم وطردهم عنها ونزع الله منهم الملك والرياسة وضرب عليهم الذلة والمسكنة ،فلم يكونوا فى أمم من الأمم إلا وعليهم الجزية والصغار والملك فى غيرهم وبقى بيت المقدس خراباً إلى أيام عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ فعمره المسلمون بأمره وهذه مرة ثالثة عادوا إلى الفساد فأعاد الله عليهم بالانتقام فما زالوا فى ازدياد هوان كما قال الله تبارك وتعالى :﴿ وإنْ عُدتُّمْ ﴾ إلى المعصية ، ﴿عُدْنا ﴾إلى العقوبة . وقال قتادة فعادوا فبعث الله عز وجل عليهم محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ يعطون الجزية عن يد وهم صاغرون وكذا عن الحسن ، قال قتادة : بعث الله عليهم هذا الحرب من العرب فهم منهم

فى عذاب إلى يوم القيامة وذلك أنهم كذبوا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقصدوا قتله فسلط الله جل جلاله عليهم فقتل قريظة وأجلى بنى النضير وضرب الجزية على الباقين ثم أجلاهم عمر رضى الله عنه عن جزيرة العرب ويجمع ذلك بما ذكرته من أنهم عادوا إلى الفساد مرة ثالثة فعاد الله عليهم بالانتقام فما زالوا فيه بأيدى فارس ثم بأيدى العرب هذا جزاؤهم فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب دائم كما قال الله تعالى جل جلاله: ﴿ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ ﴾ منكم يا بنى إسرائيل وغيركم ﴿حَصِيراً﴾ سجناً يحصرهم حصراً عظيماً لا يقدرون على الخروج منه ولا يخرجون أبدا ، وعن الحسن حصيراً بساطاً كما يبسط الحصير ففيه تهكم بهم فإن الحصير يبسط للخير أخبرهم أنه يفرش لهم النار ،﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ ﴾ مؤول بالمقروء ومعتبر فيه هذا التأويل ليكون اسم جنس فيصح كونه تابعاً مقروناً بال لاسم الإشارة على طريق قولك هذا الرجل وهذا المكرم فإن هذه الطريق يشترط فيها اسم الجنس فلو قيل هذا الحارث مرادا بالحارث علم الرجل لم يصح ،فهكذا ليس القرآن هنا علما ﴿ يَهْدِى ﴾ يرشد أو يدعو ﴿ لِلَّتِى ﴾ أى إلى الحالة أو الطريقة أو الملة التى ﴿ هِىَ أَقْوَمُ ﴾ أعدل الحالات أو الطرق أو الملك وأصوبها وقيل المراد الحكمة التى هى أعدل وهى لا إله إلا الله محمد رسول الله وما جاء به حق وعليه أفرق والأول أعم وقيل أقوم وأحسن

ويناسبه ما رواه أبو الوليد الباجى وهو من فقهاء الأندلس المالكية بعد ما دخل مذهب مالك الأندلس :أن ابن وهب قال سمعت مالكاً إن استطعت أن تجعل القرآن إماماً فافعل فهوالإمام الذى يهدى إلى الجنة . قال أبو سليمان الدارنى : ربما أقمت فى الآية الواحدة خمس ليال ولو لم أدع التفكر فيها ما جزتها،وقال إنما يؤتى على أحدكم من أنه إذا ابتدأ السورة أراد آخرها وإنما حذف موصوف التى ليذهب السامع فيه كل مذهب ممكن من حالة طريقة وملة وغير ذلك،ولذلك تحصل أبلغية لا تحصل بذكره ، ﴿ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾إسناد الهداية والتبشير إلى القرآن مجاز وجهه أنه السبب والآلة التى يصل بها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى الإشارة والدعوة والتبشير وقرأه الكسائى بضم الياء وإسكان الموحدة وكسر الشين مخففة ،﴿ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ ﴾ أى . ﴿ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيراً ﴾ هو الجنة . قال بعضهم كلما وقع فى القرآن من فضل كبير وأجر كبير فهو الجنة ،﴿ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ ﴾ أنكروا البعث ، ﴿ أَعْتَدْنَا ﴾أحضرنا وهو أفعل من عتد بمعنى حضر فهو رباعى فلذلك ثبتت همزته وفتحت وهى همزة قطع ، وأما همزة أن ففتحت لأن العطف على أن السابقة وما بعدها والعطف فى الخفية المصدر وكأنه قيل يبشر المؤمنين بأن لهم أجراً كبيراً وبأن الذين

لايؤمنون بالآخرة اعتدنا ﴿ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيماً ﴾ هو النار فى الآخرة فتلك بشارتان للمؤمنين ويجوز أن تكون أن الثانية على تقدير يخبر أى هو آى القرآن أن سامعيه الذين لا يؤمنون بالآخرة الخ،وجملة يخبر المقدرة تعطف على جملة يبشر وإنما ذكر المؤمنين والمشركين ولم يذكر المنافقين الذين أتوا بالقول وضيعوا العمل،لأن منزلة النفاق لم تكن حينئذ وأما المنافق الذى هو من أسر الشرك وأظهر الإيمان فداخل فى الذين لا يؤمنون بالآخرة إن كان شركه إنكار البعث أو لم يذكر هذا أيضاً لأنه لم يوجد حينئذ وإنما يوجد بعد ويحتمل دخول قسمى النفاق فى الذين لا يؤمنون بالآخرة،لأن من آمن بها ولم يعمل بمقتضاها غير مصدق بها حقيقة التصديق وعلى هذا يكون المراد بعدم الإيمان بها عدم التصديق الحقيقى سواء عدم التصديق أصلا أو وجد تصديق غير حقيقى فلا جمعاً بين الحقيقة والمجاز ،﴿ وَيَدْعُ ﴾ بحذف الواو فى خط المصحف كما حذفت فى النطق للساكن بعدها وهو اللام وحركت اللام بالكسر نقلا من همزة إنسان إذ لم يعتد بالعارض والضم مقدر على تلك الواو المحذوفة ،﴿ الإِنسَانُ ﴾ جنس الإنسان ،﴿ بِالشَّرِّ ﴾على نفسه أوأهله أو ماله عند غضبه وضجره يقول اللهم العنى اللهم أهلكنى ونحو ذلك ولو أجاب الله الرحمن الرحيم دعاءه لأهلكه أو فعل ما دعى به لكنه بفضله وكرمه

يصفح لا يجيب دعاء المستعجل الضجر ، قال الله سبحانه : «ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضى إليهم أجلهم »ويحتمل أن يكون المراد أنهُ يدعو بما يحسبه خيراً وهو شر. وعن ابن عباس أن الإنسان هو النضر بن الحارث قال :اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك ـالآية. فأجيب دعاؤه فضربت عنقه صبرا وقيل جنس الكافر المستهزىء المستعجل بالعذاب كالنضر ،﴿ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ ﴾ أى دعاءه مثل دعائه لنفسه بالخير أو لأهله أو ماله والمراد أنه يدعو بالشر بدلا من دعائه الخير وكان ينبغى أن يدعو بالخير ،﴿ وَكَانَ الْإِنسَانُ ﴾ جنس الإنسان ، ﴿ عَجُولًا ﴾ يسارع إلى طلب ما يخطر بباله لا ينظر فى العاقبة لعلها شر . روى أنه ـصلى الله عليه وسلم ـ دفع إلى سودة بنت زمعة أسيراً ـ فبات يئن ، فقالت : مالك ؟ فشكى ألم الكتاف، فأوسعت له فيه ، فلما نامت أخرج يده وهرب ، فلما أصبح رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ دعا به ، فقيل له إن سودة أوسعت له فهرب ، فقال : اللهم اقطع يديها فرفعت يديها تتوقع الإجابة ، فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ إنى سألت الله أن يجعل لعنتى ودعائى على من لا يستحق من أهلى رحمة لأنى بشر أغضب كما يغضب البشر فلترد سودة يديها ، فنزلت الآية ، وقيل المراد بالإنسان الثانى آدم لما انتهى الروح إلى سرته ذهب لينهض فسقط. وعن ابن

عباس وسلمان أنه لما نفخ فيه الروح ووصل أنفه وبصره من رأسه عطس وأبصر ولما سار الروح إلى أسفل أعجبته نفسه فذهب ليمشى قبل أن يصل ساقيه فلم يقدر فأنتم ذوو عجلة موروثة من أبيكم .

﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾أعينهما أنفسهما،﴿ آيَتَيْنِ ﴾ علامتين دالتين على وجودنا ووحدانيتنا وقدرتنا وحكمتنا تدلان بسبب تعاقبهما لأنهما يتعاقبان على نسق واحد مع إمكان غيره فدلا على أن لهما مدبراً خصهما بحال من الأحوال الجائزة بل وجود الشىء مطلقاً بعد العدم دليل على أن له موجداً ليس حادثاً لأن الشىء لا يوجد نفسه والحادث لا يوجد حادثاً ﴿ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ ﴾ الإضافة للبيان أى آية هى الليل ومحوها إنما هو إدخال النهار عليه فيكون الإشراق بالشمس فتزول الظلمة ، ﴿ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ ﴾الإضافة أيضاً للبيان أى جعلنا بنفسها آية هى النهار﴿ مُبْصِرَةً ﴾ ترى هى بنفسها الأشياء على طريق الإسناد المجازى فإن النهار لا يكون رائيا للأشياء ولكن لما كان سبباً للرؤية وزماناً لها أسند إليها الرؤية وذلك على أن مبصرة من أبصر المتعدى لواحد محذوف للعلم به والعموم أو لعدم تعلق غرض الكلام به أو يقدر مضاف أى مبصراً أهلها من أبصر المتعدى لواحد أى يبصر أهلها الأشياء وحذف الواحد لما ذكر ويقرب من هذا الوجه الأخير فى المعنى أن يكون من

باب قولك أجبن الرجل أى صار أهله جبناء فيكون مفيد المعنى كقولك
مبصراً أهلها بالهمزة فى أبصر المأخوذ منه مبصرة لا بتقدير المضاف
ويجوز أن يكون مبصرة بمعنى مضيئة ، ويجوز أن يكون من أبصر المتعدى
لاثنين بالهمزة المتعدى لواحد بدونها ،أى تصيرهم باصرين الأشياء وعلى
كل فالمراد أن الله سبحانه وتعالى وعز وجل النهار مشرقاً تظهر فيه
الأشياء ،وقيل إتيان الشمس والقمر فيقدر مضاف أولا أى جعلنا نيرى
الليل والنهار آيتين أو الآخر أى وجعلنا الليل والنهار ذوى آيتين
والنيران هما الشمس والقمر ،ومحو آية الليل وهى القمر جعلها فى
نفسها طلساء غير منيرة ،فإنها إنما تستفيد النور من الشمس تشبه خلقها
غير مضيئة بإزالة ضوئها بعد وجوده بجامع عدم النور أو عبر عن خلقها
غير مضيئة بالمحو ،لأن المحو فى الجملة سبب لعدم الإضاءة وملزوم له
ويجوز أن يكون المراد لمحو آية الليل نقص نورها شيئاً فشيئاً بحسب
قربه من الشمس إلى أن يستتر ويجوز أن يكون المراد بمحوها كون
القمر لا يرى به الشىء رؤية بينة كما يرى بالشمس فعبر عن خلقه
أنقص من الشمس بالمحو ،لأن المحو فى الجملة سبب للنقص وملزوم
له ، ويجوز أن يكون المراد أن القمر قد كان كالشمس فى الإضاءة
فأزال الله جل وعلا من ضوئه إلى أن بقى كما هو ليلة تمامه . قال ابن

عباس : جعل الله نور الشمس مائة جزء ، ونور القمر كذلك فمحا من نور القمر ستة وتسعين جزءا فجعلها مع نور الشمس . وقيل : محا من نوره تسعة وتسعين جزءا وبقى جزء واحد . وروى أن الله تبارك وتعالى أمر جبريل أن يمر جناحه على القمر ثلاث مرات فطمس ضوءه إلا ما بقى فيه ليلة تمامه ، فمن ذلك كان فيه الكلف وهو ما يرى فيه من سواد وقد سأل ابن الكوى علياً عن السواد الذى فى القمر فقال : هو أثر المحو ويدل لقول ابن عباس وما بعده الفاء بقى للموضوعة للتعقيب وتجعل على غيره لعطف المفصل على المجمل ، فجعل الليل والنهار آيتين فحمل فصله بقوله فمحونا آية الليل. . الخ . وأما الشمس فباقية على ضوئها لم ينقص منه شىء وترى بها الأشياء رؤية بينة وليس ضوؤها مستفادا من شىء تقابله بل خلقت فى نفسها مضيئة كخلقة النار﴿ لِّتَبْتَغُوا ﴾ تطلبوا بكسبكم فى بياض النهار﴿ فَضْلاً ﴾ أسباب المعاش﴿ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ وهو الذى يتفضل بها عليكم وتتوصلون إلى بيان أعمالكم وضبطها بذلك البياض ﴿ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ﴾ أى لتعلموا باختلاف الجديدين وهما الليل والنهار وعدد السنين وتعلموا جنس الحساب وما تحتاجون إليه منه ولولا ذلك لتعطلت الأمور ولم يدر حد لوقت ولا وقت حلول الدين أو الحج

أو إفطار الصائم. وروى عن على وأبي هريرة أن كل يوم يقول أنا يوم جديد وعلى ما تعمل شهيد وكذا الليلة تقول أنا ليلة جديدة وعلى ما تعمل شهيدة. وروى عن الغاز بن قيس أنه كان يقول ما من يوم يأتي إلا ويقول أنا يوم خلق جديد وعلى ما يفعل فى شهيد خذوا منى قبل أن أبيد فإذا أمسى ذلك اليوم خر لله ساجداً فقال الحمد لله الذى لم يجعلنى اليوم العقيم يريد باليوم الليل والنهار أو النهار فقط ويعلم حكم الليل بالقياس عليه والعقيم الذى لم يذكر الله فيه أو الذى استؤصل فيه قوم عافانا الله بفضله وكرمه ومعرفة السنين والحساب للأشهر والأيام في الشرع إنما هى بالقمر لا بالشمس واعلم أن العدد للسنين والحساب للشهور والأيام والساعات، وليس بعد السنين والشهور والأيام والساعات إلا التكرار فالأسبوع مجتمع من أيام ولا يقال الشهر كذلك متكرر مجتمع منها لأنه، ولو كان كذلك، لكنه متميز باستتار القمر آخر المدة وظهوره من أول المدة، وكذلك السنة ولو اجتمعت من أيام وشهور لكن تميزت بدوران الفصول الأربعة واليوم ولو اجتمع من ساعات لكن تميز بغيبوبة الشمس فيكون أوله أول الليل وآخره آخر النهار﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ ﴾ بالنصب عطف على عدد أو الحساب وقوله ﴿ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً ﴾نعت لكل أو شيء ويجوز كون منصوبا على الاشتغال

والمشغول هو فصلنا بعده،وهذا المعنى أولى وهو أيضا أنسب بما بعده فإن علم كل شىء مفصل من جعل آية النهار مبصرة غير واضح وغير متبادر،وإنما الواضح المتبادر أن يقال كل شىء يفتقر إليه فى أمر الدين والدنيا قد فصله الله تفصيلا،أى بينه بيانا شافيا لا يلتبس حتى لا تبقى على الله حجة وقيل الشمس والقمر دليلان على التوحيد ونعمتان من الله عز وجل فقد فصل بهما الأشياء،وقد علمت أن ليس المراد بالشىء كل شىء على الإطلاق فإن جد الأشياء لا يعلمها بل مانحتاج إلى معرفته فإنه هو المفصل لنا،ويجوز أن يراد التفصيل فى قدرة الله وعلمه وإيجاده فيكون العموم على ظاهره .

﴿ وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ ﴾أى عمله وما قدر له شبه ذلك بطائر يطير بجناحه كأنه أطير إليه من الغيب والقضاء فطار فإن انتقال ذلك من القضى إلى الخارج شبيه بالطيران،ومن ذلك طار له سهم إذا خرج وقد ذكر ابن عيينة أن الآية من قولك طار له سهم إذا خرج،وقيل طائره ما قضى عليه من عمل وسعادة وشقاوة وفيه الشبه المذكور وإن قلت ما نكتة التشبيه قلت من عادة العرب التيمن والتشاؤم بالطير وكثر ذلك حتى فعلته بالضباء أو حيوان الفلا يتيمنون بذهابه يمينا وهو السنوخ ويتشاءمون بذهابه شمالا وهو اليروح وتسمى ذلك تطيرا

وتعتقد أن التطير قاض بما يلقى الإنسان من خير وشر فخاطب العرب بما تعرف فاستعير لفظ طائر لما هو سبب الخير والشر من قدر الله وعمل العبد،ولذلك فسر بعضهم طائره بخيره وشره . قال مجاهد وقتادة عبر عن الحظ والعمل إذ هما متلازمان بالطائر بحسب معتقد العرب فى التطير ﴿ فِي عُنُقِهِ ﴾كالطوق والقلادة والغل مما يزين أو يشين،فإن كان عمله خيرا فهو كطوق ذهب أو فضة ونحوهما مما يطوق فى العنق للتزيين وكالحلى الذى يقلد فى العنق من لؤلؤ ومرجان وغيرهما.وإن كان عمله شرا فهو كغل في عنق،قيل ما من مولود إلا وفى عنقه ورقة مكتوب فيها شقى أو سعيد،وقيل المراد الطائر الملزم فى العنق هو ما يتحصل من العمل ويعلق فى عنق صاحبه فى قبره وهو ظاهر كلام الحسن الذى أذكره بعد قوله تعالى:حسيبا .ونسب لابن عباس والمشهور عنه أنه عمل ابن آدم وما قدر له. وروى عن الحسن يا ابن آدم بسطت لك صحيفة إذا بعثت قلدتها فى عنقك وظاهره إن الطائر الكتاب المشتمل على عمله المعلق فى عنقه إذا بعث،وقرىء بسكون نون عنقه﴿ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً ﴾ صحيفة أعماله أو نفسه فإنها كتاب من حيث أنها منتقشة بآثار أعماله،فإن الأفعال الاختيارية تحدث فى النفس أحوالا. ولذلك يفيد تكرير النفس لتلك الأحوال ملكات والملكة قسم من مقولة

الكيف والكيف عرض لا يتوقف تصوره على تصور غيره ولا يقتضى القسمة ولا عدمها فى محله اقتضاء أوليا ،فإن اختصت الكيفية بذوات الأنفس تسمى كيفية النفسانية وحينئذ إن كانت راسخة فى موضعها تسمى ملكة ،وكتابا مفعول به أو حال من مفعول محذوف هو ضمير الطائر أى تخرجه إلى الطائر حال كونه كتابا ،أى نظهر عمله وما قدر له حال كونه مكتوبا ويدل له قراءة يعقوب ،ويخرج بفتح الياء تحت وضم الراء فإن فيه على قراءة يعقوب ضميرا مستترا لطائر ،ويدل له أيضا كلام الحسن الآتى وقرىء بضم الياء المثناة تحت وكسر الراء أى يخرج الله وعلى هذا فكتابا مفعول لو حال على حد ما مر وقرىء يخرج بالمثناة والبناء للمفعول ونصب كتابا على الحال من النائب المستتر العائد إلى الطائر ،وهذه القراءة تدل أيضا على كون كتابا حالا فى قراءة نخرج بالنون وقراءة يخرج بالتحتية مضمومة والراء المكسورة ﴿ يَلْقَاهُ ﴾وقرأ ابن عامر بضم الياء وفتح اللام وتشديد القاف بالبناء للمفعول من لقاء الشىء بالتشديد ،أى جعله لاقيا للشىء وفى يلقاه على قراءته ضمير مستتر نائب الفاعل عائد إلى كل إنسان والهاء مفعول ثان، كما أن فيه على قراءة الجمهور ضميرا هو الفاعل عائدا إلى كل

إنسان والهاء مفعول ولا مفعول ثانيا له والجملة على القراءتين نعت لكتابا ﴿ مَنْشُورًا ﴾ نعت ثان أو حال من الهاء.

﴿ اقْرَأْ كِتَابَكَ ﴾أى يقال له يوم القيامة اقرأ كتابك أو نقول له يوم القيامة اقرأ كتابك فيقرأه ولو لم يكن فى الدنيا قارئا ﴿ كَفَى بِنَفْسِكَ ﴾ الباء صلة للتأكيد ونفس فاعل﴿ الْيَوْمَ ﴾ الحاضر وهو يوم القيامة﴿ عَلَيْكَ ﴾ متعلق بقوله﴿ حَسِيْباً ﴾ تمييز أو حال بمعنى الحاسب من حسب عليه كذا وهو الحاسب كالصريم بمعنى الصارم وضريب القداح بمعنى ضاربها أو بمعنى الكافى فوضع موضع الشهيد فعدى بعلى لأن الشاهد يكفى المدعى ما أهمه ،وذكر حسيبا مع أن النفس مؤنث لأن الشهادة والقضاء والإمارة يتولاهن غالبا الرجل فكأن نفسه جعلت رجلا حسيبا ،فكأنه قيل كفى بنفسك رجلا حسيبا أى عوضا من رجل حسيب أو لتأويل النفس بالمذكر وهو الشخص كما يقال ثلاثة أنفس بإثبات التاء فى العدد وإنما تثبت فى اللغة الفصحى فى عدد المذكور أولت بأشخاص فتثبت التاء أو لأن فعيلا بمعنى فاعل يجوز إسقاط التاء منه ولو كان لمؤنث. قال ابن‌جرير الطبرى بسند له عن الحسن يا ابن آدم بسطت لك صحيفة ووكل بك ملكان كريمان أحدهما عن يمينك يكتب حسناتك والآخر عن شمالك يكتب سيئاتك فاعمل ما شئت

وأقلل أو أكثر حتى إذا مت طويت صحيفتك فجعلت فى عنقك معك فى قبرك حتى تخرج لك يوم القيامة كتابا تلقاه منشورا اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا قد عدل والله فيك من جعلك حسيب نفسك ا.هـ. قيل يقول الكافر يارب إنك لست بظلام للعبيد فاجعلنى أحاسب نفسى ويقال له اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم حسيبا .

﴿ مَّنِ اهْتَدَى ﴾إلى الحق ،﴿ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِ ﴾ لأن ثواب أهتدى اهتداء له لا لغيره ، ﴿ وَمَن ضَلَّ ﴾عن الحق ، ﴿ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾ لأن إثم ضلاله عليه لاعلى غيره فهو الهالك به لا غيره ﴿ وَلَا تَزِرُ ﴾ لا تحمل﴿ وَازِرَةٌ ﴾ أى نفس حاملة ﴿ وِزْرَ ﴾ حمل﴿ أُخْرَى ﴾ أى نفس أخرى إنما تحمل كل نفس وزرها ويسمى الذنب ، وزرا أى لا تذنب نفس مذنبة ذنب أخرى أى لا يتعلق بها ذنب أخرى ولا ينسب إليها ، ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ ﴾ لأحد على الشرك وفعل المحرمات وترك الواجبات ، قال الحسن المعنى لا نعذب أحدا بالاستئصال ، ﴿ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾إليهم نهاهم عن الشرك والمحرمات ، ويأمرهم بالواجبات فيعصوه،وهذا فى جانب التوحيد زيادة لطف ورحمة، فإن الحجة تقوم فيه بنصب الدلائل التى يراها للكلف بعقله بلا إرادة أحد كالسماء والأرض وذاته وسائر ما يحسبه ، وأما فى جانب الفروع

فإقامة للحجة وقطع للعذر فإن الحجة فيه بإرسال الرسل ألا ترى كيف تكرر فى القرآن: إن فى ذلك لآية ،إن فى ذلك لآيات ، هذا ما كنت أقول بعد استفراغ الوسع.وقالت الشافعية وغيرهم :كلا النوعين إنما قامت فيه الحجة بالرسل وأنه لا وجوب قبل الشرع ، وأن الوجوب إنما هو بالسمع لا بالعقل وبهذا قال أصحابنا ؛ لكنهم لا يعذرون أصحاب الفترة فى التوحيد ولا الفروع وعذر أهل المغرب صاحب الجزيرة إن كان على دين نبى ولم يعذره أهل الجبل وإمام الشافعية وغيرهم فيعذرون أهل الفترة وصاحب الجزيرة ولو لم يكن على دين نبى على خلاف بينهم.

﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً ﴾أى أهل قرية ، أو أردنا تخريبها بإهلاك أهلها والمراد تعلق الإرادة بإهلاك قوم لإنفاذ قضائنا السابق أو دنو وقته المقضى ، كقولهم إذا أراد المريض أن يموت ازداد مرضه شدة ، ﴿ أَمَرْنَا ﴾من الأمر ضد النهى أى أمرنا بالتوحيد والشريعة بلسان رسول ،﴿ مُتْرَفِيها ﴾ أى منعميها وهم الرؤساء الذين يكثر الله عز وجل لهم النعم وخصهم لأن غيرهم يتبعهم ولأنهم أسرع إلى الحماقة وأقدر على الفجور ، ويدل على ما ذكرته من كون الأمر أمراً بالتوحيد والشريعة بلسان رسول قوله وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا وقوله ، ﴿ ففَسَقُوا فِيهَا ﴾ أى خرجوا فى القرية عن طاعة الرسول فى أمره لهم بالتوحيد

والشريعة فإن الفسق النسوخ عن الطاعة فدل عليها بطريق المقابلة فإن دليل الحذف كما يكون بالموافقة يكون بالمخالفة أو بضد كقوله جل وعلا : وله ما سكن فى الليل والنهار أى وما تحرك، وذلك قول ابن عباس ، وقيل المعنى أمرناهم بالفسق كما أنه إذا قيل أمرته فأكل يفهم أن المراد أمرته بالأكل فأكل، وإذا قيل أمرته فقرأ، يفهم أن المراد أمرته بالقراءة فقرأ، وذلك فى الآية على طريق المجاز، فإن الله سبحانه وتعالى لا يأمر بالفسق، وبيان ذلك المجاز أنه تعالى صب عليهم النعم صباً ليشكروها ويعملوا فيها الخير فجعلوها ذريعة إلى المعاصى ولما كان صب النعم سبباً لعدم الشكر وللفسوق أو حاملا على ذلك، فكأنه تعالى هو الذى أمرهم بالفسق إذ يسر لهم ما توصلوا به لعدم الشكر وللفسق ويحتمل أن يكون الكلام على طريق عدم تعلق الغرض بالمفعول، فلا ينوى للأمر معمول كما تقول أمرته فعصانى ، إذا لم يكن مرادك الإخبار بما أمرته بل مجرد ترتب عصيانه على الأمر ، وقيل معنى أمرنا مترفيها أكثرنا مترفيها ، يقال أمر الشىء بنفسه أى كثر ، وأمرته فأمر، أى أكثرته فكثر يتعدى ويلزم بلفظ واحد ثلاثى، ومن المتعدى قوله — صلى الله عليه وسلم — خير المال سكة مأبورة ومهرة مأمورة . والسكة بكسر فتشديد صف النخل والمهرة المأمورة التى أكثر الله نتاجها

فكان باسم مفعول وناب عن فاعله ضمير مستتر لا جار ومجرور أو ظرف أو مصدر ، وقال مشرك لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – إنى أرى أمرك هذا حقير . فقال – صلى الله عليه وسلم – إنه سيأمر أى يكثر ويدل على ذلك قراءة يعقوب ،أمرنا بهمزة فألف تعدية لأمر اللازم الذى بمعنى كثر فالهمزة للتعدية والألف بدل من همزة الثلاثى،وروى هذه القراءة عن نافع وابن كثير ، والمشهور عن نافع القصر لا المد الذى هو قراءة يعقوب ، وقرأ أبو عمرو فى رواية أمرنا بالقصر وتشديد الميم أى أكثرناهم فالتشديد فيها تعدية لأمر اللازم المخفف الذى بمعنى كثر أو مبالغة فى المخفف المتعدى وتحتمل قراءة أبى عمرو هذه أن يكون التشديد فيها للتعدية من أمر بضم الميم بمعنى صار أميراً ،أى صيرنا مترفيها أمراء ورويت هذه القراءة عن أبى عثمان النهدى ، وأبى العالية ، وابن عباس وعلى ، وفى مصحف أبى ابن كعب أكابر مجرميها فمكروا فيها ، واختار أبو حاتم وأبو عبيدة قراءة الجمهور ، قال أبو عبيدة : اخترتها معنى الكثرة ومعنى الأمر وضد النهى مجتمعة فيها ،كذا قال أبو عبيدة ، وليس ذلك الاجماع مسلماً . ﴿ فَحَقَّ ﴾أى وقع ﴿ عَلَيْهَا الْقَوْلُ ﴾ أى كلمة العذاب السابقة فى الأزل ، أى ما أوعدوا به من العذاب بحلوله أو

وجب عليهم العذاب بظهور معاصيهم ،﴿ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴾ أهلكناها بإهلاك أهلها وتخريبها لكثرة خبثهم . .

دخل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على أم المؤمنين زينب بنت جحش فزعاً يقول : لا إله إلا الله ، ويل للعرب من شر قد اقترب ، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه ، وحلق بإصبعه الإبهام والتى يليها . قالت : يارسول الله أنهلك وفينا الصالحون . قال : نعم . إذا كثر الخبث ، أى الشر والويل الهلاك . رواه البخارى ومسلم .

قال بعضهم : التدمير الإهلاك مع طمس الآثار وهدم البناء .

﴿ وَكَمْ ﴾خبرية للتكثير مفعول مقدم لقوله :﴿ أَهْلَكْنا ﴾ أى أهلكنا كثيرًا ﴿ مِنَ الْقُرُونِ ﴾المكذبة نعت لكم عندى،ولو منع كثير من العلماء نعتها،وهو بيان لها واختلفوا فى القرن ، فقيل من فى مدة عشر سنين ، وقيل عشرين ، وهكذا بالمعقود إلى مائة ، وقيل مائة وعشرون،وعليه عبد الله بن أبى أوفى ، كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أول القرن ، ويزيد بن معاوية : آخره ؛ ولم يذكروا تسعين ، وذكرها بعض ، والصحيح أنه مائة سنة وهو المشهور المأخوذ به فى التاريخ والحساب.

روى محمد بن القاسم عن ختنه عبد الله بن بشر أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وضع يده على رأس عبد الله فقال : سيعيش هذا الغلام قرناً . فقلت : كم القرن . قال : مائة سنة ، فما زلنا نعد له حتى تمت له مائة سنة ثم مات ، وإنما ذلك رغبة فى إفادة الطالب وإلا فالذى عندى أن المراد بالقرون فى الآية ونحوها الأُمم مطلقا لا باعتبار أزمنتها . ﴿ مِن ﴾زائدة عند ابن مالك ، وقيل ابتدائية ﴿ بَعْدِ نُوْحٍ ﴾ كعاد وثمود وغيرهم ، وذلك تخويف وتحذير لكفار مكة أن يصيبهم من الهلاك مثل ما أصاب الأُمم الماضية إن أصروا على الكفر . ﴿ وَكَفَى بِرَبِّكَ ﴾فاعل كفى والياء للتأكيد وربما جاء فاعل كفا بلا ياء كقوله :

كفى الشيب والإسلام للمرء ناهياً

وقول الآخر :

ويخبرنى عن عائب المرء هديه كفى الهدى عما غيب المرء مخبرا

وإنما تزاد فى الغالب كفى فى مقام المدح والذم﴿ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ ﴾ متعلق بقوله : ﴿ خَبِيرًا ﴾ أوبقوله : ﴿ بَصِيرًا ﴾ويقدر مثله الآخر،فإن علق بالثانى قدر للأول مثله ظاهراً وإن علق بالأول قدر مثله للثانى ضمير

أو ليس ذلك تنازعاً لتقدمه وإنما قدم للفاصلة وتشديد الترهيب بالمذنوب ومعنى خبير أنه عالم ببواطن الذنوب ، ومعنى بصير أنه عالم بظواهرها . قال القاضى : وتقديم الخبير لتقدم متعلقه ونبه الله عز وجل بذلك على أن الذنوب هى أسباب الهلك وأنه معاقب عليها .

﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ العَاجِلَةَ ﴾ أى من كان يريد الدار العاجلة ، وقصر همه عليها وهى الدنيا . ﴿ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَانَشَاءُ ﴾ من توسيع وتضييق لا ما يشاء هو فما كان همه إلا زائداً ضائعاً،وليس كل متمن يجد ما يتمناه ، ولا كل واجد يجد جميع ما تمناه ، وكثير من الفسقة والكفرة يتمنون ما يتمنون ولا يعطون إلا بعضاً منه ، وكثير يتمنون ذلك البعض ولا يعطونه فأجمع عليهم فقر الدنيا والآخرة ، والآية فى الفسقة والكفرة ، وقيل فى المنافقين كانوا يراؤون المسلمين ويغزون معهم ولم يكن غرضهم إلا مساهمتهم فى الغنائم ونحوها ويغزون ليذكروا بالشجاعة ويعملون عمل الآخرة للدنيا ويهاجرون لنساء يتزوجونها .

قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ من كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها ، أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه . وقرأ ما يشاء بالمثناة والضمير فيه

عائد إلى من فيكون التعجيل مخصوصاً ببعض دون بعض لا عاماً في كل من يريد العاجلة أو عابد لله سبحانه وتعالى وعز وجل على طريق الالتفات من التكلم إلى الغيبة،وبهذا توافق هذه القراءة من قرأ النون.
﴿ لِمَن نُّرِيدُ ﴾بدل بعض من قوله له أى عجلنا ما نشاء لمن نريدالتعجيل له من جملة من يريد العاجلة لا مايشاء المريد ولم نرده ولاالكل من يريدها والرابط من بين الصلة والموصول محذوف أى يريده بالتعجيل له .
وقال ابن إسحاق والفزارى لمن نريد إهلاكه،والرابط بين البدل والمبدل منه محذوف أيضاً،أى لمن نريد منه من العاجلة وسمي ذلك تعجيلا باعتبار أن ما يعطيهم ثواب لما قد يعلمونه فلا ثواب لهم فى الآخرة ولكن هذا لايطرد،إذ قد لايعمل المشرك شيئاً من الأخلاق ، ولا المنافق شيئاً لله ، والأولى أن يكون ذلك باعتبار ما ادخر لهم فى الآخرة من العذاب عجل لهم متاعاً قليلا وادخر لهم عذاباً أليماً مؤجلا إلى الآخرة كما قال﴿ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ ﴾ فى الآخرة﴿ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا ﴾ يدخلها فى الآخرة والجعل مستقبل ولو عبر عنه بصيغة الماضى لأنه معطوف على جواب الشرط أو خبر الموصول الشبيه بالشرط﴿مَذْمُوماً ﴾ مذكوراً بشر ﴿ مَّدْحُوراً ﴾ مطروداً من رحمة الله أو مهاناً .

﴿ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ ﴾ أرادت إيمان بها وبالله ورسالاته أو أراد خير الآخرة وهو أنسب بقوله من كان يريد العاجلة ﴿ وَسَعَى لَهَا ﴾ فائدة اللام اعتبار النية والإخلاص ﴿ سَعْيَهَا ﴾ أى عمل لها العمل اللائق بها وهو اتباع الشرع امتثالا واجتنابا ﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ إيماناً خالصاً لا إيماناً مخلوطاً باعتقاد فاسد يوقع فى شرك لوصف الله سبحانه وتعالى بانتقال وزوال من مكان إلى آخر وتحديد وتشبيه فإن الإيمان الخالص هو الأصل المعتمد عليه والجملة حال . ﴿ فأولئك ﴾ الجامعون للشرائط الثلاث التى لا يشكر السعى إلا بها إرادة الآخرة بأن يعقد بها همه ويتجافى عن دار الغرور والسعى فيما كاف من الفعل والترك والإيمان الصحيح الثابت . . ﴿ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾ عند الله تعالى ، أى مقبولا عنده مثاباً عليه ، فإن شكر الله هو الثواب على الطاعة ولا يشكر الله سعياً ولا عملا إلا أثاب عليه كما قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بينما رجل يمشى فى الطريق فاشتد عليه العطش فوجد بئراً فنزل فيها فشرب فخرج فإذا بكلب يلهث ويأكل الثرى من العطش ، فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذى بلغنى ، فنزل البئر وملأ خفه بالماء فأمسكه بفيه حتى رقى فسقى الكلب فشكر الله ذلك له وغفر له . فقالوا : يارسول الله إن فى البهائم لاجرًا . فقال : فى كل كبد رطب أجر ، رواه أبو عبيدة رحمه

الله ، عن أبي هريرة ، وعن بعض المتقدمين من لم يكن معه ثلاث لم ينفعه عمله إيمان ثابت ، ونية صادقة ، وعمل مصيب ، وقرأ الآية .
﴿ كُلاًّ ﴾من الفريقين . ﴿ نُّمِدُّ ﴾نعطى مدة بعد أُخرى عطاء متوالياً ، ﴿ هَؤُلَاءِ ﴾بدل كلا أى هؤلاء المريدين للعاجلة﴿ وَهَؤُلَاءِ ﴾ المريدين للآخرة . ﴿ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ ﴾ متعلق بنمد أى من معطاه فى الدنيا وهو الرزق يستوفى كلما قضى له يختلف بهما الحال فمريد الآخرة يشكر النعمة ويؤمن فله الكرامة فى الآخرة ، ومريد العاجلة لا يشكر فله الخزى فى الآخرة .هذا قول الحسن وقتادة وذلك على طريق الالتفات من التكلم للغيبة فإن مقتضى الظاهر من عطائنا﴿ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ ﴾فى الدنيا . ﴿ مَحْظُورًا ﴾أى ممنوعاً عن أحد بل يصيب مريد العاجلة ومريد الآخرة تفضلا لا يمنع عن عاص ومشرك . وقال ابن عباس فى رواية عطاء ربك الطاعة نعطيها لمريد الآخرة والمعصية نعطيها لمريد العاجلة ويعضد الأول قوله وما كان عطاء ربك محظوراً وأقل ما تصلح هذه العبارة لمن يمد بالمعاصى ويعضده أيضاً .

﴿ انظُرْ ﴾يامحمد . ﴿ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ فإن المتبادر منه التفضيل فى الرزق،قيل فضلنا بعضهم على بعض فى الرزق والجاه

وكيف اسم استفهام حال منصوب بفضلنا وجملة كيف فضلنا فى محل نصب مفعول انظر ، وعلقه عن العمل فى المفرد إلى العمل فى الجملة اسم الاستفهام﴿وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ ﴾ أعظم من الدنيا﴿ دَرَجَات وَأَكْبَرُ ﴾ منها، وقرىء وأكثر بالمثلثة﴿ تَفْضِيلاً ﴾ فإن درجات الدنيا والتفضيل فيها بأرزاق وجاه ونحو ذلك مما هو غير دائم وغير خال عن نقض وكدورة ودرجات الآخرة والتفضيل فيها بقصور وجملة نعم لا تزول ولا تكدر ولا تنقطع فيجب الاعتناء بها دون الدنيا فالآية فى تفضيلا نعيم الآخرة على نعيم الدنيا،ويحتمل أن يكون ذلك فيما بين درجات الآخرة ونعيمها بعضها أفضل من بعض،أى التفاوت فى درجات الآخرة فيما بينها أعظم من التفاوت فى درجات الدنيا فيما بينها .

روى أن قوماً من الأشراف منهم أبو سفيان وسهل وقوماً دونهم منهم بلال وصهيب اجتمعوا فى باب عمر رضى الله تعالى عنه يستأذنون فخرج الإذن لبلال وصهيب فشق على أبى سفيان ، فقال سهيل : إنما أتينا من قبلنا أنهم دعوا ودعينا يعنى إلى الإسلام فأسرعوا وأبطأنا وهذا باب عمر فكيف التفاوت فى الآخرة،ولئن حسدتموهم على باب عمر فما أعد الله لهم فى الجنة أكثر ، وقيل المعنى أن التفاوت فى الآخرة أكثر لأن التفاوت فيها بالجنة ودرجاتها والنار ودركاتها .

﴿ لَاتَجْعَلْ مَعَ اللهِ إِلَٰهاً آخَرَ ﴾ قال ابن جرير الطبرى وغيره : الخطاب للنبي - صلى الله عليه وسلم - والمراد جميع الخلق ، وقيل المراد غيره ، وقيل الخطاب لكل من يصلح له ، أى لا تجعل مع الله إلهاً آخر أيها المكلف أو أيها الإنسان . ﴿ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا ﴾ عند الله والملائكة والناس. رويت عن شيخى ذكره الله بالصالحات فى شرح الأجرمية للشريف ابن يعلى الفاسى فشحذ شفرته حتى قعدت كأنها حربة أى صارت وكذا تقعد بمعنى تصير ،فيكون من باب كان أى فتصير مذموماً ﴿ مَخْذُولًا ﴾ من الله ومفهومه أن من وحد الله يكون ممدوحاً منصوراً ويجوز أن يكون تقعد بمعنى تعجز فيكون مذموماً مخذولا حالين ، يقال قعد عن الشيء أى عجز عنه وفسره الفراء بما ذكرته أولا .

﴿ وَقَضَى رَبُّكَ ﴾ قال ابن عباس أمر ، وقيل أوجب وقيل حكم الحكم الجازم ، وقيل وصى وقد قرأ الضحاك ووصى ،وكذا قرأ ابن عباس فى رواية وابن مسعود وكذا هى فى مصحفه ،وأخطأ من زعم أن هذا هو القراءة وإن القراءة بالقاف تحريف منها بأن ألصق الكاتب الواو بالصاد فصار قافاً ، وكانت المصاحف غير منقوطة ،خطأ عظيماً يؤدى إلى أن لا يوثق بالقرآن وإلى الطعن وقد حفظ الله سبحانه القرآن عن أن يغير . وعن ابن عباس وأوصى ويجوز أن يكون المعنى سبق علم الله

فى الأزل فيكون الخطاب فى تعبدوا للمؤمنين خاصة إلى يوم القيامة
ولا نافية وأن ناصبة والباء مقدرة أى بأن لا تعبدوا وعلى الأوجه السابقة
الخطاب لجميع الناس وإن ولا كما ذكر أو لا ناهية وأن مفسرة وأجيز
أن يكون أن مخففة ولا ناهية وقوله وقضى ربك . . الخ . كالتفضيل
لسعى الآخرة ﴿ أَلاَّتَعْبُدُوا إلاَّ إِيَّاهُ ﴾ أى إلا ربك لأنه الذى له الغاية
العظمة ونهاية الإنعام والعبادة غاية التعظيم فلا يستحقها إلا من هو كذلك
وقرأ بعض ولد معاذ بن جبل: وقضاء ربك بالمد على الابتداء وأن لاتعبدوا
خبر على أن لا نافية وأن ناصبة ﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ ﴾ أى وإن تحسنوا
بالوالدين فهو متعلق بمحذوف وذلك المحذوف معطوف على أن لاتعبدوا
بأن ولا . لا على تعبدوا بدون ولا وإلا تسلط النفى أو النهى عليه وليس
بمراد وكأنه قيل وقضى أن تحسنوا بأن الناصبة أو بأن تحسنوا أو
وقضى أن تحسنون بأن التفسيرية ويجوز تعليقه بمستأنف محذوف
أى واحسنوا بالوالدين بكسر السين على الأمر،ويجوز عطفه على لا تعبدوا
إذا جعلت لا ناهية ولا يجوز أن يعلق بقوله﴿ إِحْسَاناً ﴾ لأنه مصدر
والمصدر لا يسبقه معموله ، وقيل بالجواز لأن معموله جار ومجرور ،
وقيل يجوز لأنه مصدر لا ينحل إلى الموصول الحرفى والفعل،لأنه عوض
من اللفظ بفعله وإنما الذى لا يجوزه فيه ذلك هو الذى لا ينحل إلى

الموصول الحرفى والفعل،لأن الموصول لا تقدم عليه صلته﴿ إمَّا ﴾ أن الشرطية وما التى هى صلة للتأكيد أدغمت نون أن فى ميم ما ويدل لذلك تأكيد الفعل بعد بالنون ولو جردت«أن» عن «ما» لكان غير جائز تأكيده . ﴿ يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا ﴾ فاعل يبلغ . ﴿ أَوْ كِلَاهُمَا ﴾ عطف على أحدهما ، وقرأ حمزة والكسائى يبلغان بنون توكيد مشددة بعد مكسورة ألف اثنين وهما الوالدان،وحذفت نون الرفع للجازم وأحد بدل من الألف،ومعنى بلوغهما الكبر عندك أن يكونا فى بيته قائماً بهما فى حال كونهما قد كبرا وعجزا وكانا كلا عليك . ﴿ فَلَا تَقُلْ لَّهُمَا أُفٍّ ﴾ بالتنوين للتنكير وهو مبنى على الكسر لالتقاء الساكنين وذلك قراءة نافع وحفص هنا ، وفى الأنبياء والأحسن ، وقرأ ابن كثير وابن عامر ويعقوب بناء على الفتح تخفيفاً بلا تنوين ،وقرئ بالفتح والتنوين، وقرئ بالضم منوناً وغير منون اتباع للهمزة كمنذ،والساكن جائز غير حصين ولا سيما المدغم وهو على ذلك كله اسم صوت يدل على ضجر وملل ، وقيل اسم للصوت الذى يخرج من فم من ينفخ على شىء يقع عليه كرماد وتراب مما يكرهه ليزيله بالنفخ ثم توسعوا بذكره عند كل مكروه يصلهم ، وقيل اسم للفعل المضارع الذى هو اضجر وأمَلّ أو أكره أو تقدر ونحو ذلك ، وعليه ابن هشام وفسر بعضهم

أفٍ تباً وقبحاً ، والمراد نهى الإنسان أن يقول لوالديه : أفٍ إذا رأى منهما ما استقذره أو يستثقله ،ويفهم غير هذا اللفظ من الألفاظ السوء المساوية والتى هى أعظم ومن الأفعال المضرة كالضرب من ذلك اللفظ ، لأن العلة إضرارهما فهو منهى عنه بأى لفظ كان ، ويجوز أن يكون المراد جميع ذلك بالكناية ، أى لا تقل لهما شيئاً مما يضرهما ولا تفعل شيئاً يضرهما وعلى هذا فلا مفهوم بخلاف الأول ، فإن فيه مفهوم الخطاب الذى المسكوت عنه حكمه حكم المذكور ، فما كان مساوياً فى التأفيف فمفهوم المساواة ويسمى المحوى ، وما كان أعظم فمن التنبيه بالأذى على الأعلى كالشتم والضرب ويسمى لحن الخطاب ، وفهم النهى عن ذلك بطريق القياس ، وقيل بطريق العرف ، وقيل بطريق اللفظ وهو الذى يتبادر . قيل :نزلت الآية فى سعد بن أبى وقاص ، أسلم وأمه كافرة مشركة لما كان حق الوالدين عظيماً ولو كانا مشركين قرنه الله سبحانه وتعالى بعبادته ، وقرن حقهما وعبادته فى القضاء ولم يرخص فى أدنى كلمة تنقلت من المتضجر مع موجبات الضجر ، مثل أن يلى منهما ما ولياه منه فى صغره من بول وغائط وغيرهما وما تستقذر رؤيته أو رائحته ، ومع أحوال لا يكاد صبر الإنسان يدخل معها فى الاستطاعة وألزمه فى حقهما خمسة أشياء : الأول ـ أن لا يقول لهما أفٍ وقد مر

الكلام فيه وسواء فى هذه الخمسة أن يكونا كبيرين أو غير كبيرين وإنما علقها بالكبر لأنه مظنة عدمها. الثانى عدم انتهارهما كما قال الله عز وجل. ﴿ وَلَا تَنْهَرْهُمَا ﴾ أى لا تغلظ لهما الكلام إذا أراك ما لا يعجبك يقال نهره وانتهره ونهمه بمعنى واحد ، والفرق بين التأفيف والنهران ، التأفيف إظهار الضجر بالقليل والكثير إظهار المخالفة بالرد عليهما . الثالث: أن يقول لهما قولا يطيبان به نفساً كما قال عز وعلا ﴿ وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴾ حسناً جميلا ليناً لا سوء خلق فيه بدل التأفيف مثل السلام عليكما ، ومثل يا أبتاه ويا أماه، وغير ذلك مما هو حسن أدب ونزول على مروءة كما قال إبراهيم لأبيه مع كفره يا أبت، ولاتدعهما بأسمائهما ولابكنيتهما ، بل يقول لهما كقول العبد الذليل للسيد الفظ الغليظ ، وقد قيل من الجفاء وسوء الأدب دعاؤهما بأسمائهما ولا بأس بذكرهما فى وجههما بغير أسمائهما ، كما قالت عائشة رضى الله عنها : قال أبو بكر كذا : وفعل أبو بكر كذا. الرابع: أن يبالغ فى التواضع لهما كما قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ ﴾ أى تذلل وتواضع لهما حتى لاتمتنع من شىء أراده، شبه الذل بالطائر تشبيها غير مذكور وذلك التشبيه استعارة ملكية وأثبت له شيئاً من لوازم الطائر عند انحطاطه وانخفاضه

وهو الجناح وذلك الإثبات استعارة تخييلية كما جعل لبيد للشمال وهى ريح يداً وللقرة بكسر القاف وهى البرد زماماً فى قوله :

وغداة ريح قد كشفت وقرة إذ أصبحت بيد الشمال زمامها

أى زمام القرة،شبه الشمال بالإنسان تشبيهاً مضمر،أى النفس على سبيل الاستعارة المكنية وأثبت لها ما يلازم الإنسان وهو اليد على طريق الاستعارة التخييلية،وشبه القرة بنحو ناقة كذلك وأثبت لها لازم الناقة مثلا وهو الزمام كذلك،وأمره الله سبحانه وتعالى بخفض الجناح مبالغة ويجوز أن يكون المعنى واخفض لهما جناحك،كما قال واخفض جناحك للمؤمنين وعليه فإضافة الذل لبيان لزوم الذل فى حقهما وللمبالغة كما يقال حاتم الجود،كأنه قيل جناحك الذليل وحاتم الجواد ، وقرئ الذل بكسر الذال والمعنى واحد . وقال أبو حيان هو بالكسر للدابة ضد الصعوبة وبالضم للإنسان ضد العسر كأنهم فرقوا بذلك لأن ما يلحق الإنسان أكثر قدراً مما يلحق الدابة فاختاروا الضم لقوته فى الإنسان والكسر لضعفه فى الدابة ، وقيل المكسور بمعنى الانقياد﴿ مِنَ الرَّحْمَةِ ﴾ من شدة شفقتك عليهما لكبرهما وافتقارك اليوم إليهما كما كنت فى حال صغرك أفقر خلق إليهما ، ومن للتعليل ، وقيل للابتداء وليست

للبيان الخامس الدعاء برحمة الآخرة لهما غير مكتف برحمتك التى لا بقاء لها كما قال الله عز وجل :﴿ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا ﴾ بالرحمة الدائمة وهى رحمة الآخرة ، وهذا فى حق الوالدين المسلمين محكم وفى حق المشركين منسوخ بقوله تعالى : ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى،والفاسق من الوالدين عندنا مقيس على المشرك وأما الموقوف فيه منهما فيكف عن الدعاء له بخير الآخرة عندنا . وقال بعضنا يدعى له به ويتولى وأما عند مخالفينا فالموحد مطلقاً يجوز أن يدعى له بالجنة مطيعاً أو فاسقاً،وقيل يجوز أن يدعى للوالدين المشركين بأن يهديهما الله إلى الإسلام،فإذا هداهما فقد رحمهما فقد دخلا فى الآية،ولا نسخ فيها وذلك قول مخالفينا وهكذا يجوز عندهم الدعاء بالهداية للمشرك والفاسق ويمنع ذلك عندنا والظاهر عندى الجواز لما روى أنه دعا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وبعض الأنبياء عليهم السلام كنوح،للمشركين بالهداية ولأن الدعاء للمشرك والفاسق تقوية للإسلام ولا فرق بينه وبين دعائهما إلى الإسلام،فكما أن الدعاء لهما بالهداية سبب لدخول الجنة كذلك دعاؤهما إلى الإسلام سبب له فإن كان المنع لأنه سبب لدخولها فليمنع دعاءهما إلى الإسلام ولا قائل به وإنما الممنوع عندى الدعاء لهما بالجنة ونحوها من خير الاخرة

كإعطاء كتابه بيمينه واختلف أصحابنا فى الولاية والبراءة بالشريطة وفى الكشاف إذا كان الوالدان كافرين فللولد أن يسترحم لهما بشرط الإيمان وأن يدعو الله لهما بالهداية . ﴿ كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيراً ﴾ أى رحمة مثل رحمتهما وتربيتهما وإرشادهما لى فى صغرى وفاء بوعدك للراحمين . قاله القاضى، ويجوز كون الكاف للتعليل وما على كل حال مصدرية سُئِلَ ابن عيينة عن الصدقة على الميت فقال : كل ذلك واصل إليه ولا شىء له أنفع من الاستغفار ولو كان شىء أنفع منه لأمركم به فى الأبوين .

روى مالك فى الموطأ عن يحيى بن سعيد بن المسيب أنه كان يقال إن الرجل ليرفع بدعاء ولده له من بعده وأشار بيده نحو السماء وقد اتصل بيدى جزء من الموطأ ، وروى أبو عمرو بن عبد البر ذلك بسند جيد ثم أسند عن أبى هريرة أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال إن الله سبحانه ليرفع العبد الدرجة فيقول : أى ربى أنى لى هذه الدرجة؟ فيقال باستغفار ابنك والآية فى الوالدين الحيين ولكن طلب الرحمة لهما بعد موتهما والصدقة عليهما وسائر الأعمال نافع لها على خلاف ذكره فى غير هذه السورة .قال عبد الحق فى العاقبة اعلم أن الميت كالحى فيما يعطاه ويهدى إليه بل الميت أكثر وأكثر لأن الحى قد يستقل ما يهدى إليه ويستحقر ما يتحف به والميت لا يستحقر شيئاً من ذلك

ولو كان مقدار جناح بعوضة أو وزن مثقال ذرة لأنه يعلم قيمته وقد كان يقدر عليه فضيعه .وقد قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له وأمر ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالسلام على أهل القبور والدعاء لهم وفعل ذلك هو وما ذلك إلا لكونه نافعاً لهم وقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ الميت فى قبره كالغريق ينتظر دعوة تلحقه من ابنه أو أخيه أو صديقه فإذا لحقته كانت أحب إليه من الدنيا وما فيها .وقال أبو داود إن رجلا من بنى سلمة قال : يا رسول الله ،هل بقى من أبوى شىء أبرهما بعد موتهما به قال الصلاة عليهما والاستغفار لهما وإنفاذ عهدهما من بعدهما وصلة الرحم التى لا توصل إلا بهما وإكرام صديقهما . قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من أحق الناس بحسن صحبتى قال أُمك ثم أمك ثم أبوك ثم أدناك فأدناك. رواه البخارى ومسلم عن أبى هريرة وروى مسلم عنه أنه قال سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول رغم أنفه رغم أنفه رغم أنفه . قيل من يا رسول الله قال من أدرك والديه عند الكبر أو أحدهما ثم لم يدخل الجنة وروى أيضا عنه عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لن يجزى ولد والديه إلا أن يجده مملوكا يشتريه فيعتقه .وروى هو والبخارى عن عبد الله

ابن عمرو بن العاص جاء رجل إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فاستأذنه فى الجهاد قال :أحى والداك؟قال :نعم.قال :ففيهما فجاهد قال . رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ رضى الرب فى رضى الوالد وسخط الرب فى سخط الوالد.أخرجه الترمذى مرفوعا وموقوفا.قال وهو أيضاً وأخرج أيضاً عن أبى الدرداء قال سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول الوالد أوسط أبواب الجنة فإن شئت فضيع ذلك الباب أو احفظه.وقال إنه حسن صحيح .قال ابن مسعود سألت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أى الأعمال أحب إلى الله تعالى؟قال الصلاة على وقتها . قلت :ثم أى؟ قال :بر الوالدين.قلت :ثم أى؟ قال الجهاد فى سبيل الله . رواه البخارى ومسلم قال الشيخ هود رحمه الله ذكروا أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال إن فوق كل بر براً حتى إن الرجل ليهرق دمه فى سبيل الله ،وإن فوق كل فجور فجورا حتى إن الرجل ليعق والديه وأن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال من أصبح بارا لوالديه أصبح له بابان مفتوحان إلى الجنة ،وإن كان واحد فواحد ومن أصبح عاقا لوالديه أصبح له بابان مفتوحان إلى النار ،وإن كان واحد فواحد وإن ظلماه وإن ظلماه وإن ظلماه . وروى أن رجلا قال للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ إن أبوى بلغا من الكبر أنى ألى منهما ما وليا منى فى الصغر

فهل قضيتهما؟قال : لا فإنهما كانا يفعلان ذلك وهما يحبان بقاءك وأنت تفعل ذلك وأنت تريد موتهما . وشكا رجل إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم–سوء خلق أمه فقال :لم تكن سيئة الخلق حين حملتك تسعة أشهر .قال :إنها سيئة الخلق .قال :لم تكن سيئة الخلق حين أرضعتك حولين .قال :إنها سيئة الخلق .قال :لم تكن سيئة الخلق حين اسهرت ليلها وأضنأت نهارها .قال :لقد جازيتها .قال :مافعلت؟ قال: حججت بها على عاتقى .قال : ما جازيتها ولو طلقة واحدة .ورأى ابن عمر رجلا يحمل أمه ويقـــول :

إنى لها مطية لا تذعر * إذا الركاب نفرت لا تنفر * ما حملت وأرضعتنى أكثر *

الله ربى ذو الجلال الأكبر تظننى جازيتها يا ابن عمر

قال لا ولو زفرة واحدة .وشكا رجل إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم– أباه وأنه يأخذ ماله فدعا به وإذا شيخ يتوكأ على عصى فسأله فقال : إنه كان ضعيفا وأنا قوى وفقيرا وأنا غنى فكنت لا أمنعه شيئا من مالى واليوم أنا ضعيف وهو قوى وأنا فقير وهو غنى ويبخل على بمالهفبكى عليه السلام فقال : مامن حجر ولا مدر يسمع ذلك إلا بكى ثم قال للولد

أنت ومالك لأبيك،أنت ومالك لأبيك.وروى ليفعل البار ما شاء أن يفعله فلن يدخل النار وليفعل العاق ما شاء أن يفعله فلن يدخل الجنة يعنى أن برهما سبب لحسن الخاتمة وعقهما سبب لسوئها روى سعيد ابن المسيب أن البار لا يموت موتة سوء وقال-صلى الله عليه وسلم-إياكم وعقوق الوالدين فإن الجنة يوجد ريحها من مسيرة ألف عام ولا يوجد ريحها عاق ولا قاطع رحم ولا شيخ زان ولا جار إزاره خيلاء، إن الكبرياء لله رب العالمين والضابط أن يطيعهما فى كل ما ليس معصية .روى أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أوصى بعض أهل بيته وكان فيما أوصاه به أطع والديك،فإن أمراك أن تخرج من مالك كله فافعل وإن أمراك بمكروه لا إثم فيه وجب عندى أن تطيعهما وإن أمراك بمعصية فلا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق سبحانه وتعالى :وزعم أبو يوسف صاحب أبى حنيفة أنه إن أمر الوالد أبوه أن يوقد تحت قدره وفيها لحم الخنزير أوقد والصواب المنع ولا يذهب بأبيه إلى كنيسة اليهود ولا إلى بيعة النصارى وإذا بعث إليه منها ليحمله فعل،ولا يناوله الخمر ويأخذ الإناء منه إذ شربها.استأذن حذيفة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى قتل أبيه وهو فى صف المشركين فقال :دعه يليه غيرك وسأل الفضيل بن عياض عن بر الوالدين فقال أن لا يقوم إلى خدمتهما

عن كسل وسأل بعضهم. فقال: أن لا ترفع صوتك عليهما ولا تنظر شزرا إليهما ولا يريا منك مخالفة فى ظاهر ولا باطن وأن تترحم عليهما ما عاشا وتدعو لهما إن ماتا وتقوم بخدمة أودائهما من بعدهما .وعن النبي – صلى الله عليه وسلم –إن من أبر البر أن يصل الرجل أهل ود أبيه ﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ ﴾منكم﴿ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ﴾ فى قلوبكم من قصد البر إلى الوالدين واعتقاد ما يجب لهما من التوقير أو بما فى نفوسكم من ذلك أو من العقوق ولعل فى ذلك تلويحا إلى التهديد على إضمار كراهتهما واستثقالهما﴿ إن تَكُونُوا صَالِحِينَ ﴾ قاصدين للصلاح من طاعة الله وبر الوالدين وفرطت منكم خصلة تؤذيهما حال الغضب وضيق الصدر وما لا يخلو منه البشر أو حمية للإسلام ثم تبتم من ذلك﴿ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ ﴾ التوابين إلى الطاعة وبرهما وهو صفة مبالغة من أب فهوآيب كقال يقول فهو قائل يقال آب وتاب ورجع بمعنى واحد وكونه صفة مبالغة قال سعيد بن المسيب الأواب الذى يذنب ثم يتوب ثم يذنب ثم يتوب كلما أذنب بادر إلى التوبة وروى عنه الرجاع إلى الخير وقيل الأوابون المسبحون وقيل المصلون مطلقا. وقيل المصلون صلاة الضحى.زعم بعض أنه يدل على هذا ما أخرجه مسلم عن زيد بن أرقم قال خرج علينا رسول الله – صلى الله

عليه وسلم - على أهل قباء وهم يصلون صلاة الضحى فقال صلاة الأوابين إذا رمضت الفصال أى إذا احترقت أخفاف أولاد الإبل بحرارة الرمضاء بالشمس والرمضاء الرمل الحار بالشمس أو النار والمراد هنا الأول. وكانت إذا اشتدت عليها الحرارة بركت. وقيل الأوابون الذين يصلون بين المغرب والعشاء وعن سعيد بن جبير الأوابون الذين تكون منهم المبادرة إلى أبويه لا يريد بذلك إلا الخير ﴿ غَفُورًا ﴾ أى كثير الغفران وعظيمه للمبالغ فى التوبة عما يصدر منه من أذى أو تقصير فى حق الوالدين فكأنه قال غفور لفرطات الأوابين إذا آبوا منها واستغفروا والآية تحتمل أن تكون فى من أذى أبويه أو قصر فى حقهما وأن تكون فى ذلك وفى كل عاص يتوب ويتبادر ذلك منها لوروده على أثره فهو مندرج فيها اندراجا متبادرا مقصودا بالذات .

﴿ وآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ ﴾ أعط صاحب القرابة من أب وأم أو أحدهما إن لم تكن قرابة الآخر حقه من البر والصلة وحسن العشرة والود والزيارة والمؤالفة والنصر فى الحق سواء كانوا أغنياء أو فقراء أذلاء أو أعزاء ، يقال إن كان لك مال فصلهم به وإلا فبالزيارة برجليك ، وعن الحسن : حق الرحم أن لا يحرمنها ويعجزها . وعنه

ـ صلى الله عليه وسلم ـ الرحم متعلقة بالعرش وليس الواصل المكافىء ولكن الذى إذا انقطعت رحمه وصلها . وعن الحسن وابن عباس وعكرمة المراد مواساة الرحم بالمال والإعانة عند احتياجها،وذلك توصية من الله جل جلاله بالقرابة بعد التوصية بالوالدين ، وعن أبى حنيفة : المراد حق الوالدين والولد ونحوهم من المحارم إذا عجزوا عن الكسب وكانوا فقراء وأنت موسر ، أنفقت عليهم ، وكان الشافعى لا يرى النفقة إلا على الولد والوالدين ، وقيل المراد قرابة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أمرنا بإعطاء حقهم من الغنيمة ، والجمهور على الأول . ﴿ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ﴾حقهما نصيبهما من الزكاة ويتبادر من ذكرهما أن حق ذى القربى مواساتهم بالمال فيتفق أن الحق فى جانب كل ما ذكر هو المال لظهور أنه المال فى جانب المسكين وابن السبيل ، وفى الكلام حذف المفعول الثاني أى والمسكين وابن السبيل حقهما أو وابن السبيل حقه والمسكين حقه ؛والأول أولى لأنه ينبغى تقابل المحذوف ما أمكن وذلك من العطف على معمولى عامل واحد . ﴿ وَلَاتُبَذِّرْ تَبْذِيراً ﴾ لا تسرف إسرافاً ، وأصل التبذير التفريق ، والمراد إنفاق المال فيما لا ينبغى،وإنفاقه فيما لا ينبغى كالإنفاق رياء أو سمعة ، والإنفاق فى المزامير والنياحة والكهانة ونحو ذلك من المعاصى ، وكتضييع

المال أو كالمبالغة فى المأكول والمشروب والملبوس والمركوب والمسكن وكإعطاء الزكاة لغير أهلها . وقال ابن مسعود لسائله عن التبذير : إنه إنفاق المال فى غير حقه . قال عبد الله بن عمر : مر رسول الله -صلى الله عليه وسلم - بسعد وهو يتوضأ . فقال : ماهذا السرف ياسعد ؟ فقال : أفى الوضوء سرف . قال : نعم . وإن كنت على نهر جار . وفى رواية شط نهر جار . قال مجاهد وغيره : لو أنفق الإنسان ماله كله فى الحق لم يكن مبذراً ، ولو أنفق درهماً أو مدا فى باطل كان مبذراً . روى أن بعضاً أنفق نفقة فى خير فأكثر فقال له صاحبه : لا خير فى السرف . فقال : لا سرف فى الخير وإنما يصرف الإنسان ماله فى واجب أو مندوب متقرباً به إلى الله سبحانه وتعالى أو فى مباح لا يصرفه بنيته أو كلامه إلى معصية بل ينبغى صرف المباح إلى الطاعة بالنية . وعن الحسن ، قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ما أنفقتم فى سبيل الله فلكم وما أنفقتم على عيالكم فلكم ، وما تركتم فللوارث . وعن على ما أنفقت على نفسك فهو لك ، وما أنفقت على عيالك فلك ، وما أنفقت رياء وسمعة فهو للشيطان . ﴿ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ ﴾ أى أمثال الشياطين فى الشرارة والإفساد فإن إتلاف المال فيما لا ينفع وفيما يضر شر وإفساد وذلك غاية فى الذم

لأنه لاشر من الشيطان.والعرب تقول لكلمن لازم سنة قوم إنه أخوهم أى نظيرهم وشبيههم كأنه جمعهُ وإياهم أب واحد وأُم واحدة ، ويجوز أن يكون أخوان بمعنى أصحاب وأصدقاء أى كانوا أصحاب الشياطين وأصدقاءهم لأنهم يطيعونهم فى الأمر بالتبذير ، وكان المشركون ينحرون الإبل ويصنعون بها الميسر ويبذرون الأموال فخراً وسمعة وتذكر ذلك فى أشعارها فنهاهم الله عز وجل عن ذلك ، ويجوز أن يكون معنى إخوان الشياطين أنهم قرناؤهم فى النار وذلك وعيد ، وقرأ الحسن إخوان الشيطان. ﴿ وَكَانَ الشَّيْطَانُ ﴾جنس الشياطين . ﴿ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴾ شديد الكفر لنعم الله والجحود فكذلك أخوه المبذر ولا ينبغى أن يطاع فى أمره لأنه لا يأمر إلا بمثل فعله .

﴿ وَإِمَّا ﴾إن الشرطية وما زائدة. ﴿ تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ﴾أى عن ذى القربى والمسكين وابن السبيل كناية بإعراضك عنهم عن الرد لاستحيائك من التصريح بالرد إذا لم تجد ما تعطيهم أو الإعراض فى الآية كناية عن عدم الإعطاء . ﴿ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا ﴾ أى انتظار رزق من ربك ترجوه أن يأتيك فتعطيهم ، وابتغاء مفعول لأجله أى أعرضت عنهم للانتظار حتى يفتح لك لتعطيهم لا لشح أو بغض أو لم تعطهم

لعدم الاستطاعة أو حال بمعنى مبتغياً أو ذا ابتغاء أى منتظراً أو ذا انتظار وقيل ابتغاء بمعنى الفقد ووجهه أن الفقد سبب للابتغاء الذى هو الانتظار والطلب والابتغاء مسبب عن الفقد ، فعبر بلفظ المسبب عن السبب أى لفقد رزق من ربك ترجوه أن يفتح لك ولا يجوز أن يكون مفعولا لأجله لقل أو حالا من الضمير فى قل لأن ما بعد فاء الجواب لا يعمل فيما قبلها إلا فى اسم الشرط نفسه وإلا إذا كانت الأداة إما خلافاً للزمخشرى والقاضى إذا جاز أن يكون معمولا لقل . ﴿ فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴾ ملينا مجعولا فيه سهولة فهو اسم مفعول من يسر بالتخفيف على أنه يستعمل متعدياً كما يستعمل لازما أو الأصل ميسوراً فيه أو به على الحذف والإيصال على أنه من يسر المخفف اللازم وقيل هو مصدر جاء على وزن اسم مفعول فيقدر مضاف أى قولا ذا يسير وعلى الأوجه كلها فالمراد القول الذى فيه دعاء بالخير وترجية لهم بالإعطاء عند مجىء الرزق وعد يطيب قلوبهم مثل أن يقول: رزقنا الله وإياكم من فضله . وروى أنه كان يقول بعد نزول هذه الآية يرزقنا الله وإياكم من فضله .وبهذا فسر ابن عباس القول الميسور ، وفسر الرحمة بالرزق ، وقال الحسن : كان السائل يسأل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيقول والله ما أصبح فى بيوت آل محمد صاع

من طعام وهى يومئذ تسعة أبيات ولم يكن شكوى ولكن اعتذار ، وذكر الحسن عن عائشة رضى الله عنها قالت : لا تقول للسائل بارك الله فيك فإنه قد يسأل البار والفاجر ، ولكن قولوا : يرزقنا الله وإياك وفيه دليل لمن منع من أصحابنا أن يقول لغير المتولى بارك الله فيك ولكن لا بأس به إذا أريدت بركة الدنيا التى لا يضر بها الإسلام أو أهله ، وذكر الحسن أن سائلا قال : يارسول الله بت البارحة بلا عشاء وما أحسبنا الليلة نجده . فقال : يرزقنا الله وإياك من فضله اجلس ، فجلس ثم قام آخر فقال مثل ذلك ، فرد عليه رسول الله مثل ذلك فأتى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأربع أواق من ذهب فقال : أين السائلان ؟ فقام الرجلان فأعطى كل منهما أوقية ولم يسأله أحد فرجع بأوقيتين فجعلهما تحت فراشه فسهر ، فقالت عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها ما أسهرك يارسول الله ، أوجع أو أمر نزل بك . فقال : ياعائشة أتيت بأربع أواق فأمضيت اثنتين وبقيت اثنتان فخشيت أن يحدث بى حدث ولم أمضهما .

﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً ﴾مربوطة بالقيد .﴿ إِلَىٰ عُنُقِكَ ﴾ لا تمسك عن الإنفاق فى الخير والمباح كل الإمساك كالذى ربطت يده إلى عنقه

لا يطيق أن يمدها بالإعطاء فهذا تمثيل لمنع الشحيح . ﴿ وَلَاتَبْسُطْهَا ﴾ فى الإنفاق . ﴿ كُلَّ الْبَسْطِ ﴾ فتعطى جميع ما عندك كالذى لا تنقبض كفه على شىء ولا يطيق قبضها فكان لا يحفظ بها شيئاً وهذا تمثيل لإسراف المبذر فإن المبالغة فى الإعطاء هكذا إسراف ولو فى الخير ، وتانك قضيتان سالبتا عموم فأفادتا أنه مأمور بأن يمسك عن الإنفاق بعض الإمساك ، ويبسط به بعض البسط فذلك هو التوسط المسمى بالكرم لا شح ولا تبذير . قال جابر بن عبد الله أتى صبى فقال : يارسول الله إن أمى تستكسيك درعاً أى قميصاً ولم يكن لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلا قميصه . فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ عد إلينا بعد ساعة ، والمروى من ساعة إلى ساعة يظهر فعد إلينا ، أى أخر سؤالك من ساعة ليس لنا فيها درع إلى ساعة يظهر لنا فيها درع فعاد إلى أمه . فقالت له : قل لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إن أمى تستكسيك الدرع الذى عليك ، فدخل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ داره ونزع قميصه وأعطاه وقعد عريان ، وأذن بلال للصلاة وانتظروه فلم يخرج فاشتغل قلوب أصحابه فدخل عليه بعضهم فوجدوه عريان ولم يز

عورته . فنزل قوله سبحانه وتعالى : « ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولاتبسطها كل البسط ». ﴿ فَتَقْعُدَ ﴾تصير أو تلبس مثل مامر ﴿ مَلُومًا ﴾ عند الله تبارك وتعالى لأنه لا يحب الشح ولا الإسراف وعند الناس فإن المحتاج منهم يقول : أعطى فلاناً وحرمنى ، والغنى يقول : ما يحسن تدبير المعيشة إذا أعطى حتى لم يبق شيئاً لنفسه وعند نفسك إذا احتجت فلم تجد كفافاً فتندم ، وقيل أعطى الأقرع ابن حابس وعيينة بن حصن مائة مائة فجاء العباس بن مرداس وقال :

أتجعل نهبى ونهب العبيد بين عيينة والأقرع
وما كان حصن ولا حابس يفوقان شيخى فى مجمع
وما كنت دون امرىء منهما ومن تضع اليوم لا يرفع

فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأبى بكر اعطه مائة من الإبل . فنزلت الآية ، والعبيد فهو الشاعر وشيخه أبوه مرداس كما صرح به فى رواية هكذا يفوقان مرداس فى مجمع وكان قد أعطاه قبلهما خمسين فمعنى اعطه مائة أتم له مائة ، وذكر هذه القصة الشيخ خالد

فى التصريح ،وذكرت فى غيره من كتب النحو والفقه والحديث .

وملوماً اسم مفعول أصله ملؤوم بواوين كمنصور ثقلت ضمة الواو

فنقلت اللام فحذفت إحدى الواوين على الخلاف . ﴿ مَّحْسُورًا ﴾

مقطوعاً بك لا شىء عندك ، وإن شئت فقل : منقطعا بك بفتح الطاء

يقال انقطع بالمسافر بالبناء للمفعول إذا عطبت دابته أو نفد زاده ،

يقال حسره السفر ، إذا بلغ منه الجهد وحسره بالمسألة إذا لم يُبْقِ

عنده شيئاً ، وحسر الشىء صير كالاً ومنه البصير الحسير وحسرت

البعير وغيره استفرغت قوته ، وقيل محسوراً مصيراً نادماً ، وذكر

بعضهم أن ملوماً راجع إلى قوله عز وجل : ولا تجعل يدك مغلولة

إلى عنقك . ومحسوراً راجع إلى قوله عز وجل : ولا تبسطها كل

البسط . وذكر ابن العربى أن الخطاب فى الآية للنبى – صلى الله عليه

وسلم–والمراد أمته ماكان سيد وواسطتهم إلى ربهم عبر به عنهم على

عادة العرب فى ذلك ، والآية فى الخير وإلا فمع أقل قليل من الواجب

شح ،وإنفاق أقل قليل فى المعصية إسراف ، وقيل المراد فى الآية بغل

اليد عدم الإنفاق فى الطاعة وبسطها كل البسط ، الإنفاق فى المعصية

فتكون القضية الثانية من عموم السلب لأن الإنفاق فى المعصية إسراف ولو قل والمشهور الأول ولما كن ذلك النهى قد يضيق به النبى - صلى الله عليه وسلم- ذرعاً سلاه الله الرحمن الرحيم بأن ذلك ليس لهوانك على ربك ولا لبخل منه عليك سبحانه ،ولكن لحكمته البالغة فى بسط الرزق لمن يشاء وتضييقه عمن يشاء وعن المبسوط له تارة أخرى والمصلحة لك ولهم فقال :

﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴾ أى يوسعه من أول مرة أو بعد تضييق ويقدره يضيقه على من يشاء من أول أوبعد بسطبحسب المصلحة والحكمة ولو خفيتا عنهم فإنه العالم بهما كما قال : ﴿ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا ﴾ عالماً ببواطنهم المعلومة لهم والمغيبة عنهم﴿ بَصِيرًا ﴾ بظواهرهم ومن ذلك أن العرب إذ شبعت طغت ، فإنما يصلحها الفقر إلا من شاء الله منهم، فإنه لايطغى وهم مع ذلك ذوو خصال حسان لا توجد فى العجم وكذا العجم قد يطغون بالشبع ويجوز أن يكون قوله : إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر...إلخ ،بمعنى أن القبض والبسط من أمر الله العالم بالباطن والظاهر ، وأما العباد فعليهم أن يتوسطوا

أو بمعنى أنه تعالى يبسط تارة ويقبض تارة لحكمة يستأثر بها إذ هو الخبير البصير فاستنوا بسنته فلا تقبضوا كل القبض وهو القبض المتتابع ولا تبسطوا كل البسط وهو البسط المتتابع أو بمعنى أنه تعالى يبسط ولا يبلغ بالمبسوط له غاية مراده ويقبض ولا يبلغ المقبوض عليه أقصى مكروهه فهكذا فافعلوا أنتم ويجوز أن يكون غير متصل بما قبله بل مستأنفاً تمهيداً لقوله سبحانه :

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ ﴾أراد البنات لأنه كانت قبائل من العرب تقتل بناتها فى الجاهلية لخوف الفقر كما قال . ﴿ خَشْيَةَ ﴾أى خوف ﴿ إِمْلَاقٍ ﴾ أى فقر يخافون أن يفتقروا بمشاركتهن لهم فى المأكول والمشروب والملبوس ، وبما يحتجن إليه ، وكانوا أيضاً يعدون تزويجهن بغير الأكفاء عاراً عظيماً فيقتلونهن لئلا يقعوا فى ذلك ، وربما زوجوهن بغير الأكفاء لشدة الحاجة ،وربما قتلوهن لعدم جمالهن أو لخوف الغارة والنهب فيكون قد مهد أولا للنهى عن قتلهم إياهن لخشية الفقر أنه يبسط ويقدر للمصلحة والحكمة لذى البنات وغيره،وأخبرهم بضمان

الرزق ثانياً فقال : ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ ﴾ أى الأَولاد الذين هم البنات وذكر الضمير باعتبار لفظ أولاد أو باعتبار الأَشخاص ويجوز رجوع الضمير للأَولاد كلهم ذكور وإناث . ﴿ وَإِيَّاكُمْ ﴾ عطف على الهاء ﴿ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئاً ﴾ بكسر الخاء وإسكان الطاء أى إثماً ، يقال : خطئ خطأً كأثم إثماً ، وزنا ومعنى بكسر عين الفعل وفاء المصدر ، وقرأ ابن عامر فى رواية ابن ذكوان بفتح الخاء والطاء وهو اسم مصدر أخطاء وهو ضد الصواب، وقيل لغة فى الخطئ بكسر فإسكان كمثل ومِثْل ، وحذر وحِذْر ، فهو بمعنى الإثم ، وقرأ ابن كثير خطاء بكسر الخاء وفتح الطاء بعدها ألف وبعد الأَلف همزة، وهو إما مصدر خاطأ بوزن قاتل بفتح التاء لأَنه وإن لم يسمع تخاطأ والتفاعل وماتصرف منه إذا سمع من كلمة جاز حمل الكلام على الفعال منها أو ما تصرف منه واستعمال الفعال منها أو ما تصرف منه ولو لم يسمع منها لأَن معنى الفعال والتفاعل واحد أومتقارب كضاربوا وتضاربوا وقد يكون التفاعل مطاوع الفعال، ومن روى التفاعل من الخطىء قوله :

تخاطئه القناص حتى وجدته وخرطومه فى منقع الماء راسب

وقرأ الحسن خطا بفتح الخاء والطاء وإسقاط الهمزة وقرأ أبى خطا بكسر الخاء وفتح الطاء وإسقاط الهمزة وقرأ خطابفتح الخاء والطاءبعدها ألف وبعد الألف همزة ، والجملة مستأنفة أو تعليل المنهى لأن قتلهم كان خطئا . ﴿ كَبِيرًا ﴾عظيماً إذ فيه قطع التناسل وانقطاع نوع الإنسان والظلم للمقتولة وأقاربها الذين يكرهون قتلها كأمها . قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من كان له ابنة فلم يئدها ولم يهنها ولم يؤثر ولده أى ابنه عليها ادخله الله الجنة ، رواه أبو داود عن ابن عباس .

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى ﴾النهى عن القرب من فعل الشىء أبلغ من النهى عن فعله ولذلك لم يقل لا تزنوا بل قال : لا تقربوه ليشتمل القرب إليه بتمنيه والرضى به والعزم عليه واستحضاره بتشبه ونظر الشهوة ومسها واستمتاعها ومشيها ونحو ذلك كالكلام بها من مقدمات الزنى،فإذا كان النهى عن مقدماته كان النهى عنه بالأولى . ﴿ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً ﴾ خصلة أو فعلة زائدة القبح وظاهرته . ﴿ وَسَاءَ ﴾ أى بئس هو أى الزنى . ﴿ سَبِيلًا ﴾ فلايقدر مخصوص بالذم وإن رجعت الضمير فى ساء إلى مبهم مفسر بالتمييز وهو سبيلا قدر المخصوص أى ساء

سبيلا سبيل الزنى ، أو ساء سبيلا هو أى الزنى،ووجه كونه فاحشة وكونه مبالغا فى السوء أن طريقه غصب فرج امرأة أو غيرها، ولايخرجه رضاها أو رضى غيرها عن الغصب،لأن حرمة الزنى حق لله فإن كانت امرأة ولم ترض كان أيضاً غصباً عن مخلوق كما فى حق الله وإن كانت ذات زوج كان غصب ثالث أيضاً إن لم يرض ورضاه لا يبيح الزنى وكذا أمة إن لم ترض ولا مالكها فثلاث غصبات ، وإن كانت ذات زوج ولم يرض فأربع ، وإن كان طفلا أو طفلة ولم يرض فغصبان بل ثلاث غصب عنه وعن قائمه إن لم يرض وغصب فى حق الله، وكذا فى الدابة إن تضررت بالزنى ولم يرض مولاها وكذا العبد فإن تزوج فحق رابع وهو حق زوجته،مع ما فى الزنى فى ذلك كله من إيجاب الحد على نفسه وعلى المزنى به البالغ غير المكره وخلط الأنساب،فلا يعرف الإنسان ولد من هو ولا يقوم أب بتربيته وذلك يوجب خراب العالم،عافانا الله وحفظنا ، وإن كان على فراش زوج فإن الولد له بحكم الشرع وبحقوقه يؤخذ فيكون الزانى ظالماً له فى التعدى على فراشه وفى الحقوق التى يؤخذ بها على الولد،مع أن سبب حل الجماع

ممكن وهو العقد بولى مثلا وشهود ورضى الأنثى إن كانت خالية عن زوج ومانع نسب أو رضاع أو حرمة أو نحو ذلك .

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللهُ ﴾ وهى المقرة بالله ورسوله والذمية والمعاهدة ﴿ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ كفر بعد إيمان أو زنى بعد إحصان ، وقتل حر موحد عمداً غير قاتل لمن يقتل به . روى البخارى ومسلم عنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا يحل دم امرىء مسلم إلا بإحدى ثلاث : رجل كفر بعد إيمان ، ورجل زنى بعد إحصان ، وقاتل نفس محرمة عمداً ، ورويا من طريق ابن مسعود عنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ لايحل دم امرىء مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله إلا بإحدى ثلاث : الثيب الزانى ، والنفس بالنفس ، والتارك لدينه المفارق للجماعة ،وذلك مجمع عليه واختلف فى اللائط والساحر وتارك الصلاة والصحيح قتلهم ، وقيل المراد بالحق فى الآية ، القود يقتل نفساً محرمة فيقتل بها والواضح عموم الحق فى كل ما يحل به الدم حتى الثلاث المختلف فيها لورود السنة بها ،وهى وتفسير القرآن ويحل الدم بالسعى فى الأرض فساداً وقيل إن قتل الساعى نفساً وعلى

هذا يدخل فى النفس بالنفس وذكروا فى كتب الفقه وجوهاً كثيرة يحل بها الدم تدخل فيم ذكرناه كالدلالة على عورات المسلمين فإنها من جملة السعى فساداً أو كالطعن فى الدين فإنه ملحق بالارتداد. ﴿ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا ﴾غير مستوجب للقتل .﴿ فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ ﴾ الذى يلى أمره بعد موته وهو الوارث . ﴿ سُلْطَاناً ﴾مصدرسلط بتخفيف اللام أو اسم مصدر تسلط أو سلطه بتشديدها أى جعلنا له تسلطاً وقوة على القاتل فإن شاء قتله فلا مانع له ، وإن شاء أخذ الدية ،أخذها بلا مانع وإن عفى عن كل ذلك فحسن جميل ويجوز أن يكون سلطان بمعنى الحجة على القاتل بقتله بوليه . قال البخارى قال ابن عباس : كل سلطان فى القرآن فهو حجة . وقال قتادة السلطان هنا القود ، وروى عن ابن عباس السلطان التخيير بين القتل وأخذ الدية والعفو وخصت السنة أن الحر لا يقتل بالعبد وأن الموحد لا يقتل بالمشرك ، واختلف فى المرأة أن يقتل بها الرجل ويعطى أولياءه نصف الدية قبل أن يقتل أو بعد أو لوليها ديتها أو يقتل بها بلا رد نصف الدية ، والصحيح القتل مع الرد ولا مدخل للمرأة فى القتل إذا قتل وليها بل لها الدية ،

وقيل لها القتل وخرج قتل الخطأ بقوله مظلوماً فإن المقتول خطأً ليس مظلوما ، وقاتله ليس ظالما وتجب الدية على عاقلته . واختلف فى الدية العمدية هل يأخذ فيها الورثة مطلقاً أو لا يأخذها إلا من له القتل وعليه فلا تأخذ الأم والزوجة والأخت للأم ؛ قولان ذكرتهما فى شرح النيل بأدلتهما . ﴿ فَلَا يُسْرِف ﴾ أى الولى . ﴿ فِّى الْقَتْلِ ﴾ بقتل غير القاتل ولا بقتل القاتل وغيره ولا بالمثلة مع القتل كقطع الذكر أو فقأ العين وصلم الأذن ونحو ذلك، إلا إن فعل المقتول ذلك ولا بالتعذيب بالقتل فإن إحسان القتلة واجب على من أراد القتل،إلا إن قتل المقتول بمعذب ونحو ذلك والعموم المذكور أولى مما قيل. عن ابن عباس : أن الإسراف فى القتل قتل غير القاتل وكانوا فى الجاهلية إذا قتل منهم قتيل لا يرضون بقتل قاتله حتى يقتل أشرف منه وكانوا يقتلون غير القاتل إذا لم يكن كفؤاً للمقتول وأولى من قول بعض أن الإسراف فى القتل قتل أكثر من واحد ، وكانوا فى الجاهلية إذا قتل منهم شريف لم يرضوا بقتل قاتله حتى يقتلوا معه جماعة من أقاربه أو من عشيرته أو حيه وقد يفعلون ذلك ولو كان المقتول

غير شريف وأولى من قول بعض إن الإسراف فى القتل المثلة وإذا فعلوا شيئاً من ذلك فقد فعلوا أمراً عظيماً لا تقوم له السماوات والأرض وفعلوا ما يعود عليهم بالهلاك لإثارة الفتنة وللظلم وإن لم يكن للمقتول ولى فليقتل القاتل إمام العدل ، وإن لم يكن فالإمام الجائر وإن لم يكن ممن يلى أمر الجماعة ويطيق وإن لم يكن فالجماعة ، وقيل إن لم يكن إمام العدل كف عن قتله وللولى أن يستعين بغيره على قتل قاتل وليه وتوكيله وأمره بالقتل،وقيل معنى لا يسرف فى القتل لا يبتدىءالقتل فيقتل من لا يحق قتله فيعود عليه بالهلاك دنيا وأخرى واختاره القاضى مؤيداً له بقراءة أبى فلا تسرفوا بالخطاب واو الجماعة رد للكلام إلى قوله جل وعلا: ولا تقتلوا النفس التى حرم الله ، وقرأ حمزة والكسائى : فلا تسرف بالخطاب وإسكان الفاء على خطاب ولى المقتول أو خطاب مريد القتل ظلماً. وقرأ أبو مسلم صاحب الدولة فلا يسرف بالغيبة وضم الفاء وعدم الواو وهو نفى فى معنى النهى،وفيه مبالغة ليست فى الأمر ، وقال مجاهد فى قراءة يسرف بالغيبة مطلقاً أن الضمير للقاتل الأول . ﴿ إِنَّهُ ﴾ أى الولى . ﴿ كَانَ مَنصُورًا ﴾حيث أثبت الله

سبحانه وتعالى له القصاص أو الدية وأمر الولاة بمعونته على ما أراد منهما وحيث يظهره الله على استيفاء حقه أو الضمير للمقتول ظلماً فإن الله جل جلاله نصره فى الدنيا بثبوت القصاص أو الدية لوليه وفى الآخرة بالثواب وتكفير الخطايا وإيجاب النار لقاتله أو الضمير للذى قتله الولى وأسرف فى قتله بمثله أو تعذيب فإنه منصور بأن له الثواب فى الآخرة على ما زيد عليه إن مات تائباً وأن له تكفير السيئات على ما زيد عليه وبأن لوليه القصاص بالزيادة أو أخذالإرش وأن للمسرف وزراً .

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ ﴾نهى عن قربه بغير التى هى أحسن فكيف الدخول فيه بغيرها والكلام هنا مثله فى لا تقربوا الزنى . ﴿ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾أى إلا بالفعلة أو الخصلة أو الطريقة التى هى أحسن وهى حفظ مال اليتيم وتنميته وتكثيره بما لا خطر فيه ،وقد اختلف فى جواز التجربة لليتيم كإعطائه دينا وسلماً وقراضاً والمبايعة به نقداً أو عاجلا ، فقيل يجوز ذلك كله بالنظر للمصلحة ولا يعطيه لفقير أو مفلس أو خائن أو حيث يخاف عليه السلب والسرقة ،وقيل

لا يجوز ذلك بل يحفظ فقط . وقيل يجوز نقداً أو عاجلا لا دينا أو قراضاً وسلما.وعلى الجواز فيجب أن يستوثق له بالشهادة والصحيحة وإن رهن له فأحسن ليرجع إلى الرهن فيبيعه وإذا وجد ما هو حسن وما هو أحسن فليقصد الأحسن،فإن أحسن فى الآية اسم تفضيل باق على معناه وما هو أحسن عندى أن تخرج زكاته وتعطى الفقراء لأن إخراجها أداء لما وجب فى المال وتصفية للمال وتنميته له وحرز وحفظ،ويحتمل أن يكون أحسن بمعنى حسن محترز به عما هو سىء كتضييعه وأكله والتقصير فيه،ومن عنده مال يتيم فإن كان غنياً فقد أمر أمر ندب أن يعف عنه ، وإن كان فقيراً فله الأخذ منه بقدر ما يتعيش عليه مثل أن يشرب من لبن غنم يرعاها ويحفظها، وله القرض أيما فعل فلا يفعل الآخر إلا إن أتى عليهما عناء ، ولمن عنده مال يتيم أن يستنفع به للمال كركوب دابة اليتيم ليرد بها ما شرد من ماله أو أبق أو ضاع،وركوبها إلى جنان اليتيم ليصلحه وإن أخذ الغنى بقدر عناء لم يلزمه الرد فيما ظهر ولكن يكره له ذلك ، والقرينة على أن الأمر للأدب أن ذلك الذى عنده مال اليتيم حر ليس عبداً لليتيم

وإن تخالطوهم فإخوانكم فى الدين . قيل لما نزلت آية هذه السورة جانبوا مخالطتهم ولما نزلت آية المخالطة أبيح لهم أن يخالطوهم بمعروف. والله يعلم المفسد من المصلح فى مال اليتيم.فالخلطة مستثناة من هذه الآية ، وقيل آية الخلطة ناسخة لهذه الآية وليس بسديد لأن ذلك تخصيص لا نسخ . ﴿ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ﴾قوة عقله وشدته بأن يقوم بمصالح ماله ولا يتلفه فإذا بلغ ذلك،يتصرف فيه ولا يقرب إلى التصرف فيه إلا بإذنه ، وإن بلغ حد التكليف ولم يبلغ الأشد فكأنه طفل . ﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ ﴾الذى بينكم وبين الله سبحانه وتعالى من ترك المعاصى وأداء الفرائض والسنن وما وعدتم به من نفل كصيام نفل وصلاة نفل ونحو ذلك ، والذى بينكم وبين الخلق مما وعدتم فى دلائل غير مكروه وكان فيه نفع لغيركم﴿ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً ﴾ عنه حذفت عن وانتصب محل الهاء فكان عوضها ضمير مستتر نائب الفاعل فذلك من باب الحذف والإيصال يسأل الناكث للعهد يوم القيامة لم ينكثه ويعاتب ويحتمل أن لا يكون هناك حذف وإيصال بل العهد نفسه عينه يكون مسئولا لم نكثك عاهدُك وهلا وفىَّ بك

وذلك توبيخ وتبكيت كما تسأل الطفلة المدفونة بأى ذنب قتلت ، توبيخاً وتبكيتاً على دافنها .وهذا أبلغ فى شأن نكث العهد بأن يشبه العهد المنكوث بإنسان مظلوم تشبيها بليغاً بحذف الأداة وتصييره من جنس المظلوم مضمراً غير مذكور ، وذلك التشبيه استعارة تخييلية أوالاستعارة المكنية ،هى لفظ العهد المراد به إنسان مظلوم على طريق العرب فى الادعاء المكنى به عن الإنسان المذكور أو الاستعارة المكنية هى لفظ الإنسان خلاف فى مثله وأثبت للمشبه وهو العهد ما يلائم المشبه به وهو الإنسان،وملائمه هو السؤال فى شأنه تعريضاً،ويجوز تقدير مضاف أولا أى أن صاحب العهد كان مسئولا ، أوآخر أى أن العهد كان مسئولا صاحبه أو وسطًا،أى كان صاحبه مسئولا ويجوز أن يكون مسئولا بمعنى مطلوب من العهد يقال له أوف به ، ويقال له لا تنكثه .

﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ ﴾ أتموه لاتنقصوه . ﴿ إِذَا كِلْتُمْ ﴾ من أموالكم لغيركم . ﴿ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ ﴾بضم القاف وقراءة حمزة والكسائى وحفص بكسره هنا وفى الشعراء وهو لفظ رومى وقيل فارسى استعملته

العرب وأجرته فى كلامهم معرباً منكراً أو معرفاً مفرداً أو مثنى أو مجموعاً جمع تكسير فكان عربياً ومعناه الميزان صغيراً أو كبيراً من موازين الدنانير أو الدراهم أو غيرها ، وقيل هو القبان ، وقيل القرسطون ، وقيل هو عربى بوزن فعلال بضم الفاء وكسرها للمبالغة فى القسط بمعنى العدل وهو الصحيح . ﴿ الْمُسْتَقِيمِ ﴾ المعتدل السوى والتفاوت الحاصل بنقص الكيل والوزن قليل والوعيد عليه شديد ؛ لأن جميع الناس محتاجون إلى المعاوضة والبيع والشراء فبالغ الله سبحانه وتعالى فى منع التطفيف إبقاء للمال على أربابه . قال عياض سمعت أبى يقول : أرأيت الواعظ بالفضل الجوهرى فى جامع عمرو بن العاص يعظ الناس فى الوزن فقال : إن فى هيئة اليد بالميزان عظة وذلك أن الأصابع فى حال الوزن يحيى منها صورة مكتوبة ألف ولا مان وهاء وكل الميزان يقول : الله ، وذلك أن الإصبع الصغرى كألف والتى تليها والوسطى لامان والباقيتان إذا حلقتا على الميزان ، وإن ضم أعلاهما على ما قبضتا عليه صارتا هاء ﴿ ذَلِكَ ﴾ المذكور من إيفاء الكيل والوزن بالقسطاس المستقيم والإيفاء بالعهد أو المذكور من إيفاء الكيل

والوزن . ﴿ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ ﴾من غيره وذلك أن إخلاف العهد ونقص الكيل والوزن تختاره النفس وتستحسنه كسائر حظوظها العاجلة والإيفاء بذلك من خير إخلاف الوعد ونقص الكيل والوزن وأحسن منهما لأن الإيفاء سبب للبركة فى الدنيا وثواب الآخرة ﴿ تَأْوِيلًا ﴾ أى عاقبة يرجع إليها أمره وهو بوزن تفعيل من آل يئول بمعنى رجع بوزن قال يقول .

﴿ وَلَا تَقْفُ ﴾ لاتتبع من قفاه يقفوه بمعنى اتبعه وقرىء بضم القاف وإسكان الفاء من قاف يقوف كقال يقول ، أى اتبعه وهما لغتان بمعنى كعتا وعات ومنه القافة جمع قايف،وهو متبع الأثر العالم بمؤثره أصله قوفة بفتح الواو قلبت الفاء لتحركها بعد فتحة،حكى ابن جرير الطبرى أن ذلك لغة فرقة . ﴿ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ أى لاتتبع فى قول أو فعل ما ليس لك به اعتقاد جازم،فالآية نهى عن التقليد لمن له قوة على معرفة الحق بأدلته وعن زجم الغيب ومن لم تكن له قوة جاز له تقليد العالم الأمين فذلك منه علم ، وعن الظن إلا المجتهد فإن حكمه بعد استفراغ الوسع بشىء،ظن معدود من أنواع العلم لأنه

لا يقبل التشكيك وقد نص الشرع الضم مقام العلم وأمرنا بالعمل به فى الغالب فإذا كان ظن المجتهد نوعاً من العلم لم يكن فى الآية دليل على إبطال الاجتهاد خلافاً لمن زعم ذلك فالعلم الاعتقاد الراجح المستفاد من دليل قطعياً كان أو ظنياً واستعماله فى هذا المعنى شائع كما شاع استعماله فى الاعتقاد الجازم المقابل للاعتقاد الراجح المسمى ظناً ، والآية أيضاً نهى عن ولاية من لا يعرف له موجب ولاية وبراءة من لايعرف له موجب براءة ، وعن ولاية الشرط وبراءة الشرط بل إن ظهر لك موجب ولاية فواله ولا تدخل فى براءته التى لا علم لك بموجبها وشرطك كونه عند الله أو فيما خف من أمره مستوجباً لها لا يخرجك عن كونك داخلا فيما لا علم لك به ولا تشترط فى ولايته كونه مستوجبا لها عند الله أو فيما خفى من أمره فإن ذلك استفتاح لباب مبهم ودخول فيه وإن ظهر لك موجب براءة فتبرأ منه ولا تدخل فى ولايته التى لا علم لك بموجبها بشرط كونه أهلا لها عند الله تعالى ، أو فيما خفى من أمره ولا تشترط فى براءته كونه أهلا لها على حد ما ذكر ، وذلك أنا كلفنا بما ظهر لنا ونهى الجاهل أن يقلد عالماً فى فعل

أو قول بأن رآه يفعل شيئاً فيفعله أو رآه يقول شيئاً فيقول وإنما
يقلده إذا قال يجوز له أو لغيره فعل كذا ، أو قوله أو أفعل أو قل
وكثيراً ما يطمئن القلب إلى فعل عالم أو قوله الذى لم يؤمر به فيقتدى
وهذا فى أهل عمان وغيرهم شائع يستدلون بذلك استدلالا كما تراه
مسطراً ولا يكون حجة عندى ولا يجوز عندى ذلك الاقتداء إلا إن
ظهر إنما يفعل أو يذكر جائز كبعض الأدعية إذا سمعه يذكرها وذلك
لإمكان أن يفعله المقتدى من غير مدخل المقتدى به فلو رأى جاهل
عالماً توضأ ثم مشى على نجس ثم فعل هو ذلك لكان خطأ لإمكان
أن العالم تعمد أن يعيد الوضوء بعد ولإمكان أنه ما مشى عليه إلا بعد
ما تيبس ما يلى الأرض من قدمه فلو رآه كبر للإحرام وكبر تكبيرة
أخرى أو أكثر ففعل ذلك لكان خطأ لأن العالم إذا فعل ذلك فى
غير صلاة العيد مثل إنما فعله لشك فى شىء من نفس تكبيره الأول
أو تيقنه الخلل فى شىء مما قبل التكبير فتكبيره الأول وما بعده ملغى
عنده وإنما اعتد بالأخير ، والجاهل إن فعل ذلك مقتدى به إنما ينوى
الأول إحراماً ، وما بعده زوائد جائزة عنده فى زعمه ، وهكذا ما أشبه

ذلك ، ونهى عن التجسس والبحث عن العورات إلا إذا رجعت أمارة فيجوز أن تتبعها بالتفحص عن مقتضاها حتى يصح أو تضمحل ، ونهى عن كتابة ما لا يعلم معناه إذا خيف أن يكون كفراً أو سحراً وكتابة حروف لا يدرى ما هى كذلك إلا إن كان ذلك عن ثقة ، وقد قيل إذا كانت تلك الطلاسم مختومة بالشين جاز كتابتها ولو لم يدر ما هى ، ذكره الشيخ الحاج إبراهيم بن نجمان ونهى عن تتبع ما لا علم لك به دينياً أو دنيويا ، وقيل الآية مخصوصة بالعقائد ، وقيل بالرمى والزور ، فإن قفا وقاف يستعملان فى القذف. قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – نحن بنو النظر لا نقفو أمنا ولا نقتف من أبينا ، وقال صلى الله عليه وسلم – من قاف مؤمنا بما ليس فيه حبسه الله فى ردعة الخبال حتى يأتى بالمخرج. ورواه ابن جرير الطبرى بمعناه ، وردعة الخبال بإسكان الدال وفتحها ما يسيل من جلود أهل النار ولحومهم من صديد وقيح ودم وعرق . وقال الكميت :

ولا أرمى البرئ بغير ذنب ولا قفو الحواصن إن قفينا

أى لا أرمى النساء العفائف إذ رمين ببناء قفين للمفعول .

وقال شاعر :

ومثل الدماشم العرانين ساكن بهن الخباء لا يشعن التقافيا

أى التقاذف وفسر ابن الحنيفية الآية بشهادة الزور ، وعن الحسن لا تقف أخاك إذا مر بك فتقول هذا يفعل كذا ورأيته يفعل كذا وسمعته ، ولم تره ولم تسمعه . ﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ ﴾ السمع والبصر بمعنى الاستماع والرؤية بلا تقدير ولا تأويل فإنه يسأل عن فعله الذى هو الاستماع وفعله الذى هو الإبصار أو يقدر مضاف أى آلة السمع وهى الأذن ، وآلة الرؤية وهى العين ، أو السمع والبصر بمعنى الأذن والعين وهو أشد مناسبة لقوله والفؤاد وقرأ والفؤاد بالواو بدلا من الهمزة وقرىء بالواو بفتح الفاء قلبت الهمزة واواً بعد الضمة ثم أبدلت الضمة فتحة . ﴿ كُلُّ أُوْلَئِكَ ﴾ الأكثر فى أولاء وأولى الإشارة إلى العقلاء وأشار بها فى الآية بالسمع والبصر والفؤاد إما تنزيلا لها منزلة العاقل ، لأنها تسأل عن أحوالها وتشهد على صاحبها والسؤال

والشهادة من شأن العقلاء بل إن فرضنا أنها يجعلها الله سبحانه يوم القيامة عاقلة هى من العقلاء يومئذ تحقيقاً لا تنزيلا ، وإما على القلة من استعمال أولاء وأولى فى غير العقلاء ويحتمل التنزيل والقلة قوله :

ذم المنازل بعد منزلة اللـــوى والعيش بعد أولئك الأيام

وروى بعد أولئك الأقوام والأقوام عقلاء،قيل هذه الرواية أصوب ﴿ كَانَ ﴾ فيه ضمير عائد إلى كل ﴿ عَنْهُ ﴾ الهاء عائدة إلى كل أيضاً والضمير فى قوله. ﴿ مَسْئُولًا ﴾ لكل أيضاً وعنه فضلة متعلق بكل وقدم للفاصلة وإنما صح عمل مسئول فى ضميرى شىء واحد متصلين لأنه عمل فى أحد لهما بواسطة الجار أو لأن المعنى مسئولا عن حاله أو شأنه أو فعله أو نفسه وفعله هو ما استعمله فيه صاحبه ويجوز عود الهاء إلى القفو المعلوم من تقف أى كل من السمع والبصر والفؤاد كان مسئولا عن قفو ماليس للإنسان به علم ، ويجوز كون ضمير كان وضمير مسئولا عائد إلى صاحب السمع والبصر والفؤاد والهاء عائدة إلى كل أى يسأل الإنسان عما فعل بسمعه وبصره وفؤاده ويجوز عودهما إلى

كل ،وعود الهاء إلى صاحبه أى يسأل السمع والبصر والفؤاد عن صاحبهن ماذا فعل بهن ولم فعل مافعل ،ويجوز كون عنه نائبا عن فاعل مسئولا فلا ضمير فى مسئولا وليس ذلك بخطأ خلافاً للقاضى لأن علة منع تقديم النائب اللبس بالمبتدأ ولا لبس فيما إذا كان النائب جاراً ومجروراً مع أنه يسامح فيه ولا يسامح فى غيره وإنما لم يجز الزيدون قام أو أكرم على تقديم الفاعل أو النائب مع أنه لا لبس فيه بفتح اللفظ هذا ما ظهر لى وزاد بعض أن النائب قدم هنا لمحاً لأصالة ظرفيته لعروض كونه نائباً ولأنه ليس فاعلا حقيقة بل مفعول فى المعنى واعلم أن الإنسان يسأل لم سمعت ما لا يحل لك سماعه ،ولم نظرت إلى ما لا يحل لك النظر إليه ولم عزمت على ما لا يحل لك العزم عليه ولم اعتقدت ما لا يجوز لك اعتقاده ولم حقدت على فلان ولم أحببت كذا ولم أبغضت كذا ولم ولم وها وهنا دعاء حسن يحتاج إليه أهل الفراغ والسعة والثبات خصوصاً والناس عموما ، أخرجه عن شكل بن حميد أبو داود والترمذى والنسائى ، وقال حديث حسن غريب . قال ابن حميد : أتيت النبى – صلى الله عليه وسلم – فقلت : يارسول الله

علمنى تعويذاً أتعوذ به .فأخذ بيدى ثم قال :قل أعوذ بك من شر سمعى وشر بصرى ، وشر لسانى ، وشر قلبى ، وشر منيى ، أراد نطفته وذكره. ﴿ وَلَا تَمْشِ فِى الأَرْضِ ﴾فى للظرفية ، وقيل بمعنى على أى لا تمش على الأرض﴿ مَرَحًا ﴾ بفتح الراء مصدر مرح بكسرها ومعناه التبختر والخيلاء والكبر فى المشى وهو مفعول مطلق على حذف مضاف أى مشى مرح أو حال على تأويله بالوصف أى مرحاً بكسر الراء أو على تقدير مضاف أى ذا مرح بفتح الراء أو مبالغة وقرئت من فرقة بكسر الراء على أنه وصف لا مصدر وهو حال .وفضل الأخفش المصدر على الوصف لما فيه من التأكيد يعنى المبالغة ولا يخلو منهما وجه التأويل ووجه التقدير لأن ظاهر اللفظ أن الإنسان نفس المرح ، وذكر القاضى أن الوصف أبلغ وإن كان المصدر آكد من صريح النعت . ﴿ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ﴾وقرىء بضم الراء . ﴿ الأَرْضَ ﴾ بتشديد وطئتها حتى تبلغ أسفلها بل لن تطيق خرقها ولو إلى ساقك بالمشى عليها وإذا انخرقت الك فليس لشدة وطئتها بل لرخوها حتى نزلت فيها بالضرورة .أو لن تخرقها بكبرك حتى تبلغ آخرها وعلى الوجهين الخرق التمزيق إلى

أسفل ويحتمل أن يكون المراد لن تقطعها بالمشى فالخرق استيفاؤها بالمشى عليها كلها والخطاب فى هذا ونحوه للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمعنى غيره أو الخطاب لغيره من كل من يصلح له وإلا فقد ذكر الترمذى فى كتاب الشمائل والغنيمى فى مختصره وغيرهما عن على ، كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا مشى تكفى تكفيا كأنه ينحط من صبب أى يتمايل فى مشيه إلى قدامه كأنه ينحدر من موضع عال ، وأخرجا عن أبى هريرة وغيرهما : مارأيت أحسن من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كأن الشمس تجرى فى وجهه وما رأيت أحد أسرع فى مشيه من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كأنما الأرض تطوى له ، إنا لنجهد أنفسنا وإنه لغير مكترث أى غير شاق عليه الأمر . ﴿ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴾ تمييز محول عن الفاعل ، أى لن يبلغ طولك طول الجبال ، أى لا تساويها بالطول ، وهو بضم الطاء طول القامة وغيرها ضد القصر ، أى لا تنال رءوس الجبال ؛ ولو فعلت ما فعلت من تبختر أو كبر ومد قامة فكيف تختال ،وربما كان الذى يمشى الخيلاء يمشى تارة على عقبه ، وتارة على بنانه وما يليه ، فقيل

له إنك لن تخرق الأَرض بالمشى على العقب ولن تبلغ الجبال طولا بالمشى على البنان وما يليها ، وذلك كله تعليل للنهى وتهكم بالمختال بأَن اختياله مجرد حمق لا يعود عليه بفائدة بل بمضرة ، والتذلل لله عكس ذلك وكان ـ صلى الله عليه وسلم ـ أخضع خلق الله إلى الله ـ سبحانه وتعالى .

﴿ كُلُّ ذَٰلِكَ ﴾ المذكور مما نهى الله عنه من قوله : لا تجعل مع الله إلها آخر فتقعد . إلى .. ولا تمش فى الأَرض مرحا ، ولا يدخل ما أمر به فى الإشارة بدليل قوله ﴿ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴾ والضمير فى كان عائد إلى كل وسيئه خبر كان وهو بهمزة مفتوحة بعد ياء مشددة مكسورة وبتاء مثناة بصورة هاء مفتوحة منونة ، وهو قراءة نافع وابن كثير وأبى عمرو وابن عامر وقرأ الباقون بضم الهمزة تليها هاء مضمومة بلا نقط ولا تنوين فيكون سىء اسم كان والهاء مضاف إليه والإشارة إلى ما نهى عنه وما أمر به من قوله تعالى : لا تجعل مع الله إلهاً آخر فتقعد إلى ولا تمش فى الأَرض مرحاً وسىء ذلك هو ما نهى عنه والهاء عائدة إلى ذلك كله مما أمر به وما نهى عنه ومكروها خبر

كان على هذه القراءةومعنى مكروها محرم فإن المحرم مكروه لا محبوب ونسبت هذه القراءة إلى ما ذكره القاضى ، وقال أبو عمرو الدانى إن ابن عامر وعاصماً وحمزة والكسائى هم القارئون بهذه القراءة وقرىء سيئات بالجمع والنصب بالكسر وقرأ أبو بكر كان شأنه مكروها ، وإن قلت ما وجه تذكير مكروه بعد تأنيث سيئة فى قراءة نافع ، قلت : سيئة ولو كان لفظاً مؤنثاً وصفاً لكنه تغلبت عليه الاسمية وكان بمعنى الذنب والذنب مذكر،فنعت بمذكر وهو مكروهاً باعتبار المعنى أو لأنه لما كان خبراً لضمير كان وضميرها مذكر اعتبر فيه التذكير ولم يعتد بتاء النقل من الوصفية إلى الاسمية فى سيئة فكأنه قيل كل ذلك كان سيئاً ، وقد قرئ سيئاً،ويجوز أن يكون مكروها خبراً ثانياً لكان ولو قلنا ببقاء سيئة على الوصفية لجواز ذلك كقولك زيد كان ثقة صالحاً وقوله تعالى: إن إبراهيم كان أمة قانتا . ولاضير بذلك كما يقال الذى سيئة أى خصلة قبيحة ويجوز كون مكروها بدلا من سيئة ولكن البدل بالمشتق ضعيف،وكونه حالا من الضمير المستتر فى كان،وعند على كل حال متعلق بكان أو بمكروها وإن علقته

بمحذوف نعت لسيئة جاز كون مكروها حالا من ضمير الاستقرار فى عند.ومعنى مكروه فى الآية محرم مبغوض كما علمت.وليس المعنى أن ذلك يفعله الفاعل على خروج عن إرادة الله،فإن الحوادث لا تخرج عن إرادة الله سبحانه وتعالى . وقيل المعنى سيئة توجب عند اللهمكروهاً، فمكروها مفعول بمحذوف والمراد به العقاب ، وهذه الآية كلها وهن خمس وعشرون بين أمر ونهى ، وثمانى عشرة فى النهى وحده، مذكورات فى ألواح موسى-عليه السلام-وكتبنا له فى الألواح من كل شىء موعظة وتفصيلا وكانت فيها عشر آيات الخمس والعشرون بالنهى عن الشرك وعقب بعد تمامهن بالنهى عنه ، إذ قال : ولا تجعل مع الله إلهاً آخر فتلقى . فإن التوحيد مبدوء الأمر ومنتهاه وملاكه وكل الخمس والعشرين حكم والتوحيد رأس الحكمة وملاكها فإن من لا قصد له بطل عمله،ومن قصد بفعله غير الله ضاع سعيه ، نهى عن الشرك أولا ورتب عليه ما يعود عليه فى الدنيا إذا قلنا إن المراد باللوم والخذلان هنالك الدنيويون ، ونهى عنه ثانياً ورتب عليه ما يتولد منه فى الآخرة وهو الإلقاء فى جهنم مع لوم ودحر ، إذ قال فتلقى فى جهنم ملوماً مدحوراً

﴿ ذَلِكَ ﴾ المذكور من الأوامر والنواهى ﴿ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ ﴾ يامحمد ﴿ مِنَ الْحِكْمَةِ ﴾ الوعظ البليغ أو معرفة الله سبحانه وتعالى لذاته والخير للعمل به ، وحاصل هذه الآيات أمر بالتوحيد وأنواع البر والطاعات والإعراض عن الدنيا والإقبال إلى الآخرة ، وذلك حكمة لا يوجد الحكم مثلها وكان بعض المشايخ يقول : مجامع الخيرات محصورة فى أمر صدق مع الحق وخلق مع الخلق ، وذكر هشام بن عبد الله القرطبى فى تاريخه المسمى بهجة النفس ، أنه دخل عبد الملك بن مروان على معاوية وعنده عمرو بن العاص فلم يلبث أن نهض فقال معاوية لعمرو : ما أكمل مروءة هذا الفتى. فقال له عمرو : إنه أخذ بأخلاق أربعة ، وترك أخلاقاً ثلاثة ، أخذ بأحسن البشر إذا ألقى ، وبأحسن الاستماع إذا تحدث ، وبأحسن الحديث إذا حدث ، وبأحسن الرد إذا خولف ، وترك مزاح من لا يوثق بعقله ، وترك مخالطة لئام الناس وترك من الحديث ما يعتذر منه . ﴿ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إِلَهاً آخَرَ فَتُلْقَى فِى جَهَنَّمَ ﴾ أى تطرح فيها والماضى إلقاء أو يلقاك فيها أهلها من عبدة الأصنام أو خزنتها ، والماضى على هذا لقبه . ﴿ مَلُومًا ﴾ تلوم

نفسك على ما فعلت ويلومك غيرك كالملائكة خزنتها﴿ مَّدْحُورًا ﴾ مبعداً عن رحمة الله جل جلاله المطرود عنه والمخذول هو الضعيف لعدم الناصرة .

﴿ أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم ﴾يامن يقولون من أهل مكة وغيرها الملائكة بنات الله والهمزة للإنكار . ﴿ بِالْبَنِينَ ﴾أى أفخصكم ربكم بصفوة الأولاد وهى البنون يقال أصفاه أى اختاره وخصه للصفوة فقوله بالبنين تفسير للصفوة ﴿ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا ﴾مفعول أول بمعنى بنات ومن الملائكة مفعول ثان،ويجوز أن يعلق من الملائكة باتخذ وبمحذوف حال من إناثاً والمفعول الثانى محذوف أى اتخذ أناساً من الملائكة بناتاً لنفسه وهذا خلاف ما عليه عقولكم وعادتكم من اصطفاء السيد الأشياء الجيدة لنفسه وإعطاء الأشياء الرديئة لعبده فكيف السيد المتصف بالكمال الذى لا نهاية له وهذا خطاب باعتبار عقولهم مع أنه لا يقال إن من المكارم اختيار الإنسان الشىء الحسن لغيره،لأن ذلك إنما هو فى من سيادته وعظمته ليستا حقيقتين.فيفعل ذلك رداًلنفسه إلى ما هو به حقيق وهو الخضوع والهوان وذلك هو الخلق مطلقاً

لا فيمن سيادته ذاتية حقيقية وهو الله جل وعلا ﴿ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴾ هو إضافتهم البنات إليه وعظم ذلك القول من جهات الأولى: أن الولادة تستلزم الحد والحلول والجهات والأجزاء والجسمية والله عز وجل منزه عن الجسمية والعرضية وتستلزم سرعة الزوال. فإن الولادة تختص بما هو سريع الزوال وهو الأجسام. الثانية: تفضيل العبد العاجز على السيد القادر قدرة تامة نسبة الذكر كالأنثى للعبد ونسبة الأنثى فقط للسيد وهى مكروهة للعبد. الثالثة: جعل أشرف الخلق على الإطلاق من حيث الجسم وأشرف ما عدا الأنبياء والمؤمنين من حيث الشأن على الصحيح عندى دون الخلق وهو الأنثى .

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا ﴾ كررنا أو قررنا أو ذكرنا أو بينا بوجوه من العبارات، أو لهم ذلك أو الحكم والمواعظ والأمثال والوعد والوعيد والعبر والحجج والعلامات وما نزل على الأمم السابقة من العذاب . ﴿ فِى هَذَا الْقُرْآنِ ﴾ أى فى مواضع منه ويجوز أن يراد بهذا القرآن هذا الكلام المقروء المذكور آنفاً المتضمن إنكار البنات عن الله سبحانه أى صرفنا القول فى هذا المقروء من الإنكار، وأن يراد بهذا القرآن

اسم كتاب الله فى الوجه الأول لكن على تسمية الحال وهو معنى إنكار
البنات باسم لمحل وهو كتاب الله،ويجوز أن يراد أوقعنا الصرف وهو
تنويع الحجج فى هذا المعنى،وتشدد راء صرفنا تأكيداً ومبالغة وقرىء
بالتخفيف . ﴿ لِيَذَّكَّرُوا ﴾ يتعظوا أو الأصل يتذكروا أبدلت التاء ذالا
وأدغمت الذال فى الذال، وقرأ حمزة والكسائى الفرقان ليذكروا
بإسكان الذال وضم الكاف،من ذكر بمعنى التذكر كالفكر بمعنى التفكر .
﴿ وَمَا يَزِيدُهُمْ ﴾تصريفنا فالضمير المستتر فى يزيد عائد إلى التصريف
المعلوم من صرفنا وإلى الصرف المعلوم من صرفنا بالتخفيف فى قراءة
التخفيف . ﴿ إِلَّا نُفُورًا ﴾ عن الحق وكراهة له وعدم سكون القلب
إليه وكان سفيان الثورى إذا قرأ هذه الآية قال:زادنى لك خضوعاً
ما زاد أعداءك نفوراً ، وذلك أنه كلما نزل من القرآن شيء كفروا به
فيحصل لهم نفور كلما وقع نزول ، قال الحسن : قال رسول الله
ـ صلى الله عليه وسلم ـ والذى نفسى بيده لتدخلن الجنة إلا أن تشردوا
عن الله كما يشرد البعير عن أهله،ثم تلا:ولقد صرفنا فى هذا القرآن
ليذكروا وما يزيدهم إلا نفوراً .

﴿ قُل ﴾ يا محمد للمشركين . ﴿ لَّوْ كَانَ مَعَهُ ﴾ أى مع الله . ﴿ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ ﴾ بالتاء الفوقية خطاب للمشركين ، أمر الله سبحانه وتعالى النبى - صلى الله عليه وسلم - أن يخاطب به المشركين ، وقرأ ابن كثير وحفص بالتحتية فى هذا وما بعده على أن الكلام مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى أمر المشركين فى طريق غيبتهم لا خطابهم ومقتضى الظاهر الخطاب وعدل عنه تنزهاً عن مقالتهم ، ووافقهما نافع وابن عامر وأبو عمرو وأبو بكر ويعقوب فيما بعد ، وهو قوله عما يقولون فقرأوه بالتحتية تنزها كذلك . ﴿ إذاً ﴾ دالة على أن ما بعدها جواب عن قول المشركين أن مع الله آلهة وجزاء للو ﴿ لَّأَبْتَغَوْا ﴾ طلبوا ﴿ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ ﴾ الجسم العظيم المحيط بالمخلوقات أو جسم او ألقيت فيه السماوات والأراضى والكرسى لكانت كحلقة فى فلاة أو العرش كناية عن الملك أى لا تبغوا إلى مالك الملك ﴿ سَبِيلًا ﴾ بالمبالغة والمضادة كما يقع بين الملوك من المحاربة على الملك هذا تفسير سعيد بن جبير وغيره إذ قال : لا تبغوا إليه سبيلا فى إفساد ملكه ومضاهاته فى قدرته ، قال إمام الحرمين أبو المعالى صاحب الورقات : لو كان مع

الله سبحانه وتعالى آلهة لأراد أحدهما تسكين جسم والآخر تحريكه في حال واحد ومحال أن يكون متحركاً ساكنا فى حال واحدة وأن يكون لا متحركاً ولا ساكنا فاستحال إنفاذ الإرادتين وعدم إنفاذهما معاً فإن لم تنفذا معا فليسا بإلهين وإن لم تنفذ إرادة أحدهما فليس بإله ، وإن فرضنا أن يتفقا فاختلافهما جائز والجائز فى حكم الواقع ولو كان الإلهان لم يمتنع ثلاثة وأكثر إلى مالانهاية له وعلى ذلك التفسير تكون الآية جارية على قوله تعالى : لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ، وقيل المعنى لطلبوا إلى الله جل جلاله سبيلا بالتقرب إليه والطاعة لعلمهم بقدرته وعجزهم فتكون جارية على حد قوله جل وعلا: أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة . قال بعض أهل الأندلس :

وهل فى التى طاعوا لها وتعبدوا لأمرك عاص أو لحقك جاحد

﴿ سُبْحَانَهُ ﴾ نزهه أو نزهوه أو ينزه تنزيهاً . ﴿ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ ﴾ من أن معه آلهة . ﴿ عُلُوًّا ﴾ أى تعالياً فهو اسم مصدر لتعالى . ﴿ كَبِيرًا ﴾ أى متباعدا غاية البعد فإن وجوده وبقاءه واجبان بالذات فهو فى أعلى

مراتب الوجود ووجود غيره وبقاؤه جائزان وهما وجود غيره وبقاؤه ولا سيما اتخاذ الولد،فإنه من أدنى مراتب الوجود فإن اتخاذه من خواص ما يمتنع بقاؤه .

﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ والأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾عن الشركة والحدوث وتوابع ذلك والمراد بمن فيهن الملائكة والإنس والجن ويحتمل أن يراد به من ذكر وغيره تغليباً للعاقل،ويحتمل أن يكون المراد يسبح له من فى السماوات والأرض،فأسند التسبيح إلى السماوات والأرض أيضاً أولا للمبالغة لا حقيقة ويدخلن بالحقيقة فيما بعد كما إذا بالغت فى حب علم زيد قلت :أحب زيداً وعلمه وأنت تريد أحب علمه . ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ ﴾ إن نافية ومن صلة للتأكيد وهذا تعميم بعد تخصيص فإن الشيء يشمل ذلك كله وغيره كسائر الأرضين وما تحتهن والعرش والكرسى وغير ذلك ويحتمل أن يراد بالأرض جنس الأرض ،فتشمل سبع الأرضين ويحتمل أن يراد بالشيء خصوص غير ما ذكر قبله﴿ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ ينزه الله ملتبساً بحمده عن الشركة والحدوث وجواز الوجود،والمراد التسبيح بلسان الحال فى حق

العاقل وغيره من الحيوان والجماد كالسماوات والأرض والجبال والشجر فإن كل شىء يدل بكونه ممكناً وحادثاً ومتغيراً ومركبا وعاجزاً على الخالق القديم الواجب الوجود . قال الأندلسى المذكور آنفاً :

وفى كل معبود سواك دلائل من الصنع تنبى أنه لك عابد

ويجوز أن يكون المراد التسبيح بالنطق والصوت فإن غير الحيوان قد يخرج منه صوت أو كلام إذا أراد الله،وقد يخرج منه بالتقائه مع غيره كحجر مع آخر وصرير الباب ونقيض السقف ، فانظر الريح كيف يصوت،وذلك كله تسبيح،ويمكن أن تتكلم الأشياء ولا يسمعها أحد . قال ابن مسعود : لقد كنانسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل . وروى جابر بن سمرة عنه - صلى الله عليه وسلم - أن بمكة حجراً كان يسلم على ليالى بعثت إنى لأعرفه الآن . رواه مسلم ، قال على كنت مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بمكة فخرجنا إلى بعض نواحيها فما استقبله شجر ولا جبل إلا وهو يقول : السلام عليك يارسول الله ، أخرجه الترمذى ، وقال : حديث غريب . وروى البخارى

عن جابر بن عبد الله كان فى مسجد رسول الله – صلى الله عليه وسلم – جذع فى قبلته يقوم إليه رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فى خطبته فلما وضع المنبر سمعنا للجذع مثل أصوات العشار حتى نزل رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فوضع يده عليه ، وفى رواية صاحت النخلة صياح الصبى فنزل النبى – صلى الله عليه وسلم – حتى أخذها فضمها فجعلت تئن أنين الصبى الذى يسكت حتى استقرت . قال : بكت على ما كانت تسمع من الذكر وقد تكلم البعير والظبى وغير ذلك مما يطول عده واختار بعضهم هذا وضعف الأول ، وأما الحمل على تسبيح اللسان النطق فيما له لسان ، وتسبيح لسان الحال فيما لا لسان له ، فإنما هو على جواز الجمع بين الحقيقة والمجاز بكلمة واحدة وأجاز بعض أيضاً استعمال الكلمة فى معنييها الحقيقيين ويجوز أن يراد بالتسبيح مطلق التعظيم والخضوع واختار بعضهم الأول واعلم أن الآية عمت أن الأشياء كلها تسبح ، وهنا بحثان الأول : التحقيق عندى أن تسبيحها قد يتفق وقد يختلف وأخذ بعض بظاهر اللفظ ، فقال إنها تقول سبحان الله وبحمده ، وليس كذلك فإن الآية أفادت أن الأشياء تنزه الله سبحانه

وتعالى وتحمده فتصدق على التنزيه بأى لفظ كان وعلى الحمد بأى
لفظ كان ، الثانى: أن الأشياء كلها تسبح على الإطلاق كما هو ظاهر
الآية ، وقال الشيخ هود رحمه الله عن الحسن : إن الجبال يسبحن فإذا
قطع منها شيء لم يسبح المقطوع وكذلك الشجرة ما قطع منها لم يسبح ،
وزعم بعض أن التراب يسبح فإذا ابتل لم يسبح ، وإن الخرزة تسبح
ما لم ترفع من موضعها فإذا رفعت تركت التسبيح ،وإن الورقة لتسبح
ما دامت على الشجرة فإذا سقطت تركت التسبيح ، وإن الماء يسبح
ما دام جارياً فإذا ركد ترك التسبيح وأن الثوب يسبح ما دام جديداً
فإن توسخ ترك التسبيح ، وإن الطير والوحش تسبح فإذا سكنت تركت
التسبيح . وقرئ تسبح بحمده بالتاء الفوقية بتأويل الجماعة لأن
شيئاً نكرة فى سياق النفى فهو بمعنى جماعة الأشياء ، وقرأ الكسائى
وحمزة وأبو عمرو بذلك . ﴿ وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ ﴾ لاتعلمون أيها المشركون
أو لا تفهمون ، ﴿ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ لإخلالكم بالنظر الصحيح وإنما يفهمه
من ينظر نظراً صحيحاً يتطلب به الحق ويتبعه، أو لاتفهمون أيها
الناس مطلقاً تسبيحهم لأنه بغير لغتكم وهذا هو الذى يظهر لى وأقول

به ويبحث على الوجه الأول بناء على أن التسبيح بلسان الحال كيف لا يفقه المشركون تسبيحهم وهم إذا سئلوا من خلق السماوات والأرض.. قالوا : الله ، ويجاب بأنهم لما وصفوه تعالى بصفات الخلق وجعلوا له شركاء صاروا كأنهم لم يفقهوا التسبيح ، وقوله ولكن لا تفقهون تسبيحهم يقوى أن المراد بشىء فى قوله عز وجل : وإن من شىء،خصوص الأشياء التى لا لسان لها والتى لها لسان لا يعلم ما تقول به والهاء عائدة إلى شىء ولك عودها إلى الشىء مع السماوات والأرض ولك عودها إلى ذلك كله ومن علم أن المراد تسبيح لسان الحال ﴿ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا ﴾ لايعاجلكم بالعقوبة على شرككم وغفلتكم عن أمر التسبيح ﴿ غَفُورًا ﴾ لمن تاب .

﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالاخِرَةِ﴾ وهم منكرو البعث ﴿ حِجَابًا ﴾ ساتراً يستر عن فهم ما تقرأ فلا يفهمونه فهماً معتبراً وهو الحقيقى المتبوع بالعمل ولو فهموه بعض فهم، إذ كان بلغتهم، وذلك الجعل ليس جبراً تعالى الله عنه ولكن تخليتهم وأنفسهم وما يختارون . ﴿ مَّسْتُورًا ﴾عن الأعين أى لا تراه

الأعين لأنه حجاب غير حسى أو مستور بحجاب آخر.وذلك أن اختيارهم الضلالة حجاب ساتر لهم عن فهم ما يقرأه عليهم.فهم لا يفهمونه،وهذا الحجاب أحاط به حجاب آخر هو أنهم لا يعلمون أنهم غير فاهمين ولو علموا أن الحق فيما يقرأ وأنهم ام يفهموا لالقوا أفهامهم إليه لعلهم يفهمون أو حجاباً مستوراً ما جعل حجاباً عنه عن أن يدرك فكأنه قيل حجباً مستوراً محجوبه فحذف المضاف،ومستوراً فى ذلك كله اسم مفعول ويجوز أن يكون المعنى حجاباً ساتراً فيكون النعت للتوكيد، ومستور على هذا إما مجاز مرسل لعلاقة الاشتقاق وإن شئت فقل لعلاقة التعلق إذ أطلق اسم مفعول على معنى فاعل لاجتماعهما فى مادة واحدة فى الاشتقاق أو تعلق الحجب بالمحجوب كتعلقه بالحاجب ، وإما مجاز فى الإسناد حيث أسند للمفعول وهو المحجوب عنه والذى له هو كونه مستوراً إلى الفاعل وهو الحجاب،رويت فى التلخيص سيل مفعم بفتح العين أى مملوء وإنما المملوء الوادى لا السيل وإما للنسب أى ذا ستر،كما قيل فى قوله عز وعلا:وعده مأتيا فإن مأتيا اسم مفعول أصله مأتوى كمنصور ومرحوم اجتمعت الواو

والياء وسكنت السابقة فقلبت الواو ياء وأدغمت الياء فى الياء وقلبت الضمة كسرة أى ذا إتيان فكأنه قيل إتياء،ويأتى كلام فيه إن شاء الله وقيل الآية فى حفظ الله سبحانه وتعالى نبيه عمن أراد به سوءاً من قتل أو جرح ، إذا قرأ القرآن منعه الله به من ذلك وجعل بينه وبين مريد ذلك حجاباً مستوراً ،أى حجاباً محجوباً عن الأعين أو حاجباً ونحو ذلك مما أمكن من الأوجه السابقة . روى سعيد بن جبير أنه قال : لما نزل « تبت يدا أبى لهب » جاءت امرأة أبى لهب ومعها حجر والنبى – صلى الله عليه وسلم – مع أبى بكر فلم تره . فقالت له : أين صاحبك، لقد بلغنى أنه هجانى . فقال أبو بكر : والله ما ينطق بالشعر ولا يقوله . فرجعت تقول كنت جئت بهذا الحجر لأرضخ رأسه ، فقال أبو بكر : ما رأتك يارسول الله . فقال : لم يزل ملك بينى وبينها ، والحديث مذكور فى سير الغزوات وغيرها وفى الهمزية وشروحها ذكره،وقد توجه أناس للفتك به فمنعهم الله وكان يقرأ فى المسجد الحرام ويصلى فيه ظاهراً محفوظاً بحفظ الله جل جلاله ويؤيد التفسير الأول قوله عز وعلا:

﴿ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ الخ .. فيكون هذا وذلك فى معنى واحد

وعلى التفسير الثانى يختلف هذا مع ما قبله فيكون مستأنفاً أو عطف قصة على أخرى ، وذكر الواحدى أن الآية نزلت فى قوم يؤذون النبى – صلى الله عليه وسلم – وإذا قرأ القرآن فحجبه الله جل وعلا عن أعينهم عند قراءة القرآن حتى كانوا يمرون به ولا يرونه ، وهذا من القول الثانى ﴿ أَكِنَّةً ﴾ جمع كنان وهو الغطاء والستر ووزنه أفعلة أصله كننة بإسكان الكاف وكسر النون الأولى نقل كسرها للكاف وأدغمت فى الثانية . ﴿ أن يَفْقَهُوهُ ﴾ أى لئلا يفقهوه أو كراهة أن يفقهوه أى جعلنا على قلوبهم أغطية تحول بينها وبين إدراك الحق وزعم بعضهم أنه يجوز أن يكون مفعولا لمحذوف دلت عليه جملة جعلنا على قلوبهم أكنة أى منعناهم أن يفقهوه . ﴿ وَفِى آذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ ثقل سمع يمنعهم عن استماعه لما كان القرآن معجزاً من حيث اللفظ والمعنى أثبت لمنكريه ما يمنع عن فهم المعنى وهو أكنة على قلوبهم وما يمنع عن إدراك اللفظ وهو الوقر فى آذانهم ، وهذا كناية عن أنهم لا يسمعون أصلا بأن لا يجمعهم الله مع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – حال قراءته وذلك بعد قيام الحجة عليهم وسماعهم منه ومن غيره أو كناية

عن أنهم ولو سمعوا،لكنهم لا يتأثر فيهم السماع فكأنهم لم يسمعوا
وقوله تعالى : « وإذا قرأت القرآن » إلى قوله : « نفوراً » لطرد المردة
والشياطين إذا تلاها الإنسان الخائف والذى تتخيل إليه الخيالات
الفاسدات زال ذلك عنه بإذن الله تعالى، وإذا كتبت فى خرقة صوف
أو ورق وعلق على عضد من تبعه الجن زال عنه بإذن الله تعالى ،
ومن كتب عشر قافات وثلاث ميات والآية وحمل ذلك انتصر بإذن
الله تعالى على أعدائه ، وفى آذانهم معطوف على قوله على قلوبهم وقرأ
معطوف على أكنة .

﴿ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى الْقُرْآنِ وَحْدَهُ ﴾مثل أن تتلو لا إله إلا الله
أو لا إله إلا هو أو إنما الله إله واحد وإنما إلهكم إله واحد ، ونحو ذلك
مما هو فى إثبات الوحدانية لله سبحانه،ويحتمل أن يكون المراد إذا
ذكرت الله ولم تذكر معه آلهتهم،ووحده مصدر كالوعد وقع حالا يقال
وحد يحد حدة ووحد كوعد يعد عدة ووعداً ﴿ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا ﴾
أى هرباً عن التوحيد وسماعه،كما هو شأن من بالغ فى إنكار شىء وهو
مفعول لأجله،ويجوز أن يكون بمعنى تولية فيكون مفعولا مطلقاً كقعدت

جلوساً وهو مصدر على الوجهين،ويجوز كونه وصفاً جمع نافر بمعنى هارب كرجل قاعد ورجال قعود فيكون حالا والمراد النفور بالقلب ولو لم يزولوا عن أماكنهم فكنى عن إعراض قلوبهم وإنكارها بذهاب الرجل إلى خلفه وعلى بمعنى إلى ويجوز إبقاؤها على أصلها لأن التولية مشى إلى خلف والمشى يتعدى بعلى وغيره يقال مشى على كذا .

﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا ﴾ الباء للإلصاق المجازى فإنك إذا علمت شيئاً فقد اتصل به إدراكك . ﴿ يَسْتَمِعُونَ بِهِ ﴾الباء للتعليل والسببية وهما واحد وذكرت فى النحو الفرق بينهما عن بعضهم،أى بما يستمعون لأجله من الهزء بك وبالقرآن،ونحن أعلم بالوجه الذى يستمعون به وهو التكذيب فتكون الباء هذه للتعدية،وليست باء التعدية المعاقبة للهمزة،ويجوز كونها للتعليل والسببية أى يستمعون لأجل أن ينطقوا بالتكذيب وما ذكرته أولا أولى ، وروى أنه كان يقوم عن يمينه إذا قرأ رجلان من بنى عبد الدار ، ورجلان عن يساره فيصفقون ويصفرون ويخلطون عليه بالأشعار،فهم يستمعون متى يقرأ فيفعلون ذلك﴿ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ﴾ أى إلى قراءتك وإذ متعلق باعلم وكذا إذ

فى قوله ﴿ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى ﴾ بواسطة عطفه على إذ الأول أى نحن أعلم بغرضهم من الاستماع وقت استماعهم إليك مضمرين لذلك الغرض ووقت تناجيهم بذلك الغرض . زوى أنهم يتناجون فى دار الندوة ثم ينتشر ماتيا جوابه ، وقيل فى نجواهم إنها قولهم مجنون وقولهم ساحر أو كاهن أو شاعر وهم نجوى مضاف إليه وألف نجوى للتأنيث والنجوى الكلام الخفى بين اثنين أو أكثر وهو مصدر للثلاثى أو اسم مصدر لتناجى أخبر به مبالغة أو على تأويله بالوصف أو بتقدير مضاف ويجوز أن يكون وصفاً جمع نجى كقتيل وقتلى . ﴿ إِذْ ﴾ بدل من إذ الثانية على وضع الظالمين موضع الضمير ليدل على أن نجواهم بقولهم مسحوراً ظلم وهو بدل بعض لأن وقت نجواهم واسع يقولون فيه : إن تتبعون إلا رجلا مسحوراً ، ويقولون غير ذلك أو بدل كل على أن المراد هو خصوص وقت قولهم إن تتبعون إلا رجلا مسحوراً ويجوز كونه مفعولا لاذكر . ﴿ يَقُولُ الظَّالِمُونَ ﴾ الوليد بن المغيرة وأبو سفيان ابن حرب وأبو جهل وعتبة ورهط من قريش . ﴿ إِن تَتَّبِعُونَ ﴾ خطاب للمؤمنين ﴿ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴾ أى عمل له سحر فكانت أشياء تتخيل إليه

لخلل فى عقله بذلك العمل أو جن به، وقيل مخدوع خدعته الشياطين بوساوسها، وقيل ذلك من السحر بضم السين وفتحها وإسكان الحاء وفتحها وهو الرية، وهى موضع النفس والريح من الآدمى وغيره من الحيوان، أى مجعولا له ذلك فهو يأكل ويشرب ويتنفس مثلكم يريدون أن لا يكون نبى إلا ملكاً أو كملك . روى أن المؤمنين لما قالوا لا إله إلا الله كبر ذلك على المشركين وشدد عليهم إبليس الأمر أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشىء عجاب واجتمعوا وهم الوليد بن المغيرة ومن معه إلى دار فى أصل الصفا فيها نبى الله يصلى فاستمعوه فلما فرغ نبى الله — صلى الله عليه وسلم — من صلاته ، قال أبو سفيان : يا أبا الوليد أنشدك الله هل تعرف شيئاً مما يقول ؟ فقال : اللهم أعرف بعضاً وأنكر بعضاً . فقال أبو جهل : فأنت يا أبا سفيان . قال : لا أعرف . فقال أبو سفيان لأبى جهل : يا أبا الحكم هل تعرف شيئاً . قال : والذى جعلها بيته يعنى الكعبة لا أعرف لا قليلا ولا كثيراً ، ثم خاطب المؤمنين بحيث يسمعون أو غابوا فنزلهم منزلة من حضر إن تتبعون إلا رجلا مسحوراً : ﴿ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ ﴾ بالمسحور

والساحر والشاعر والكاهن والمجنون . ﴿ فَضَلُّوا ﴾عن الحق فى ذلك كله .
﴿ فلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾إلى الحق أو إلى طعن يقبل عنهم ويكون له
وجه فهم كمن تحير فى أمر لا يدرى ما يصنع أو كمن تحير فى التيه
يطلب سبيلا ولا يجده .

﴿ وَقَالُوا ﴾منكرين للبعث . ﴿ أئِذَا كُنَّا عِظَاماً ﴾مجردة عن الجلود
واللحوم والعصب وغير ذلك . ﴿ وَرُفَاتًا ﴾هو مفرد بمعنى الأجزاء المتفتتة
من أى شىء كانت إذا بلى وتكسر وقرب من حال التراب لمرور الزمان
عليه . وقال مجاهد الرفاة التراب ،وعن ابن عباس الرفاة الغبار .﴿ أَئِنَّا
لَمَبْعُوثُونَ ﴾ وقرىء أئنا بالاستفهام ومر الكلام على ذلك فى الرعد
وإذا متعلق بما دل عليه مبعوثون لا به لأن ما بعد أن والاستفهام لا يعمل
فيما قبلهما كذا قيل ،ووجهه أن الاستفهام الثانى على قراءة الاستفهام
فى الموضع الثانى تأكيد للذى قبل إذا ،وأن ومعمولاها فى نية التقديم
على إذا ،والمجموع دليل جواب إذا وإلا فلو كان ذلك هو الجواب لم
يمتنع العمل فيم قبل ،لأن أداة الشرط يعمل فيهما الجواب مطلقاً ولو وجد

مانع العمل فيما قبل،وليس ذلك جواباً بدليل أنه لم يقرن بالفاء وفى تحقيق همزتى الاستفهام وتسهيلهما ما مر . ﴿ خَلْقًا ﴾حال ولو كان مصدراً لأنه بمعنى مفعول ولأنه منعوت بمشتق أو هو مفعول مطلق لتضمن البعث معنى الخلق . ﴿ جَدِيدًا ﴾أنكروا رد الرفاة اليابس الجامد طرياً رطباً حيا .

﴿ قُلْ ﴾لهم فى جواب استبعادهم إحياء الرفاة اليابس الجامد . ﴿ كُونُوا ﴾هذا أمر تعجيز . ﴿ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا . أَوْخَلْقًا ﴾نوعاً من أنواع المخلوقات . ﴿ مِمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ﴾أى مما يعظم ويتعاصى عندكم عن قبول الحياة لبعده عنها كالجبال والأرض والسماوات فإنها مع بعدها عنها أعظم المخلوقات المشاهدة ، وقيل المراد الموت لأنه لا شىء فى نفس ابن آدم أكبر من الموت ، ويرد هذا التعليل أنه ليس المراد تعظيم الشىء بل كونه أبعد عن الحياة وفى الكلام حذف تقديره :فإن الله يبعثكم كائنين ما كنتم فإن قدرة الله عز وجل ذاتية لا تعجز عن إحياء شىء،والدليل العقلى فى ذلك أن الأجسام كلها سواء

فى قبول الأعراض والحياة عرض ،فكيف والعظم بعض أجزاء الحى وعمود خلقه الذى يبنى عليه سائره وقد كان غضاً موصوفاً بالحياة ورد شىء إلى حال كان عليها أسهل وأشد قبولا من رده إلى حال لم يكن عليها ،وهذه مجازاة مع عقولهم وإلا فالأشياء كلها مستوية فى قدرة الله جل جلاله ،ومن اعتقد أن الله يكون عنده بعض الأشياء أسهل من بعض فقد وصفه بالعجز فيشترك وفى تفسير الخلق الذى يكبر فى صدورهم بالموت مبالغة ،أى او كنتم نفس الموت الذى هو ضد الحياة لبعثكم ،وعليه اقتصر الشيخ هود رحمه الله ، وإذا قلت ذلك لهم ﴿ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ﴾ إلى الحياة بعد موتنا .﴿ قُلِ الَّذِى ﴾ أى يعيدكم الذى ﴿ فَطَرَكُمْ ﴾ خلقكم ﴿ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ من تراب يخلق أبيكم منه أو يقدر هو الذى فطر أباكم ولم تكونوا شيئاً وهو أبعد شىء من الحياة فإن القادر على البدء قادر على الإعادة بل الإعادة بالنظر إلى بادىء الرأى أهون ، ،ولكنهما .سواء عند الله عز وجل وهذا احتجاب بالبدء على الإعادة ولذلك قال : قل الذى فطركم أول مرة. ولم يقل : قل الله . روى أن أبى ابن خلف الجمحى أتى النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ بعظام

مفتتة بالية ، فقال : أيحيى الله هذه . فقال الله جل جلاله : قل يحييها الذى أنشأها أول مرة ﴿ فَسَيُنْغِضُونَ ﴾ يرفعون أو يحركون .﴿ إِلَيْكَ ﴾ أى نحوك ﴿ رُءُوسَهُمْ ﴾ تعجبا واستهزاء وإنكاراً. قال الزجاج : النغض تحريك من يبطل الشيء ويستبطئه . ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ ﴾ أى البعث استفهام إنكار ﴿ قُلْ ﴾ لهم ﴿ عَسَى ﴾ أى هو أى البعث . ﴿ أن يَكُونَ قَرِيبًا ﴾ فإن كل ما هو آت قريب عبر بعسى مع أنه قريب جزماً وقطعاً ،كما قال عز وعلا :اقترب للناس حسابهم لأنها فى لغة العرب قد تكون للتوقع فعبر لهم بما هو لفظ تخوف تهديداً لهم وتوعداً أو هى لعدم الجزم فى اعتبار المخلوق على أن القرب ما نعده قرباً فى عرفنا لا ما يعده الله قريباً وهو فى العرف بعيد ظهر لى الوجهان . قال ابن جرير الطبرى وابن سلام : عسى من الله واجبة فالمعنى هو قريب ، واسم عسى كما علمت ضمير البعث وقريباً خبر يكون ومصدر يكون خبر عسى على تأويله بكائن أو على تقدير مضاف أولا أى عسى أمره كونه قريباً أو آخر أى عساه ذا كونه قريباً أو بلا تأويل مبالغة ويجوز أن يقال أن يكون تام مصدره خبر لعسى أو فاعلها على أنها أيضاً تامة وقريباً

ظرف ولا يجوز أن يكون قريباً خبر عسى لأن كون خبرها اسماً صريحاً شاذاً غير فصيح .

﴿ يَوْمَ ﴾ ظرف لمحذوف أى يقع البعث يوم أو هو واقع يوم أو يتعلق بمحذوف خبر لمحذوف، أى هو ثابت يوم جوابا لقولهم متى هو، هذا ما ظهر لى من الأوجه وأجاز بعضهم أن يكون بدلا من قريباً على أن قريباً ظرف ، وظاهر عدم تعرض القاضى وغيره له أنه يتعلق بيكون أو بقريباً ولا يحسن ذلك لضعف المعنى عليه .﴿ يَدْعُوكُم ﴾ أى ينفخ إسرافيل فى الصور إلى الموقف فى الشام أو يقدر مضاف أى يدعوكم داعيه وهو إسرافيل﴿ فَتَسْتَجِيبُونَ ﴾ تجيبون دعاءه ولا تمتنعون فتحضرون إلى الموقف من قبوركم للحساب والجزاء ويجوز أن يكون الدعاء والاستجابة كناية عن البعث والانبعاث أو استعارة لذلك تنبيهاً على سرعة ذلك وتيسره كأنه قولك يازيد وقول زيد لبيك ﴿ بِحَمْدِهِ ﴾ حال أى ملتبسين بحمده على كمال قدرته . قال ابن جبير : جميع العالمين يقومون وهم يحمدون الله ويمجدونه لما يظهر

لهم من قدرته وظاهر كلامه أن الخطاب بجملة الناس وهو محتمل والظاهر أنه لمنكرى البعث ويحتمله كلام ابن جبير بأن عمم فى كلامه لمجرد الإخبار بالواقع لا تفسيراً للآية بالعموم ، قيل إن الناس ينفضون التراب عن رءوسهم حين البعث . قال ابن جبير يقولون : سبحانك اللهم وبحمدك . وقال ابن عباس : بحمده بأمره ، وقيل بطاعته . وقال الحسن : بمعرفته . وقيل : بإقرار أنه خالقهم وباعثهم وذلك حمد واعتراف حين لا ينفعهم ويجوز أن يكون المعنى بانقياد لبعثه مع كرههم له انقياد الحامد على الشىء المحب هو له وهذا مبالغة فى الانقياد بعد الإباء كقولك لمن تدفعه إلى السجن ويمتنع ستدخله حامدا أى تدخله قهراً وتنقاد له كأنه أمر محبوب عندك ، وقيل الخطاب للمؤمنين يبعثون حامدين لربهم ، وقيل بحمده خبر المحذوف هو من كلام رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أى ذلك بحمد الله على صدق خبرى ﴿ وَتَظُنُّونَ ﴾ بعد البعث . ﴿ إن لَّبِثْتُمْ ﴾أى ما لبثتم فى قبوركم أو فى الدنيا . ﴿ إلَّا قَلِيلًا ﴾زماناً قليلا أو لبثا قليلا استقصروا مدة لبثهم فى ذلك كأنها يوم أوبعض يوم لما يرون من هول القيامة . قال قتادة :

تحاقرت الدنيا فى أنفسهم حين عاينوا الآخرة حتى سرى التحقير إلى مدتها أو حباً لحياتها السالمة من هول القيامة ،فقللوا مدتها لأن أيام الرخاء قصار تمر والإنسان غافل كأنها ساعة ، وقيل تقليلها بالنسبة إلى الخلود لأنهم لما بعثوا تيقنوا أن الخلود الموعود به لهم حق والظن هنا بمعنى اليقين ، وقيل على بابه وأنهم شكوا فى قلة اللبث فى القبر ورجوه لأن من فى الآخرة قبل البعث كالنائم لا يحقق المدة إلا بأمر خارج ﴿ وَقُل لِّعِبَادِى ﴾المؤمنين ﴿ يَقُولُوا ﴾ للمشركين ﴿ الَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ كلمة الحق التى هى حسنة أو أحسن من غيرها لا خشونة فيها لتكون أقرب إلى القبول مثل أن يقال : إن الله جل وعلا هو المنعم الخالق وهو المستحق للعبادة ، ومثل أن يقال :ربكم أعلم بكم إن يشأ يرحمكم وإن يشأ يعذبكم ، وقد قيل إن قوله ربكم أعلم . . الخ . تفسير وتمثيل للتى هى أحسن وما بينهما اعتراض ولا تصرحوا بأنهم من أهل النار فإن ذلك يهيجهم على الشر مع أنه لا يدرى بم يختم لهم ،أمروا بإلانة القول للمشركين حين كانوا بمكة ،وذلك أمر مستمر لأنه أدعى للقبول الذى هو المراد ، وقيل نسخت بآية السيف وآية التغليظ ، وقيل

كان المشركون يؤذون المسلمين فشكوا ذلك إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأنزل الله الآية أى قل لهم يقابلوا خشونة المشركين باللين مثل أن يقولوا سلاماً، ومثل يهديك الله، ومثل هذا عندى جائز لأنه دعاء لله أن يرشدهم إلى ما أمر به أن يدعوا إليه وهو الإسلام وذلك قبل الإذن بالقتال ، ومن ذلك يقولون يرحمكم الله أى بالهداية للإسلام أو برحمة الدنيا ، وقيل نزلت فى عمر بن الخطاب رضى الله عنه شتمه مشرك فأمر الله بالعفو ، وقيل إن الآية فيما بين المؤمنين أمرهم الله أن يحفظوا الجناح ويتأدبوا فيما بينهم ، وقيل العباد جميع الخلق والتى هى أحسن هى لا إله إلا الله .﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ ﴾ وقرأ طلحة بكسر الزاى يهيج المراء والشر والعناد وازدياد الكفر ﴿ بَيْنَهُمْ ﴾بتخشين القول إذا خشنوه ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِيناً ﴾ ظاهر العداوة فى أمر الدين والاخرة لا يألو جهداً .

﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ ﴾ رحمتكم. ﴿ يَرْحَمْكُمْ ﴾ بالهداية إلى الإيمان﴿ أَوْ إِن يَشَأْ ﴾ تعذيبكم . ﴿ يُعَذِّبْكُمْ ﴾ بأن يميتكم على الكفر

فيعذبكم عليه ، وقيل الخطاب للمؤمنين : إن يشأ يرحمكم بالتنجية من أهل مكة ؛ وإن يشأ يعذبكم بتسليطهم عليكم وهذا ضعيف ، والصحيح الأول وعليه ابن جرير الطبرى وغيره . ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴾ حفيظاً تجبرهم على الإيمان بل مبشراً ومنذراً فدارهم ومر أصحابك بالاحتمال منهم ، وقيل وكيلا بمعنى موكولا إليك أمرهم تقهرهم على الإيمان فكان الحذف والإيصال ، قيل هذا منسوخ بآية السيف .

﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾أى بأحوال من فيهن وبمن يتأهل للنبوة وذلك رد على قريش فى استبعادهم أن يكون يتيم أبى طالب ـ صلى الله عليه وسلم ـ نبياً وأن يكون العراة الجوع أصحابه كصهيب وبلال وخباب وغيرهم دون أن يكون ذلك فى أكابرهم وأشرافهم﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ ﴾ بالخصال الدينية الراسخة فى نفوسهم والإخلاص عن علائق الجسم الدنية وبالكرامات كموسى بالكلام ، وإبراهيم بالخلة ، ومحمد بالإسراء التام والمحبة

لا بكثرة المال والأتباع وعظم الملك حتى داود وابنه سليمان فإن شرف داود بالزبور وشرف ابنه بالخضوع الموضوع فى قلبه إلا بالملك .
وقيل المراد التفضيل بالنعم الدينية والدنيوية والجسمية لتأهلهم لها فيدخل فى ذلك خلق عيسى بلا أب وإبراؤه الأكمه والأبرص وإحياؤه الموتى بإذن الله سبحانه وإيتاء سليمان ملكاً لا ينبغى لغيره .
وقيل إن ذلك تلويح وإشارة إلى تفضيل سيدنا محمد — صلى الله عليه وسلم — وقوله ﴿ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴾ بيان لتفضيله بأن أوتى داود كتاباً عظيماً تضمن أنه آخر الأنبياء وخيرهم وأمته خير الأمم ، وأنهم عباد صالحون يرثون الأرض ، ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون وخص داود بالذكر لأنه أعطى الملك مع النبوة والزبور ليذكره بالكتاب تنبيها على أن التفضيل بالدين لا بالدنيا ولأنه ذكر فى الزبور أن محمداً خاتم النبيين وغير ذلك مما مر ، ولأن اليهود زعمت أنه لا نبى بعد موسى ، ولا كتاب بعد التوراة فكذبهم الله عز وجل أن داود رسول وأنه أنزل عليه الزبور وأن محمد رسول وذكره فيه ولم يبعد أن يفضل الله الرحمن الرحيم

محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ على جميع الخلائق، فضل الله يؤتيه من يشاء وتنكير زبور للتعظيم بناء على أن ال فى الزبور للتعريف وإن قلنا إن زبوراً علم بدون ال ، قال فيه إذا دخلته للمح الأصل، لأنه فى الأصل اسم جنس فكل كتاب زبور فهو كالنعمان ونعمان ولأنه فى الأصل وصف بمعنى مفعول كحلوب بمعنى محلوبة وركوب بمعنى مركوبة فهو كالعباس ، وعباس أو لأنه مصدر كالفضل وفضل فيكون فى الأصل من المصادر المفتوحة ، الأول على وزن فعول كالقبول ، ويؤيده قراءة حمزة بالضم ، أو نكرة للتبعيض وخص بعضه بالذكر لأنه البعض المذكور به نبينا ـ صلى الله عليه وسلم ـ أو سمى ذلك البعض باسم الكتاب كما يسمى بعض القرآن قرآناً . قال قتادة : الزبور مواعظ ودعاء ، عمله الله لداود ـ كما ذكره الشيخ هود ـ وثناء على الله سبحانه وتمجيد ليس فيه حلال وحرام وفرائض وحدود وأحكام وهو مائة وخمسون سورة .

﴿ قُلِ ادْعُوا ﴾ اطلبوا فى كشف الضر عنكم وتحويله . ﴿ الَّذِينَ

زَعَمْتُم ﴾ أنهم آلهة . ﴿ مِّن دُونِهِ ﴾من دون الله عز وجل كالملائكة والأصنام والمسيح وعزير ومريم والشمس والقمر والنجوم والجن فالتعبير بصيغة العقلاء كالذين ويستطيعون ونحوهما مما يأتى تغليب للعقلاء من ذلك أو تنزيل لغير العقلاء من ذلك منزلة العقلاء عندهم . وقال ابن عباس ليست الآية فى عبادة الأصنام بل فى عبادة من يعقل كموسى وأمه وعزير ، وفى رواية عنه هم عيسى وأمه وعزير والملائكة والشمس والقمر والنجوم وعن الحسن الملائكة وعيسى ، روى أن المشركين أصابهم قحط أكلوا به الخيف فاستغاثوا بالنبى – صلى الله عليه وسلم – ليدعو لهم . فقال الله عز وجل : قل ادعوا الذين زعمتم من دونه . ﴿ فَلَا يَمْلِكُونَ ﴾ لايستطيعون﴿ كَشْفَ ﴾ إزالة .﴿ الضُّرِّ ﴾ الجوع والقحط والمرض والعذاب . ﴿ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴾اه منكم إلى غيركم أو ولا تحويلا للحال من العسر إلى اليسر. .

﴿ أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ .﴾الذين تابع لأولئك ويبتغون خبر الذين وأولئك والذين واقعان على المعبودين

وكذا رابط الصلة المقدر أى يدعونهم والواو فى يبتغون والهاء فى قوله إلى ربهم ؛ وأما الواو فى يدعون فعائدة إلى المشركين العابدين ، والوسيلة القربة بالطاعة، كيف تعبدون من هو محتاج إلى الله متقرب إليه بما يرضاه . وروى أن المشركين قالوا : لسنا بأهل أن نشتغل بعبادة الله فنحن نعبد المقربين إليه وهم الملائكة ثم إنهم اتخذوا للملائكة تماثيل وصوراً فرد الله عليهم بهذا وكل مخلوق من غير العقلاء منقاد إلى الله مبتغ القرب إلى الله ، وذكر الشيخ هود وغيره عن ابن مسعود أن نفراً من العرب يعبدون نفراً من الجن فأسلم أولئك الجن ولم يعلم النفر العابدون لهم بذلك وتمسكوا بعبادتهم فعيرهم الله بهذا . ﴿ أَيُّهُمْ ﴾ مبتدأ ومضاف إليه وأى استفهامية . ﴿ أَقْرَبُ ﴾ خبر والجملة مفعول لمحذوف معلق بالاستفهام أى ينظرون أيهم أقرب دل عليه ما فى الابتغاء من التسابق والتنافس فيجوز أن تكون مفعولا لقول محذوف وهو قول بلسان الحال والقول حال من واو يبتغون، أى يبتغون الوسيلة إلى ربهم قائلين أينا أقرب . وعبر بضمير الغيبة فى أيهم ليطابق ما قبله ، وهذان الوجهان هما اللذان ظهراً لى بخلاف غيرهما مما قاله غيرى كقول

الزمخشرى والقاضى أى اسم موصول بدل من واو يبتغون وأقرب خبر لمحذوف،والأصل أيهم هو أقرب والجملة صلة ،أى والمعنى يبتغى إلى الله الوسيلة من هو أقرب منهم بالعبادة إليهِ فكيف بغير الأقرب من القريب والبعيد،ثم رأيت الزمخشرى أشار أيضاً إلى الوجهِ الثانى من الوجهين اللذين ذكرت أولا . ﴿ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ ﴾ وهى الجنة فى جانب بنى آدم والجن للتلذذ والنجاة من النار وفى جانب الملائكة للنجاة من النار إليها لا للتلذذ لأنهم خائفون راجون للنجاة من سخط الله سبحانهُ وتعالى فى جانب من ذكر كله وفى جانب سائر الحيوان والجماد بل ومن النار أيضاً لما ورد أن سائر الحيوان والجماد مشفقون منها ونعم الدنيا فى جانب بنى آدم والجن والحيوان﴿ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ﴾ كل من الرجاء والخوف صالح فيم ذكرته ويصرف كل إلى ما يليق به مع أنه قد مر عن بعض أن الكلام فى الملائكة وبنى آدم وعن بعض أنه فى الجن والعذاب عذاب الدنيا وعذاب الآخرة ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ حقيقاً بأن يحذره كل أحد من ملك مقرب أو نبى مرسل ولا سيا غيرهما فكيف يدعى أحد أنه إله ممن تزعمونهم آلهة

وهم خائفون راجون الله سبحانه وتعالى ، قال عز الدين بن عبد السلام الخوف والرجاء وسيلتان إلى فعل الواجبات والمندوبات وترك المحرمات والمكروهات ولكن لابد من الإكباب على استحضار ذلك واستدامته فى أكثر الأوقات حتى يصير الثواب والعقاب نصب عينيك فيخشاه على فعل الطاعات وترك المخالفات ولن يحصل اه ذلك إلا بتفريغ القلب من كل شيء سوى ما يكفر فيه أو يواقعه على الكفر .وقد مثل القلب المريض بالشهوات بالثوب المتسخ الذى لا تزول أدرانه إلا بتكرير غسله وحته وقرصه ، انتهى . والأدران الأوساخ .

﴿ وَإِن مِّنْ قَرْيَةٍ ﴾إن نافية ومن صلة للتأكيد . ﴿ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا ﴾ مبطلوها بإماتة أهلها وخرابها بتدريج أو دفعة . ﴿ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا ﴾ أى معذبو أهلها . ﴿ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ بالقتل والبلايا كالمرض والطاعون والجوع وذلك فى قرى المشركين ، فالآية فى إعزاز الإسلام وإهانة الكفر وأهله وتقليلهم ، وقيل معذبو أهلها بالقتل وأنواع العذاب إذا عصوا . قال عبد الله بن مسعود : إذا ظهر الزنى

والربا فى قرية أذن الله عز وجل فى هلاكها . وقيل الإهلاك فى حق المؤمنين بالإماتة وفى حق الكفار بالعذاب ، وقدر بعضهم وإن من قرية أردنا إهلاكها إلا نحن مهلكوها فهو كقوله ما تذر من شىء أتت عليه إلا جعلته كالرميم إذ قدرنا ذلك المحذوف ، وقيل ذلك فى كل قرية كفر أوإسلام كما يدل عليه كلام الضحاك الآتى ﴿ كَانَ ذَٰلِكَ فِى الْكِتَابِ ﴾ أى فى اللوح المحفوظ ﴿ مَسْطُورًا ﴾ مكتوباً بالسطار ويجوز أن يكون سطره فى الكتاب كناية عن سبقه فى القضاء . قال عبادة بن الصامت رضى الله عنه سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : أول ما خلق الله القلم فقال : اكتب القدر ما هو كائن إلى الأبد . وعن الضحاك: مكة تخربها الحبشة وتهلك المدينة بالجوع والبصرة بالغرق والكوفة بالترك والجبال بالصواعق والرواجف وخراسان بضروب وذكر غير ذلك .

﴿ وَمَا مَنَعَنَا ﴾ماصرفنا ﴿ أن نُّرْسِلَ ﴾ أى عن أن نرسل . ﴿ بِالْآيَاتِ ﴾ الباء صلة للتأكيد والآيات مفعول به أو الباء أصلية متعلقة بنرسل

بمعنى مع أو بمحذوف حال والمفعول محذوف أي أن نرسلك بالآيات .

﴿ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ﴾ أن مصدرية والمصدر فاعل نرسل أي وما منعنا عن إرسال الآيات التي طلبتها قريش تعنتاً إلا تكذيب الأولين الذين هم أمثالهم فى الطبع على القلوب كعاد وثمود ، فلو أرسلنا إليهم الآيات التى طلبوها كما أرسلنا للأولين لم يؤمنوا كما لم يؤمن الأولون فنهلكهم كما أهلكنا الأولين فإرسالنا إهلاك من طلب الآية تعنتا فجاءته فلم يؤمن وقد قضينا أن لا نهلك قريشاً باستئصال لأن فيهم من سيؤمن أو يلد مؤمناً ولإتمام أمرك يامحمد طلبت قريش قلب الصفا ذهباً وإحياء الموتى وإزاحة الجبال ليحرثوا تعنتاً لنبينا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأوحى الله عز وجل إليه إن شئت فعلت ، فإن لم يؤمنوا أهلكتهم عاجلا ، وإن شئت استأنيت بهم عسى أن أجتبى منهم مؤمنين . فقال يارب بل تستأنى بهم فنزل « وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون » يقال استأنى لمعنى آخر وتباطأ وأخبره الله سبحانه وتعالى أن هذه الأمة يستأصل آخرها بنفخة الموت ، ثم ذكر بعض الأمم التى طلبت الآيات تعنتاً فجاءها ماطلبت فلم تؤمن

فأهلكت إذ قال : ﴿ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ ﴾ لما طلبوها ﴿ مُبْصِرَةً ﴾ بينة واضحة ذات إبصار وذات بصائر ومصيرة لهم ذوى بصائر ، وقرىء بفتح الصاد أى يشاهدها ثمود بعيونهم أو المعنى على الكسر والفتح أنها بينة لقريش بأثر هلاك ثمود يعاينون أثرها ذاهبين وراجعين فكأنه قيل واضحاً أثرها أو مشاهداً أثرها فإن أثر هلاكهم أثر لها إذ كانت سببه وقد علموا أيضاً موردها ومصدرها من الماء وقرىء بفتح الميم والصاد أى موضع إبصارهم ﴿ فَظَلَمُوا بِهَا ﴾ أى فكفروا بها . قالوا إنها ليست من الله عز وجل فأهلكوا أو ظلموا أنفسهم بسبب قتلها ﴿ وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ ﴾ التى يطلبها الأقوام تعنتا من رسلهم . ﴿ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴾ من نزول العذاب المتواصل فإن لم يخافوا ويرتدعوا عن الشرك نزل العذاب أو ما نرسل بالآيات التى هى لمعجزات وآيات كتب الله سبحانه ،وآيات السماء كالكسوف والخسوف والرعد وقوس قزح ونجم الذيل وآيات الأرض كالزلزلة إلا تخويفاً لعذاب الآخرة وإنذاراً به لمن لم يؤمن ،والآيات التى تنظر ثلاثة أقسام قسم عام وهو المخلوقات حيث ما وضعت نظرك وجدت آية وهنا فكرة العلماء،وقسم معتاد

يجىء فى بعض الأحيان كالخسوف وهنا فكرة الجهلة، وقسم خارق عادة وقد انقضى بانقضاء النبوة والباء فى قوله بالآيات صلة للتأكيد فى المفعول به أو أصلية متعلقة بنرسل أو بمحذوف حال بمعنى مع والمفعول محذوف وهو صاحب الحال أى تبشيراً نرسلك أو نرسل الرسل مطلقاً .

﴿ وَإِذْ ﴾ أى واذكر ﴿ قُلْنَا لَكَ ﴾ . وروى أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ شكا إلى الله تعالى أمر قومه ، يارب تخوفت فاعطنى آية على أن لا مخافة على . فقال : ائت وادى كذا وفيه شجرة تدعو غصناً منها ففعل ، فجاءه الغصن يشق الأرض حتى وقف بين يديه ،فحبسه ما شاء الله أن يحبسه ثم قال ارجع كما جئت ، فرجع . فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ يارب لا مخافة على ، وقيل أحاط بضلال الناس واهتدائهم فلا تهتم بكفر من كفر .﴿ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ ﴾ أحاط بهم علمه وقدرته فهم فى قبضته لا يتصرفون بما يريد فبلغ الرسالة ولا تخف فإنه يعصمكم من الناس . قاله السدى والحسن والطبرى فذلك إشارة إلى نحو قوله والله يعصمك من الناس، ويجوز أن يكون المراد بالناس

قريشاً والإحاطة بهم إهلاكهم يوم بدر ، يقال أحاط العدو بفلان تريد أنهم قتلوه ، فالتعبير بالماضى لتحقق الوقوع بعدو لابد،فإن الآية مكية وإهلاكهم بعد الهجرة أو إحاطته بهم أنه أوعد إهلاكهم وأنهم كالإنسان المحبوس فى بيت أحاط به جدره،يقتل إذا جاء وقت قتله ، وذلك إشارة إلى نحو قوله سيهزم الجمع وقوله قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون ، وكان يوم بدر فى العريش مع أبى بكر يدعو اللهم إنى أسالك عهدك ووعدك ، ثم خرج وعليه درع يحرض الناس ويقرأ سيهزم الجمع ويولون الدبر وأراه الله تعالى مصارعهم فى المنام حين ورد ماء بدر ونام ،وكان يقول :هذا مصرع فلان غدا ،هذا مصرع فلان غدا .فسمع قريش فضحكوا واستهزءوا واستعجلوا ؛وإلى هذه الرؤيا أشار الله سبحانه وتعالى بقوله : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِى أَرَيْنَاكَ ﴾إياها وهى إراءتهُ إياه فى المنام مصارع القوم . ﴿ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ ﴾أهل مكة فى دين الله إذ تضاحكوا واستهزءوا واستعجلوا هكذا قيل ؛والأشهر أن جبريل أراه مصارعهم فى اليقظة ، وقيل إنه رأى فى المنام قوماً من بنى أمية يتداولون منبره كما تداول الكرة ، وقيل يثبون على

منبره كما تثب القردة فساءه ذلك،واستيقظ وفسرها بأن ذلك حضر
بنىأمية يعطونه بإسلامهم وعليه فالمراد بالفتنة ماحدث فىأيامهم للناس
عموماً من الزلل والضلال فى القتال والملك وغيرهما . وقال ابن عباس :
المراد ما رأى النبى - صلى الله عليه وسلم-عام الحديبية أنه دخل مكة
هو وأصحابه فعجل السير إلى مكة قبل أن يؤمر به فصده المشركون
من الحديبية فرجع للمدينة فافتتن بعض المؤمنين بوسواس الشيطان
أنه ليس نبياً، إذ كان أخبرهم أنه يدخلها فلم يدخلها ودخلها فى العام
المقبل واعترض هذا القول بأن الآية مكية وقصة الحديبية مدنية
وأجيب بأنه رأى الرؤيا بمكة وحكاها عام الحديبية . وقال الجمهور
إن الرؤيا رؤيا لليلة المعراج المذكورة فى أول السورة،وتعلق بذلك من
قال إن ذلك فى المنام ، ومن قال إن ذلك فى اليقظة فسر الرؤيا بالرؤية
وهو قول عن ابن عباس إلا أنه نفى أن يكون رأى ربه تعالى الله ،
وبه قال ابن جبير والحسن وقتادة ومجاهد وعكرمة وغيرهم ، وقيل
سرى بروحه وجسده ونسب لأصحابنا وضعف،والصحيح عندى أنه
فى اليقظة ، وقيل معراجان : معراج يقظة ، ومعراج نوم ، وتقدم ذلك

كله وعلى ذلك فالفتنة تكذيب بعض من آمن وارتداده وتكذيب المشركين أنه باغ بيت المقدس والسماء السابعة ورجع فى ليلته ورأى ما رأى فى طريقه وبيان ذلك أنه لما رجع من السماء منصرفاً إلى مكة على البراق مر بقافلة لقريش ، ويقال للقافلة العير بكسر العين وأتى بالفتح فالحمار فانظر ما مر فى سورة يوسف،فيها جمل عليه غرارتان سوداء وبيضاء ، فلما حاذى - صلى الله عليه وسلم - الإبل نفرت واستدارت وصرع ذلك البعير وانكسر ، ومر بقافلة ضل لها بعير ورأى من جاء به ورده إليهم ، وصرح بعضهم أن البعير الضال ناقة ، فسلم عليهم ولعل ذلك كان قبل تحريم السلام على المشرك ، وقال اللقانى : لعل المراد السلام اللغوى وهو الأمان ويحتمل أن المراد الشرعى وفعله بيان للجواز أو لعل هذا مذهبه ، أما مذهبنا ومذهب الشافعية تحريم بداءة مشرك بالسلام ولو ذميا فإن ظهر أنه مشرك بعدما سلمت عليه فقل له اردد سلامى ، وإن سلم فقل وعليك وإن سلمت على قوم هو فيهم فاستثنه ولو بقلبك ، والواضح عندى أن تقول السلام عليكم غير فلان أو السلام على غير فلان ، أو السلام على فلان وفلان وفلان

بتعديد المسلمين إن لم يشق أو السلام عليكم أيها المسلمون أو السلام على من تبع الهدى ، كما تكتب إليه كتابا فإنك تبدأه بقولك سلام على من اتبع الهدى ،ولماسلم عليهم قال بعضهم : هذا صوت محمد ، وكان معهم قدح ماء فشربه ثم انتهى إلى عير بالتنعيم ثم أتى أهله قبيل الصبح بمكة ونزل عن البراق وارتفع البراق من موضعه إلى موضعه فى الجنة بنفسه أو مع جبريل أو غيره وكان الإسراء ليلا لأنه وقت الخلوة ولأنه وقت الصلاة المفروضة عليه فى قوله عزوعلا: قم الليل وليكون أبلغ للمؤمن فى الإيمان وفتنة للكافر وقعد بقية الليل فى بيته ثم مضى إلى المسجد وقد اشتد عليه الأمر يعرف أن الناس يكذبونه ،وقعد فيه حزيناً فمر به عدو الله أبو جهل وهذه كنيته واسمه عمرو بن هشام وهو فرعون هذه الأمة فجاءه حتى جلس إليه فقال له : هل كان من شىء وذلك منه استهزاء لعنه الله :

فقال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ نعم . قال : ما هو . قال : أسرى بى الليلة . قال : إلى أين ؟ قال : إلى بيت المقدس . قال : ثم أصبحت بين ظهرانينا . قال: نعم. فلم يعزم أبو جهل أن يبادر إليه

بالتكذيب مخافة أن لا يذكر له الحديث إن دعا قومه إليه . قال : أرأيت إن دعوت قومك أتحدثهم بما حدثتنى به . قال : نعم . قال : يامعشر بنى كعب بن لؤى، خص بنى كعب ليجمع قبائل قريش وذلك حرص على تكذيبه وإذاعة كلامه وتصديق الناس له فى تكذيبه إياه ، فانفض إليه أهل المجالس وجاءوا حتى جلسوا إليهما . فقال : حدث قومك بما حدثتنى به ، ولم يقل قال لى محمد كذا مخافة أن يسكت محمد فلا يقول نعم قلت ذلك ، فقال-صلى الله عليه وسلم- إنى أسرى بى الليلة ، ثم ذكر لهم المعراج إلى السماء ليتدرجوا . قالوا : إلى أين ؟ قال : إلى بيت المقدس . قالوا : ثم أصبحت بين ظهرانينا أى بيننا فظهرانى مقحم أو الأصل بين ظهرنا فزيدت الألف والنون تأكيداً ويعرب كالمثنى ومعناه أن ظهراً منهم قدامه وظهراً منهم وراءه فهو محفوف بهم من جانبيه . قال : نعم أصبحت بين ظهرانيكم فجعل بعض يصفق وبعض يضع يده على رأس نفسه تعجباً وضجوا وعظموا ذلك،وفى بعض العبارات فمن بين مصفق ومن بين واضع . . إلخ . أى فهم محصورون فى مصفق وواضع يده . . الخ . فقال المطعم

ين عدى : كل امرك قبل اليوم كان أمما ، أى سهلا خفيفاً ممكنا غير قولك اليوم ، أنا أشهد أنك كاذب ، نحن نضرب أكباد الإبل إلى بيت المقدس مصعداً شهراً ومنحدراً شهراً ، تزعم أنك أتيته فى ليلة ، واللات والعزى لا أصدقك . وقوله نضرب أكباد الإبل بمعنى نضرب مجاور أكباد الإبل أو من إطلاق الحال على المحل والمعنى نضرب الإبل وذلك هو الضرب نحو العصى ولكنه كناية عن السفر على الإبل وقوله مصعدا الخ . . أى كل منا حال كونه مصعداً ويجوز فتح العين على المصدر من أصعد فى الأرض إذا توجه مستقبلا أرضاً أرفع منها أى حال كوننا مصعدين أى ذاهبين أو ذهاباً شهراً أى مدة شهر و منحدراً شهراً أى راجعين أو رجوعاً كذلك . فقال أبوبكر : يا مطعم بيس ما قلت لابن أخيك جبهته أى مستقبلته بمكروه وكذبته أنا أشهد أنه صادق وأن ما سماه ابن أخيه من حيث القبيلة أو على وجه المدح بالشفقة فى معرض الذم وإنما أسرى به إلى بيت المقدس لأنه فى محل المحشر فسهل لأمته بوطىء قدمه صلى الله عليه وسلم إذا حشروا فيه ولأنه مجمع أرواح الأنبياء فشرف الله الأنبياء بزيارته صلى الله عليه وسلم وليخبر المشركين بصفات بيت المقدس فيجدوا وصفه موافقا فقال

المشركون كالمطعم يا محمد صف لنا بيت المقدس كيف بناءؤه وكيف هيئته من طول وغيره وكيف قربه من الجبل وفى القوم من سافر إليه وقبل القابل له صفه لنا أبو بكر إقامة لبرهان صدقة فشرع صلى الله عليه وسلم ينعت لهم ويقول بناؤه كذا وهيئته كذا وقربه من الجبل كذا فما زال ينعت لهم حتى التبس عليه النعت فاشتد عليه الأمر اشتدادا ما رأى مثله فجىء بالمسجد وهو ينظر إليه حتى وضع دون دار عقيل أو عقال أى فى موضع أقرب إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - من دار عقيل وأقرب إليه من عقال البعير إلى البعير وعقيل أخو على أسن من على بعشرين سنة مات فى خلافة معاوية بعد ما عمى وقيل فى أول خلافة يزيد بن معاوية وهو الذى قال له معاوية ما لكم يا بنى هاشم تصابون بأبصاركم فقال كما تصابون ببصائركم يا بنى أمية فقال الكفار له - صلى الله عليه وسلم - كم للمسجد من باب ولم يكن عدها فجعل ينظر إليها بابا بابا ويعلمهم وأبو بكر رضى الله عنه يقول صدقت صدقت أشهد أنك رسول الله فقالوا أما النعت فوالله لقد أصاب وأما دعوى أنه ذهب إلى بيت المقدس وعاد فى ليلته فلا نصدقه فيها قالوا لأبى بكر افتصدقه أنه

ذهب الليلة إلى بيت المقدس وجاء قبل أن يصبح قال نعم أنى لا أصدقه فيما هو أبعد من ذلك أصدقه فى خبر السماء فى غدوة أو روحه فبذلك لقب الصديق ولقب بعتيق أيضا واسمه فى الجاهلية عبد الكعبة فسماه النبى – صلى الله عليه وسلم – عبد الله وإشتهر بكنيته وهو أول من لقب فى الإسلام ثم قالوا يا محمد أخبرنا عن عيرنا فقال أتيت على عير بنى فلان بالروحاء هو بلد على نحو أربعين ميلا من المدينة الشريفة قد أضلوا ناقة لهم فانطلقوا فى طلبها فانتبهت إلى رحالهم وليس بها منهم أحد وإذا بقدح ماء فشربت منه وإنما شرب بغير إذن صاحب الماء وليس مال الكفار مباحا حينئذ لأن العرب ترضى بذلك وكان عرفهم إباحة اللبن لابن السبيل وكانوا يشترطون على رعاتهم أن لا يمنعوا اللبن مر بهم فكيف الماء وذكروا فى الخصائص أنه أبيح له أخذ الطعام والشراب من ما لكنهما المحتاج إليهما إذا احتاج وإنه يجب على صاحبهما البذل له قال الله تعالى النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم وإنتبهت إلى غير بنى فلان بمكان كذا فيها جمل أحمر عليه غرارة سوداء وغرارة بيضاء فلما حاذيت البعير نفرت وصرع

ذلك البعير وإنكسر ثم انتبهت إلى عير بنى فلان فى التنعيم وهو على

على ثلاثة أميال من مكة ويسمى مساجد عايشة تقدمها جمل ورق وهو

الذى يبين بياض وسواد وفى رواية جمل آدم عليه مسح أسود

وغرارتان سودوان والمسح جل تحت الرجل وها هى ذى تطلع عليكم

من الثنية والإشارة التى فى الروحاء لقرب التنعيم جدا والمعراج كان

ليلة الاثنين على المختار ولأنها التى ظل منها بعير قالوا فمتى

تجىء قال يوم الأربعاء فلما كان ذلك اليوم أشرفت قريش

ينتظرون وقد ولى النهار ولم تجىء العير فدعا النبى – صلى الله

عليه وسلم – الله الرحمن الرحيم سرا وحبست له الشمس مدة

من الزمان على قدر ما يجىء العير كما وقفت ليوشع قال

السبكى :

وشمس الضحى طاعتك بعد مغيبها فما غربت بل وافقتك بوقفة

فطلعت العير فقالوا الأهل الإبل هل ضل لكم بعير ثم وجدتموه قالوا نعم قالوا

فهل عندكم قصعة من ماء وهى القدح المذكور فقال رجل أنا والله وضعتها

فما شربها أحد منا ولا أهرقت فى الأَرض أى ولا صبت . فقالوا : هل انكسرت لكم ناقة حمراء . قالوا : نعم . فرموه بالسحر ، وقالوا صدق الوليد فى قوله إنه ساحر ، فأَنزل الله سبحانه وتعالى : « وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس » وهى رؤية البصر ، لقوله فتنة للناس لأَن ذلك لو كان فى المنام لم يكذبوه ولم يفتتنوا به أو سميت الرؤية رؤيا لشبه أمر الغيب بأَمر الرؤيا النومية فاستعير لفظ الرؤيا المرؤية استعارة تصريحية أصلية تحقيقية . ﴿ وَالشَّجَرَةَ ﴾معطوف على الرؤيا أى وما جعلنا الرؤيا التى أريناك والشجرة الملعونة فى القرآن إلا فتنة للناس وقرىء بالرفع أى وكذلك الشجرة الملعونة فى القرآن والقراءتان فى لفظ الشجرة ولفظ الملعونة لأَنه نعت وهى شجرة الزقوم ينبتها الله فى النار . ﴿ الْمَلْعُونَةَ فِى الْقُرْآنِ ﴾أى الملعون آكلوها وهم أصحاب النار فحذف المضاف،ولعن أصحاب النار فى القرآن كثير،رأيت هذا مروياً عن ابن عباس ذكره ابن جرير الطبرى ومروياً عن الحسن أو وصفت باللعن لأَنها تجاور الملعونين وعلى هذا الوجه فقوله فى القرآن تابع لأَصل هذا المجاز،لأَن الوصف باللعن حقيقة لأَصحاب

النار أو وصفت باللعن لأنها ذكرت فى الآية الأخرى بصفة ذم وشتم
وهى أنها فى أصل الجحيم وأنها طعام الأثيم ، وفى القرآن متعلق بملعونة
وقيل ملعونة بمعنى كريهة تقول العرب لكل طعام كريهة إنه ملعون
فعلى هذا يتعلق فى القرآن بملعونة أيضاً على معنى أنها ذكرت فيه
بما يدل على أنها كريهة مثل كونها فى أصل الجحيم وكونها طعام الأثيم
أو بمحذوف هو حال أى مذكورة فى القرآن وقيل وصفت باللعن
لأن اللعن الإبعاد من الرحمة وهى فى أصل النار فى أبعد مكان من
الرحمة ،وإن قلت فما الفتنة التى جعل الله بالشجرة المذكورة . قلت :
لما سمع المشركون ذكرها قالوا : محمد يزعم أن النار تحرق الحجارة
ثم يقول : تنبت فيها شجرة . قال ذلك أبو جهل فى كلامه هذا
يا ابن أبى كبشة ، وأبو كبشة هو زوج مرضعته وقال : وما نعرف
الزقوم إلا الزبد مع التمر ياجارية زقمينا . فأتت بزبد وتمر ، فقال :
ياقوم تزقموا فإن هذا ما يخوفكم به محمد ، وقال عبد الله بن الزبعر :
أتخوفنا بالزقوم ولا نعرف الزقوم إلا الزبد والتمر. فذلك فتنة لهم
فى دينهم بتلك الشجرة ، وافتتن بقولهم أيضاً بعض الضعفاء

وما قدروا الله حق قدره فإن قدرة الله صالحة لذلك وأدنى وأعظم .

روى أن لبلاد الترك دويبة تسمى السمندل تتخذ المناديل من وبرها، وإذا اتسخت طرحت فى النار فيذهب الوسخ فيبقى المنديل سالماً لا تؤثر فيه النار ، وترى النعامة تبلع الجمر وما يضرها ، وتبلع قطعة الحديد المحماة بالنار حتى صارت حمراء كالجمرة فلا تضرها ، وقد خلق الله جل وعلا فى كل شجرة ناراً فلا تحرق الشجرة ولا ماء الشجرة ورطوبتها يبطل النار ، ومن قدر على ذلك يقدر أن يخلق فى النار شجرة لا تحرقها وتفسير الشجرة بشجرة الزقوم تفسير للجمهور ومجاهد ، وفى رواية عن ابن عباس أنها الكشوث الذى يلتوى على الشجرة والشوك فيجففه ،وذكرها فى القرآن على هذا هو ذكر الشجرة الخبيثة فى سورة إبراهيم عليه السلام على أنها الكشوث ، وقيل هى إبليس ، وقيل أبو جهل ، وقيل الحكم بن أبى العاصى ، وإن قلت : قال بعضهم يصح أن يريد الملعونة هنا فأكد الأمر بقوله فى القرآن هل يصح قول هذا البعض . قلت : لا يصح لأنها لم تلعن فى هذه الاية ولا فى هذه السورة إلا بقوله الملعونة وهو إخبار عن لعن مذكور واقع

اللهم إلا إن أراد بالملعونة إن شاء اللعن لا الإخبار وهو وجه ضعيف لا يحمل عليه القرآن لأن المعروف فى الأشياء الجمل لا الاسم . ﴿ وَنُخَوِّفُهُمْ ﴾ أى كفارمكة بأنواع التخويف . ﴿ فَمَا يَزِيدُهُمْ ﴾ تخويفنا أو ما تخوفهم به . ﴿ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴾ عتوا متجاوزاً للحد عظيماً .

﴿ وَإِذْ ﴾أى واذكر إذ . ﴿ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ ﴾سجود خضوع أو سجود انحناء تحية وتعظيماً له لا عبادة بل عبادة الله جل وعلا . ﴿ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيس قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾حال من هاء المحذوفة رابطة بين الصلة والموصول أى خلقته وهو طيناً أو حال من الموصول وهو من كأنه قيل أأسجد له وهو طين فى الأصل أو منصوب على نزع الخافض أى لمن خلقته من طين ومجىء الحال جامدة جائز شائع إذا كان أصلا لصاحبه ،كما هنا فإن الطين أصل لمن خلق منه وهو آدم ومن ذلك اشتريت الخاتم ورقاً فإن الورق بكسر الراء أصل للخاتم ، ذكره ابن هشام وغيره وفى ذكر إبليس الطين إشارة إلى علة الإنكار وذلك أن الاستفهام فى قوله : أأسجد للإنكار أنكر أن يستحق آدم السجود منه مع أنه إنما خلق من الطين ، قيل خلق من

عذب الأرض ومحلها فمن خلق من العذب فهو سعيد ، ومن خلق من الملح فهو شقى واستفهام الإنكار قسمان أحدهما إنكار كون الشيء صواباً سواء كان غير واقع أو واقعاً والآخر إنكار الوقوع أو عدم الوقوع .

﴿ قَالَ ﴾ إبليس . ﴿ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِى كَرَّمْتَ ﴾ فضلت . ﴿ عَلَىَّ ﴾ والكاف فى أرأيتك حرف خطاب واسم الإشارة مفعول به والذى نعت أو بيان أو بدله والمفعول الثانى محذوف دلت عليه الصلة فعلق بالاستفهام أى أرأيت هذا الذى كرمت على لم كرمته على والمعنى أخبرنى عن هذا الذى كرمته على بأن أمرتنى بالسجود له مع أنه من طين وأنا من نار لم كرمته على وذلك أن العلم بالشيء سبب الإخبار عنه وملزوم له ، فصح التعبير بما وضع للعلم وهو الرؤية عن الاخبار وقيل المعنى أتأملت وهو جطاء من إبليس لأن الله جل جلاله لا يتأمل فإن التأمل صفة الجاهل العاجز . ﴿ لَئِنْ أَخَّرْتَنِى إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ وهو وقت نفخة الموت فإنما بعد نفخة الموت يوم لا غاية له يقوم الناس فى بعض من قبورهم واللام دالة على قسم مقدر قيل إن الشرطية توطئ له الجواب وهو قوله : ﴿ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ ﴾ أقطعنهم من أصلهم

عن دينك بالإغواء قال له ابن جرير الطبرى وهو من احتنك الجراد الأرض إذا جرد ما عليها بالأكل وهو مأخوذ من الحنك والحنك اللحى فكأنه مثل إغواءهم بجعل الحيوان اللقمة فى فمه بين أشداقه ويجوز أن يكون المعنى لا يسلن باحناكهم على أنه تمثيل لإمالتهم عن دين الله، كقولك حنكت الدابة إذا شددت على حنكها بحبل أو غيره فتنقاد ، ويقال احتنكت السنة المال أى جرته ، وأما قول ابن عباس أن المعنى لأستولين ، وقول ابن زيد لأضلن فبيان للمقصود لا تفسير مناسب للتصريف ﴿ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ لاأطيقهم وهم المخلصون المعصومون عن الموت على الإصرار وإن قلت من أين علم لعنه الله أنه يتشهل له احتناكهم قلت : إن قلنا . قال ذلك قبل أكله من الشجرة وهو الظاهر فإنما علمه من وصف الملائكة لهم بالإفساد والسفك ، إذ قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء أو علمه من كون آدم صاحب وهم وشهوة وغضب وكونه أجوف لا يتمالك ، وإن قلنا أنه قال ذلك بعد الأكل من الشجرة فإنما علمه من تأثير ووسوسة فيه .

﴿ قَالَ ﴾ الله تبارك وتعالى . ﴿ اذْهَبْ ﴾ امضى لشأنك الذى قصدته

وهو التأخير إلى وقت نفخة الموت. فقد قضيته الك وليس المراد ضد المجيء وعلى جواز استعمال الكلمة فى حقيقتها ومجازها يجوز حمل اذهب على مضيه لشأنه الذى قصده وسواته له نفسه والخروج من الجنة﴿ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ ﴾ أى من ذرية آدم على الضلالة . ﴿ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ ﴾ هذا من تغليب الخطاب على الغيبة وأصل الكلام جزاؤك وجزاؤهم أى جزاء من اتبعك وسيق الكلام للكل بطريق الخطاب ويجوز أن يكون الخطاب لمن تبعه فقط عن طريق الالتفات من الغيبة إلى الخطاب لتأكيد الجزاء وزيادة التهديد بالخطاب وعلى الوجهين أفرد ضمير من فى تبع للفظ وجمع فى جزاؤكم للمعنى ولا يقال أفرده أيضاً فيه على أن الكاف فى جزاءكم الاثنين فقط ، عدو الله ومن تبعه وأن الأصل ومن تبعكما لأن هذا خلاف الأصل فيحتاج إلى دليل . ﴿ جَزَاءً ﴾مفعول مطلق منصوب بجزاء الأول هذا ما اشتهر وهو إنما يصح على إبقاء لفظ الجزاء الأول على المعنى المصدرى ويحتاج فى إبقائه عليه إلى تقدير مضاف أى فإن عذاب جهنم جزاؤكم أو فإن جهنم قاضية جزاءكم والجزاء العقاب : وأما إن قلنا الجزاء بمعنى ما

يجازون به وهو جهنم فجزاء مفعول مطلق لمحذوف أى تجزون بها جزاء قبل أو لما فى جزاؤكم من معنى تجازون أو حال ولو كان جامدا لوصف بمشتق فهو حال موطئة والمشتق هو قوله . ﴿ مَّوْفُورًا ﴾أى مكملا وهو اسم مفعول وفر المتعدى ، يقال وفر لصاحبك عرضه وفرة من باب وعد،ويستعمل وفرًا أيضاً لازماً بمعنى كامل،وذكروا أن إبليس أعاذنا الله منه كان يطوف بآدم قبل أن ينفخ فيه الروح فرآه أجوف فعرف أنه لايتمالك أى لا يصير ملكاً أو لا يستقل عن الحاجات من أكل وشرب وغيرهما فيكون محلا للغضب والشهوة والمعصية .

﴿ واسْتَفْزِزْ ﴾استخف. ﴿ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم ﴾أن تستفزه إلى المعاصى يقال رجل فزاى خفيف﴿ بِصَوْتِكَ ﴾ أى بدعائك بالوسوسة إلى المعصية والفساد . قاله ابن عباس وكل داع إلى المعصية فهو من جنس إبليس ودعاؤه إليها دعاء إبليس إليها لأنه الأمير له الموسوس وكل دعاء إلى المعصية دعاء من إبليس بنفسه أو بالواسطة ، وقال مجاهد صوته الغناء والمزامير والملاهى واللعب ، والأول أحسن لأنه أعم . ﴿ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم ﴾هول عليهم من الجلبة وهى الصوت الهائل الكثير

المتخلل . ﴿ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ ﴾ بأعوانك من راكب وماشى ، والخيل راكبو الأفراس ، كقوله - صلى الله عليه وسلم - ياخيل الله اركبى ، والتعبير بالياء فى اركبى باعتبار ما وضع له لفظ الخيل فى الأصل أو باعتبار جماعة الراكبين والرجل اسم جمع واحده راجل كراكب وركب وصاحب وصحب بفتح الأوائل ، وقرأ حفص رجلك بكسر الجيم وقرأ بضمها ،وذلك ثلاث لغات وقرىء رجالك بضم الراء وفتح الجيم مشدداً بعده ألف جمع راجل ورجالك كذلك لكن بدون الف كراكع وركاع وركع وقرأ الحسن رجالك بالكسر والتخفيف جمع رجل بفتح فضم وخيله ورجله الفرسان والمشاة الذين على الضلالة والإضلال من الجن والإنس بعد ما يغويهم فأصوات الفرسان والمشاة الغاوين أصوات لإبليس إذا كانت أصواتهم فى الإظلال والوسوسة وذلك منه -لعنه الله- كيد واحتيال واستعانة بمن كفر على من لم يكفر ويجوز أن يكون مجازياً للاستعارة التمثيلية بأن شبه اجتهاده فى الإغواء بإغارة مغوار على قوم بفرسانه ومشاته حتى استأصلهم وبالأوجه الأول قال مجاهد والحسن ؛ وقيل إن له فرساناً ومشاة من الجن تمشى

فى الإضلال كجند السلطان . ﴿ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ ﴾ بحملهم على جمعها من الحرام كالربا والغرر والسرقة والغصب والرشوة ومنع الزكاة ومن الغناء والمزمار وسائر ما لا تحل عليه الأجرة وعلى إنفاقها فيما لا يحل كإنفاق فى الزنا والمزمار ، وكتصيير البعير بحيرة أو سائبة أو وصيلة أو حام والذبح للأصنام ، وهذا أولى من قول بعض أن المراد ما يذبحون للأصنام وما يحرمون كالبجيرة ﴿ وَالْأَوْلَادِ ﴾ فالحمل على التوصل إلى الولد بالسبب الحرام كالزنا والنزوج ما لا يحل ودعوى الولد بغير سبب والإشراك فيه بالتسمية كتسمية عبدالعزى وعبد اللات وعبد منات وعبد شمس وعبد الحارث وعلى الحمل على الأديان الزائغة كعبادة الصنم واليهودية والنصرانية والمجوسية وعلى الأفعال والأقوال والاعتقادات المحرمة ، ومن ذلك وأد البنات . وعن ابن عباس أنه المراد فى الآية وعند التسمية باسم الشرك كعبد العزى وعبد شمس وقيل أولاد الزنى ، وقيل الترغيب فى الدين الباطل والتعميم أولى وأدخل النقاش فى ذلك وطء الجان الإنسية وأنها تحمل منه . وذلك أن الرجل إذا لم يذكر اسم الله وقت إرادة الجماع أو تعرى أصاب

الشيطان معه امرأته وأنزل معه فى فرجها كما ينزل الرجل ، ويدل للوطء ظاهر أحاديث ، قيل منها قوله – صلى الله عليه وسلم – لو أن أحدكم إذا أراد أن يأتى أهله قال : بسم الله اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان مارزقتنا فإن قدر بينهما ولد لم يضره الشيطان أبداً ، فإن قوله اللهم جنبنا . . الخ . مع قوله إذا أراد أن يأتى أهله يقتضى أن اللعين مشاركه ما فى هذا ، وسأل رجل ابن عباس أن امرأته استيقظت وفى فرجها كشعلة نار . قال ذلك من وطء الجان . وذكر أبو الحسن على بن عثمان الزواوى المشانجلات من علماء بجاية أنه حدثه بعض الناس ممن يوثق به أن زوجته تجد هذا الأمر . قال محدثه وأصغيت إلى ما أخبرت به زوجتى فسمعت حس ذلك وأما الحمل من وطء الجان فقيل لم نر فيه حديثاً صحيحاً ولا سقيماً ، وأنه لو كان كما قال النقاش الكان شبهة يدرأ بها الحد من ظهر بها حمل ولا زوج لها لاحتمال أن يكون من وطء الجان ، وقد يبحث فيه بأنه إنما يكون شبهة لو ادعته لا أن سكتت وبان فى بعض الأخبار أن فيكم معربين . قيل : وما المعربون . قال : الذين شارك فيهم الجن

﴿ وَعِدْهُمْ ﴾ المواعد الباطلة فى اتباعك على الضلالة كقولك لا جنة ولا نار ، وقولك لا بعث ، وقولك إن الأصنام تشفع لعابديها ، وقولك إن الإنسان يكون عند الله كريما لكرامة آبائه أو شرف نسبهم ، وأمرك بتسويف التوبة وإطالة الأمل من مغفرة الذنوب بدون التوبة والاتكال على الرحمة وشفاعة الرسول فى الكبائر والخروج من النار بعد أن صاروا حمماً ، وإيثار العاجل على الآجل ونحو ذلك مما يغر به المشرك والموحد أو كليهما ، فإذا قرر الانسان أنه لا بعث أو لا جنة ولا نار لم تكن له حاجة فى عبادة الله ولا مخافة فى معصيته تعالى ، فحينئذ يرغب فى الشهوات والأوامر فى الآية كلهن للتهديد كقوله اعملوا ما شئتم ، وقولك اجتهد جهدك فسترى ما ينزل بك ، والا فإن الله جل جلاله لا يأمر بالفحشاء . ﴿ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ ﴾ بذلك . ﴿ إِلَّا غُرُورًا ﴾ إلا باطلا وأصله مصدر استعمل بمعنى ما وقعت الخدعة وهو بالمعنى المصدرى تزيين الخطأ بما يوهم أنه صواب لأنه يدعو إلى طاعة نفسه ، وينهى عن طاعة الله وإلى طلب الرياسة ونحوها من الأمور الشاقة وطلب اللاذات اللذات ، فقد ينال الإنسان ذلك وقد لا ينال

مع تعب عظيم فإن ناله فليس يصفو به بل يتكدر بالهرم والمصائب والزوال وموته ويعقبها عقاب لا يطيقه ولا ينقطع فلا غرور أعظم من ذلك . والجملة معترضة لبيان مواعيده أنها باطلة ويحتمل أن لا تكون معترضة بأن يجعل ذلك من وضع الظاهر موضع المضمر وأن الأصل وما تعدهم إلا غروراً .

﴿ إِنَّ عِبَادِي ﴾ أي عبادي المؤمنين بدليل قوله إلا من اتبعك من الغاوين ويرشد أيضاً إلى ذلك الإضافة التي هي هنا للتعظيم إذ لا صارف عن التعظيم فكأنه قيل إن العباد الذين اخترتهم وأخلصتهم لي ويناسبه قوله إلا عبادك منهم المخلصين. ﴿ لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾ قوة تطيق بها اغواءهم . ﴿ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً ﴾ حافظاً لهم منك والوكيل يستعمل بمعنى الحافظ أو كفى بربك وكيلا يتوكلون عليه في الاستعاذة منك وفي كتب عجائب الدنيا وغيرها أن إبليس قال : يارب أخرجتني من الجنة لأجل آدم فسلطني عليه وعلى ذريته . قال :أنت مسلط . قال : لا أستطيعه إلا بك . قال استفزز من استطعت منهم . . الخ . قال : يارب تبعث أنبياء وتنزل كتباً فما قراءتي .

قال : الشعر . قال : وما كتابى . قال : الوشم . قال : ومن رسلى :
قال : الكهنة . قال : ما طعامى . قال : ما لم يذكر اسم الله عليه .
قال : ما شرابى . قال : كل مسكر . قال: ما مسكنى . قال : الحمامات.
قال : ما مجلسى . قال : الأسواق . قال : وما شراكى الذى أصطاد
به . قال : النساء . قال : ما أذانى . قال : المزمار . وقال آدم يارب
سلطت إبليس على ، وعلى ذريتى وإنى لا أستطيعهُ إلا بك . قال لا يولد
لك ولد إلا وكلت به من يحفظه . قال : رب زدنى . قال : الحسنة
بعشر وأكثر والسيئة بمثلها . قال: رب زدنى . قال : التوبة مقبولة
ما دام الروح فى الجسد . قال : ربى زدنى .قل ياعبادى الذين أسرفوا على
أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ـ الآية . وفى قوله وكفى بربك وكيلا
دفع للخوف الحاصل فى قلب الإنسان من كيد الشيطان فإنه تعالى
رحيم بعباده وقدير على عصمتهم من إغوائه .

﴿ رَبُّكُمُ الَّذِى يُزْجِى لَكُمُ الْفُلْكَ ﴾ يدفعها بالريح اللينة والمجاديف
إذ الهمكم المجاديف فكأنه قيل يسوقها. ﴿ فِى الْبَحْرِ ﴾ حال من الفلك
أو يتعلق بيزجى . ﴿ لِتَبْتَغُوا ﴾ تطلبوا بالكسب الأرباح وأنواع الأمتعة

كان عندكم مثلها أو لم تكن . ﴿ مِن فَضْلِهِ ﴾من سعة رحمته . ﴿ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً ﴾ بخلق ما تحتاجون إليه وتسخير الفلك لتتوصلوا بها إليه .

﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي البَحْرِ ﴾هو اضطراب البحر وتموجه وانكسار بعض السفينة وانقطاع بعض آلاتها ووقوعها فى الدردور وجذورها ماسة لجبل من تحت أو من جانب أو نحو ذلك من أهوال البحر التى يخاف منها الغرق ،ولك أن تفسر الضر بخوف الغرق لشىء من نحو ما ذكرنا .﴿ ضَلَّ ﴾ غاب ذهب عن قلوبكم ﴿ مَن تَدْعُونَ ﴾ تعبدون أو تطلبون فى حوادثكم من الأصنام﴿ إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ إلا الله سبحانه وتعالى فإنه يحضر فى قلوبكم حينئذ فتدعونه وحده لأنكم تعلمون أنه لا يكشف ذلك الضر إلا هو ،ويجوز أن يكون المعنى غاب ما تدعونه عن غاثتكم من الأصنام إلا الله،وقد علمت من إيقاع من على الأصنام أن الاستثناء منقطع فى وجهين، ويجوز أن بقاعها على ما يدعونه مطلقاً بحيث يعم الظاهر اللفظ الله جل جلاله وتلك الأصنام ،على أنهم قد يدعون الله فيكون الاستثناء متصلا .﴿ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى البَرِّ ﴾

من الغرق ﴿ أَعْرَضْتُمْ ﴾عن التوحيد وأقبلتم على الأصنام . ويجوز أن يكون المعنى كفرتم كفراً عريضاً أى واسعاً كقول ذى الرمة يذم شخصاً :

عطاء فتى تمكن فى المعالى   فأعرض فى المكارم واستطالا

أى اتسع فى كفران المكارم بعد شكرها ، واستطال فى كفرانها . ﴿ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ﴾ جاحد للنعم جحوداً عظيماً كثيراً بعدم الشكر والإنسان الجنس ، وفى هذا إيماء لعلة الإعراض كأنه قيل أعرضتم لإنسان كفور .

﴿ أَفَأَمِنتُمْ﴾ الهمزة للاستفهام الإنكارى أى أمنكم غير صواب وهى من جملة المعطوف ولكن لكمال صدريتها تقدمت على العاطف والعطف على أعرضتم،ويجوز كون الهمزة داخلة على معطوف عليه محذوف أى أنجوتم فأمنتم ومعنى الفاء على الوجهين السببية ﴿ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ ﴾ كقارون وقوم لوط أى أن يدخلكم الله فى جانب البر فتكونوا فى داخل الأرض، كما يكون الغريق فى داخل الماء ، فإن القادر على إغراقكم فى البحر قادر على الخسف بكم فإن الإغراق تغييب

تحت الماء والخسف التغييب تحت التراب .والبر والبحر سيان عند الله عز وجل ، وكلاهما ملك له فعلى العاقل أن يستوى خوفه من الله براً وبحراً .ومصدر يخسف مفعول أمن ،وبكم متعلق بيخسف وباؤه للتعدية معاقبة للهمزة وجانب ظرف .وقيل إن الباء بمعنى على متعلقة بمحذوف حال أى نقلبه وأنتم عليه أو للسببية متعلقة بخسف .وأن جانب مفعول يخسف يعنى أن صاحب الحال هو جانب وإدعاء الحالية هنا سهو وإنما تصح على أن الباء للإلصاق أو المعية وفى ذكر الجانب تلويح لأن فى كل جانب سبب هلكة ،والجهات كلها سواء عنده ولكنه بمنه وكرمه يحفظ الخلائق وتلويح بسرعتهم إلى الكفران والإعراض بعد التنجية ،فعندما وصلوا جانب البر وهو ساحله كفروا وأعرضوا . وقرأ ابن كثير وأبو عمر نخسف أو نرسل أو نغرقكم بالنون فى الخمسة . ﴿ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ ﴾من السماء ﴿ حَاصِبًا ﴾أى حصباء وهى الحجارة الصغار كما أرسلنا الحجارة على قوم لوط الخارجين من القرية أو على المخسوف بهم أيضاً وأصحاب الفيل أو ريحاً حاصباً يحمل الحصباء ويرمى به وقيل الحاصب السحاب بالبرد بفتح الراء

والباء وهو حب الغمام وهو تفسير ضعيف. ﴿ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ﴾ حافظاً يحفظكم من ذلك المذكور من الخسف والحاصب فإنه لاراد لفعله، وقد بين الله سبحانه وتعالى قدرته فى الآية أنها لا تنحصر فى جهة. فإنه إن لم يصبكم الهلاك من تحتكم بالإغراق أصابكم إن شاء من تحتكم بالخسف وإن لم يصبكم من تحتكم أصابكم إن شاء من فوقكم بالحصباء ويكون أشد عليكم من الغرق .

﴿ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ ﴾ فى البحر . ﴿ تَارَةً ﴾ مرة . ﴿ أُخْرَى ﴾ بأن يزين فى قلوبكم السفر فى البحر أو يقدر لكم داعياً من الدواعى تركبون به البحر وأنتم تكرهون . ﴿ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفاً مِّنَ الرِّيحِ ﴾ أى ريحاً شديدة لا تمر بشىء من نحو الشجر إلا قصفته أى قطعته. أو ريحاً شديدة لها قصيف أى صوت ﴿ فَيُغْرِقَكُم بِمَا ﴾ الباء سببية وما مصدرية . ﴿ كَفَرْتُمْ ﴾ أى بسبب كفركم الذى هو شرك أو عدم شكر نعمة الإنجاء، وقرأ يعقوب فتغرقكم بالمثناة الفوقية على أن فيه ضمير الريح . ﴿ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ ﴾ أى بالقاصف من

الريح أو بإرسال القاصف . ﴿ تَبِيعًا ﴾ أى لاتجدوا إلا أنفسكم علينا تابعاً يتبعنا بسبب ذلك ليأخذ الثأر لكم منا وينتصر لكم وينكر علينا كقوله فلا يخاف عقباها أو ليصرف ذلك عنكم حتى لا يصيبكم والتبيع التابع لطلب نصر أو أخذ حق أو لحفظ ، قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا اتبع أحدكم على ملى فليتبع أى إذا حول أحدكم على غنى يضمن به دينه فليتحول ، وقال الله تعالى فاتباع للمعروف أى مطالبة به وفسره مجاهد فى السورة بأخذ الثأر .

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا ﴾ فضلنا على غيرهم من الحيوان . ﴿ بَنِى آدَمَ ﴾ بالعلم والفهم والنطق وحسن الصورة واعتدال المزاج واعتدال القامة وتناول الطعام والشراب باليد ؛ كما قال ابن عباس فى تفسير الآية كل حيوان يتناول طعامه بفيهِ إلا الإنسان فإنه يرفعه إليه بيده . روى أن هارون الرشيد أحضر طعاماً فدعا بالملاعق وعنده أبو يوسف فقال : جاء فى تفسير جدك ابن عباس فى قوله تعالى : « ولقد كرمنا بنى آدم » جعلنا لهم أصابع يأكلون بها فأحضرت الملاعق فردها وأكل

بأصابعه. وروى أنه - صلى الله عليه وسلم - كان مع أصحابه فى سفر فأتوا على بركة من ماء فكرعوا فيها بأفواههم ؛ فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - اغسلوا أيديكم واشربوا منها ؛ فنزلت الآية وبالتمييز بالعقل والإفهام بالنطق والإشارة والخط والوصول إلى أسباب المعايش والمعاد والتسلط على ما فى الأرض وليس فى الأرض شىء إلا إذا شاءوا قهروه حتى السباع يجتمع اثنان منهم وأكثر فيقتلون الأسد والواحد المحتال القوى الجنان يقتله ، وحدثنى شيخنا أن الصغير يقتل الأسد بأن يلتزم ذنبه ويلتوى به حيث الأسد ولا يزال يضربه فى خاصرته وداخل البطن حتى يقتله ؛ وأن طفلا غير بالغ فعل ذلك وبالتمكن من الصناعات وأسياق الأسباب والمسببات العلوية والسفلية إلى ما يعود عليهم بالمنافع وكون الرجال باللحى والنساء بالنواصى والذوائب وإن منهم خير أمة أخرجت للناس وإن منهم محمد - صلى الله عليه وسلم - فقيل وبالطعام الطيب كالخبز واللحم والسمن والعسل وفيه أن هذا المذكور بعد وطهارتهم بعد الموت . ﴿ وَحَمَلْنَاهُمْ فِى الْبَرِّ ﴾على الدواب . ﴿ وَالْبَحْرِ ﴾على الفلك ومعنى حملهم على ذلك إركابه إياهم على ذلك

وأ معناه أعطاه إياهم ما تركبونه كما يقال أطعمته وسقا من تمر أى أعطيته إياه ليأكله شيئاً فشيئاً أو معناه منعه الأرض أن تنهال بهم فينخسفوا والبحر أن تنفسح بهم أجزاؤه فيغرقوا كأنه قيل أجمدنا لكم الأرض والبحر بقدر ما لا تستسفلون فيهما ﴿ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ ما يستلذ من الطعام والشراب مما يحصل بسببهم كالطبخ والعجن وخلط شيئين أو أشياء أو بدون تسببهم كالرطب والفواكه وقيل المراد الزبد والسمن والتمر والحلو وذكر بعض أن الأغذية إما نباتية وإما حيوانية ولا يتغذى الإنسان إلا بأطيب القسمين بالطبخ الكامل والنضج التام وجعل رزق غيرهم مما لا يخفى. ﴿ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ بالقهر والشرف والكرامة واحترز بالكثير عن الملائكة، فقيل إنهم أفضل من بنى آدم مطلقاً، وعليه الزمخشرى والمعتزلة، وقيل عن خواصهم فإنهم أفضل من عامة مؤمنى بنى آدم وخاصتهم، وقيل من عامتهم فقط وخاصتهم أفضل من خاصة الملائكة، وعن الكلبى المؤمنون أفضل من الملائكة إلا على جبريل وعزرائيل وميكائيل وإسرافيل ونحوهم ولا يلزم من عدم تفضيل

بنى آدم عموماً عليهم عدم تفضيل بعضهم كنبينا أوكالانبياء مطلقاً فإنهم أفضل من الملائكة عموماً والذى عندى أن المؤمن الآدمى أفضل من الملائكة لأنه أطاع الله جل جلاله مع أن له موانع وعوارض عن الطاعة وقد جعلهم الله خدماً لهم فى الآخرة . وقد ورد فى الحديث أن المؤمن عند الله أفضل من بعض ملائكته وورد أنهم أفضل من جميعهم وأما إسكان الملائكة فى السماوات وتقريبهم وتنزيلهم من الأنبياء منزلة الأنبياء من الأمم فإنما ذلك لعصمتهم وقوتهم على ما هنالك بخلاف من كان من شأنه أن يعجز وأن يعصى فإنه لا يليق بذلك وليس فى صدور المعصية من المؤمن ما ينقصه عن الملائكة إذ هم خلقوا وطبعوا طبع ما لا يعصى بخلاف المؤمن . وروى جابر بن عبد الله أن الملائكة قالت : ربنا أنك أعطيت بنى آدم الدنيا يأكلون منها ويتمتعون بشراب ونكاح وغيرهما ، ولم تعطنا ذلك فأعطيناه فى الآخرة ، فقال : وعزتى وجلالى لأجعل ذرية من خلقته بيدى كمن قلت له كن فكان . وعن أبى هريرة : المؤمن أكرم على الله من الملائكة الذين عنده ، وجعل الزمخشرى هذه الأحاديث موضوعة وإن قلت

فما صنع بقوله كثير ، قلت : احترز به عما لا يدخل فى التفضيل كالجبال والشجر فإنها أبعد من أن يوقع التفضيل بين الآدمى وبينها فكأنه قيل فضلناهم على ذوى الشأن وهم الكثير وأما غيرهم فلا شأن له بالنسبة إلى الإنسان فضلا عن أن يوقع التفضيل بينهما وقيل الكثير بمعنى الكل كما قيل فى وأكثرهم كاذبون وهو بعيد ولا دليل فى الآية كما تراه فى سورة الشعراء والكثير يطلق على ما هو فى نفسه كثير ولو كان بالنسبة إلى غيره قليلا ، فلا يرد أن الملائكة على التفسير الأول وأن الجبال ونحوها هى الكثير وبنى آدم قليل ، وعبر أولا بالتكريم لأن ما أشير إليه أولا منحة وعبر ثانياً بالتفضيل لأنه الله جل جلاله صيره بما منحه فاضلا فائقاً غيره ،وأفضل ما به التكريم الإيمان وأداء الفرائض واجتناب المعاصى وهما متوقفان على العقل والفهم للكرم بهما .

﴿ يَوْمَ ﴾ومفعول لمحذوف أى اذكر يوم أو ظرف لمحذوف دل عليه لا يظلمون فتيلا أى لا يظلمون يوم والوجه الأول أظهر ويجوز تعليقه

بفضلنا وعلى هذا الوجه الأخير يكون المراد تفصيل المؤمنين فعبر بالمجموع أو يقدر مضاف أى وفضلنا بعضهم يوم الخ بإتيان الكتب فى الإيمان وإدخال الجنة وهذه فضياة على أهل النار وعلى من لا يدخل الجنة ولا النار وعلى من يدخلها غير متلذذ ولا متألم بهما كالملائكة فإن منهم خزنة النار وخزنة الجنة وخدم أهلها وذلك اليوم هو يوم القيامة . ﴿ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ ﴾ وقرىء يدعى بالبناء للمفعول وقرىء يدعو كذلك لكن بقلب الألف واواً وفتح العين كما فى الذى قبله وعلى القراءتين برفع كل على النيابة ويجوز على الأخير أن يكون الواو علامة جماعة وكل نائب وأن يكون نائباً وكل بدلا وعلى هذين الوجهين فى هذا الوجه الأخير حذفت نون الرفع تخفيفاً لقلة المبالاة بها إذ ليست لها علامة رفع . ﴿ بِإِمَامِهِمْ ﴾بمن يقتدرون به من جائر وعادل فيقال يا أتباع محمد ، يا أتباع أبى لهب ، يا أتباع أبى جهل ، يا أتباع فرعون ، وبما يقتدرون به ، يا أتباع القرآن ، يا أتباع الإنجيل ، يا أتباع التوراة ، ونحو ذلك وقد فسر بعضهم الإمام بالنبى والمقدم فى الدين ، وابن زيد بالكتاب ، والحسن وابن عباس

بالدين ، وبعض بكتاب الأعمال يا أصحاب كتاب الخير ، يا أصحاب كتاب الشر ، وقد قرأ الحسن يوم ندعو كل أناس بكتابهم ، وابن عباس فى رواية بمن يقتدرون من مضل أو هاد وبعض بمعبودهم وعن مجاهد وقتادة بنبيهم ، وقيل بالقوى الحاماة لهم على عقائدهم وأفعالهم ينقطع نسب الإنسان يومئذ ويبقى نسب العمل والديانة وقيل الإمام جمع أم كخف وخفاف ، يقال يافلان عن فلانة إجلالا لعيسى عليه السلام لأنه لا أب له وإظهار الشرف الحسن والحسين ليذكروا بالنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد فاطمة ، فيقال ياحسين ابن فاطمة بنت محمد ، ولئلا يفتضح أولاد الزنا المؤمنون ، وذكر فى الكشاف أن هذا من يدع التفاسير وعاب قليله والذى فى بعض الأخبار أن الإنسان يدعى يافلان بن فلان والتفسير بكتاب الأعمال أشد مناسبة لقوله سبحانه وتعالى . ﴿ فَمَنْ أُوتِىَ ﴾من المدعوين . ﴿ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴾وهو كتاب عمله . ﴿ فَأُولَٰئِكَ ﴾إشارة إلى من باعتبار معناها . ﴿ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ ﴾ الإضافة للاستغراق أى كتبهم وإن قلت كذلك من أوتى كتابه بشماله يقرأه قلت تتم فائدة الكلام بمحذوف

أى يقرءون كتابهم فرحين مسرورين بما فيه مفتخرين به ذاكرين له ومن يؤته بشماله على عكس ذلك أو تم بالمعنى لأن المعنى يقرءون كتابهم قراءة تامة بينة ولا يقنع القارئ بقراءته حتى يذكره كما مر لأهل المحشر،ويقول :هاؤم اقرأوا كتابيه بخلاف من يؤتى بشماله فيشغله الدهش والخجل والحيرة فيعجزون عن إقامة الحروف فتكون قراءتهم كلا قراءة أوتم فائدة الكلام بقوله : ﴿ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ لأن معناه لا ينقصون من أجورهم أدنى شيء ولا أجر لمن يؤتى كتابه بشماله فى الآخرة والفتيل ما يكون فى شق النوى وفسره بعضهم بقشرة النوى،وعلى كل حال المراد التمثيل بالقلة لا حقيقة مقدار الفتيل لأنهم لا يظلمون فتيلا ولا أقل وفتيلا مفعول ثان لأن الظلم بمعنى النقص ويجوز تعديته لاثنين أو مفعول مطلق نائب عن الظلم أى لا يظلمون ظلماً ما،ولك أن تقول لما ذكرت قراءة السعداء كتابهم فى ذلك اللوح وأشار أن الأشقياء يقرءونها كلا قراءة من حيث أنها قراءة خفية غير تامة الحروف وغير مفيدة للخير بقوله :

﴿ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِ ﴾أى فى هذه الدار وهى الدنيا . ﴿ أَعْمَىٰ ﴾

عن الحق لا يراه بقلبه شبه فساد قلبه بعمى العينين وأعمى صفة مشبهة كأحمر وأسود وأعور وأشل ، رويت عن شيخى فى قراءة التوضيح وغيره أن اسم التفضيل لا يبنى من العيوب والألوان . قال سيبويه لا يقال أعمى من كذا ﴿ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى ﴾ لايدرى طريق النجاة والأعمى لا يقرأ الكتاب هذا هو التلويح بأن الشقى يقرأ كتابه قراءة كلا قراءة :حيث شبه بالأعمى الذى هو فاقد إحساس العين ، وأعمى هذا أيضاً صفة مشبهة كالأولى ومعناهما عمى ، وقيل فى الثانى أنه اسم تفضيل أى أشد عمى وحيرة لأنه قد باشر الخيبة ورأى مخايل العذاب على أن العمى عمى القلب فى الموضعين لكن الأول صفة مشبهة على معنى أن من كان عمياً فى الدنيا من جهة دينه فهو أشد عمى فى الآخرة على أنه لا مانع من كونهما معاً اسمى تفضيل،كأنه قيل من بالغ فى الضلال عن الحق فى الدنيا أصابه البعد عن النجاة فى الآخرة على قدر ذلك . قال الصفاقصى : قول سيبويه لا يقال أعمى من كذا إنما هو فى عمى العين الذى لا تفاضل فيه ، وأما عمى القلب فيقال ذلك لأنه يقع فيه التفاضل كقولك أجهل وأباه،ويدل على الثانى

اسم تفضيل عدم إمالة أبى عمر ويعقوب إياه فإن اسم التفضيل إتمامه بمن كانت ألفه فى حكم المتوسطة بخلاف أعمى الذى هو صفة مشبهة فإن ألفه فى الطرف إذ لا تقدر من بعده ولا تذكر وهى معرضة للإمالة من حيث أنها تصير ياء فى التثنية .فإن ذلك أخلصا فتحة الثانى ولم يميلاه وأمالا الأول ، وأمالهما جميعاً حمزة والكسائى وأبو بكر وقرأ ورش عن نافع فيهما بإمالة خفيفة حقية بين بين وأخلص الباقون الفتح فيهما . ﴿ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾فى الآخرة منه فى هذه الدار لزوال الاستعلال وفقد الآلة والمهلة فإن الآخرة ليست دار عمل ولا تقبل فيها توبة . قال ابن إسحاق وغيره المجتمع المشركون القريشيون فى مكة إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليلة إلى الصباح ، وقالوا له :أنت سيدنا ولكن أقبل على بعض أمرنا ونقبل على بعض أمرك .
وقالوا يامحمد : إنما جئت به لم يجئ به أحد من قومك ورفقوا به ، وقالوا :كف عن شتم آلهتنا وذمها ، انظر فى هذا الأمر فإن هذا لو كان حقاً لكان فلان أولى به منك ، وفلان أحق به منك ، فنزل قوله تعالى :

﴿ وَإِن ﴾مخففة من الثقيلة﴿ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ ﴾ اللام للفرق بين

النفى والإثبات وكذا فى وإن كادوا يستغفرونك﴿ عَنِ الَّذِى أَوْحَيْنَا ﴾ أى ليصرفونك عن متابعة القرآن أو الوحى الذى أوحينا ﴿ إِلَيْكَ ﴾ وكل من القرآن وسائر الوحى يتضمن التوحيد والأحكام الشرعية ﴿ لِتَفْتَرِىَ ﴾تكذب . ﴿ عَلَيْنَا غَيْرَهُ ﴾من إثبات الشركاء وعبادتها تعالى الله عن ذلك وهو أمرهم الذى أرادوا أن يقبل على بعضه ، وقال سعيد ابن جبير ومجاهد : قالوا لا ندعك تستلم الحجر الأسود حتى تمس أيضاً أوثاننا على معنى التشرع،فحدث نفسه ماذا على أن أفعل ذلك والله يعلم أنى لها كاره،فنزلت الآية وقيل إنهم قالوا له : اجعل لنا آية رحمة ،آية عذاب ،وآية عذاب آية رحمة حتى نؤمن بك، فنزلت . وقال ابن عباس وغيره : نزلت فى شأن ثقيف لما قالوا لا ندخل فى أمرك حتى تعطينا خصالا نفتخر بها على العرب لا نعش،بالبناء للمفعول والتشديد أى لا يؤخذ منا العشر ولا نحشر بإسكان الحاء والبناء للمفعول أى لا نجمع إلى غزوة ولا ندعى إليها ولا نحيي بالبناء للمفعول والتشديد،أى لا نؤمر بالركوع وقيل بالسجود يعنون أن تسقط عنهم الصلاة . وروى لا نحيي فى صلاتنا أى لا نركع أو لا نسجد وكل رب لنا

فهو لنا وكل رب علينا فهو موضوع عنا وإن تمتعنا باللات سنة نعبدها

وروى أن تمتعنا باللات سنة من غير أن نعبدها وإنما نريد أن نأخذ

ما يهدى لهاونكسرها بأيدينا رأس الحول،وتحرم وادينا وهو وج كما

حرمت مكة لا يعضد شجرنا نحب أن تسمع العرب أنك قد أعطيتنا

ما لم تعط غيرنا فإذا سألتك العرب لم فعلت ذلك . فقل : إن الله أمرنى

به . وفى رواية وإن خشيت أن تقول العرب أعطيتهم ما لم تعطنا فقل :

الله أمرنى بذلك وسكت فطمعوا ، ونزلت الآية وروى أنه لما تم كلامهم

وسكت جاءوا بكتابهم وأمر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كاتباً

فكتب : بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ من

كتاب وسلم لثقيف لا يعشرون ولا يحشرون ، فقالوا ولا يجيبون

فسكت رسول الله ـ صلى الله عايه وسلم ـ ثم قال للكاتب : اكتب

ولا يجيبون ، والكاتب ينظر إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ

فقام عمر رضى الله عنه فسل سيفه وقال : أسعرتم قلب نبينا يامعشر

ثقيف أسعر الله قلوبكم ناراً . فقالوا : لسنا نكلم لك ، إنما نكلم محمدا .

فنزلت قلت سيدنا محمد رسول الله أبعد من أن يكتب لهم لا يعشرون

وأشد بعداً أن يكتب لهم لا يجيبون ، وإنما الذى صح أنه قال : لا خير فى دين ركوع فيه ولا سجود ، وأما تكسير أصنامكم بأيديكم فذلكم ، وأما الطاغية يعنى اللات فإنى غير ممتعكم بها . ﴿ وَإِذاً لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴾ الجواب للو محذوف أى وإذاً لوأجبتهم إلى ما سألوك لاتخذوك خليلاً،وهذا شارة إلى أنك خارج عن ولايتى إذا أجبتهم إلى سؤالهم لأن من كان ولياً لأعداء الله لاتباعه إياهم فيما لا يرضى الله يكون عدواً لله سبحانه وتعالى ، وهذا توقيف وتذكير من الله سبحانه وتعالى لنبيه ــ صلى الله عليه وسلم ــ بنعمة التنجية عن فتنتهم كقوله أيضاً :

﴿ وَلَوْلَا أن ثَبَّتْنَاكَ ﴾ أى ولولا تثبيتنا إياك على الحق الموحى إليك وذلك عصمة . ﴿ لَقَدْ كِدتَّ ﴾قاربت﴿ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ ﴾ لقوة خدعهم وحيلهم﴿ شَيْئًا قَلِيلًا ﴾ أى ركونا قليلا فشيئاً مفعول مطلق واللام فى قوله لقد كدت إلخ هى اللام التى تقع فى جواب أولا وجملة قد وما بعدها جواب أولا فيفيد ذلك أنه ــ صلى الله عليه وسلم ــ لم يركن

ولم يقارب الركون لأن مقاربته منفية بوجود التثبيت من حيث أن لولا حرف امتناع لوجود ولكن لا أحفظ شاهداً من كلام العرب على جواز كون جواب لولا مصدرا بقد فلعل جواب لولا محذوف أى لولا أن ثبتناك لفتنوك ،فيكون لام لقد لام جواب قسم محذوف أى والله لقد كدت أو لام ابتداء على قول من أثبت دخولها على قد فى غير خبر أن،وعلى ذلك يفيد الكلام أنه قد ركن ركوناً قليلا هو مجرد سكوته ملاطفة لهم لاب سلموا أو هو مجرد تردده ما يضرنى أو مسست أوثانهم،وقد علم الله أنى كاره لها لأجد سبيلا إلى استلام الحجر أو نحو ذلك ، وقال ابن الأنبارى لقد كادوا أن يخبروا عندك أنك ركنت وهو مع كونه تعسفاً مردود بقوله إذاً لأذقناك الخ لأنه لا يعاقب لأخبار الناس إلا أن يقال المعنى إذا لو صدر منك الركون لأذقناك ، وقال بعض المتكلمين عاتب الله نبيه عليه السلام قبل وقوع ما يوجب العتاب ليكون بذلك أشد انتهاء ومحافظة لشرائط المحبة،وهذه غاية العناية ، وقيل فى هذا الركون أنه خطرة لا يمكن دفعها ولذا قال كدت وهى تعطى أنه لم يقع ركون أصلا لأن المقاربة التى تضمنها كدت

قليلة خطرة أتتأكد فى النفس فيكون معنى إذاً لأذقناك إذا لو تأكدت خطرتك أو او فتنوك الخ .

﴿ إذاً لَّأَذَقْنَاكَ ﴾جواب للو محذوفة أى إذا لو ركنت أو إذاً لو تأكدت خطرتك أو إذا قاربت لأذقناك . ﴿ضِعْفَ الْحَيَاةِ وِضِعْفَ الْمَمَاتِ﴾ أى ضعف عذاب الحياة وضعف عذاب الموت أو ضعف عذاب زمان الموت فالممات مصدر ميمى وهو الظاهر المناسب لظاهر لفظ الحياة واسم زمان فتكون الحياة على هذا مصدر نائباً عن اسم الزمان أى زمان الحياة وضعف الشيء مثلا وأمثاله :فالمعنى إذا لو فعلت لأذقناك من عذاب الآخرة أكثر مما يعذب غيرك لأنك خطير وخطأ الخطير أخطر،وذلك تفسير ابن عباس، أعنى تقدير لفظ عذاب بعد لفظ ضعف فى المؤمنين والضعف باق على المصدرية،ولك أن تقول هو هنا بمعنى اسم مفعول أى مضاعفاً وأن الأصل لأذقناك عذاباً مضاعفاً فى الحياة وعذاباً مضاعفاً فى الممات وضع لفظ ضعف فى موضع مضاعف فكان عذاباً ضعفاً نعت لعذاباً ثم حذف المنعوت وهو عذاباً وأقيم النعت مقامه ثم أضيف

كما يضاف منعوته ، فقيل ضعف الحياة وضعف الممات كما يقال عذاب الحياة وعذاب الممات وقد ورد لفظ الضعف نعتاً فى قوله تعالى: فأتهم عذاباً ضعفاً، وقيل عذاب النار وعذاب الممات هو عذاب القبر وعذاب النار، وقيل عذاب القبر وقيل عذاب النار. وأما عذاب الحياة فهو عذاب الدنيا، وقيل عذاب الممات عذاب القبر وعذاب الحياة عذاب الآخرة بعد البعث ، ولما نزلت الآية إلى قوله نصيراً كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يقول : اللهم لا تكلنى إلى نفسى طرفة عين .

﴿ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴾ مانعاً من عذابنا دافعاً إياه عنك . ولما قدم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – المدينة واستقر بها ونصره أهلها حسده اليهود فأتوه فقالوا : يا أبا القاسم لقد علمت ما هذه بأرض الأنبياء ، وأن أرض الأنبياء الشام وهى المقدسة وكان بها إبراهيم عليه السلام فإن كنت نبياً فالحق بالشام حتى نؤمن بك . وإنما يمنعك من الخروج إليها مخافة الروم وأن الله سيمنعك منهم إن كنت منهم إن كنت رسوله. فوقع ذلك فى قلبه فخرج مرحلة وقيل ثلاثة أميال . وقيل بلغ ذا الحليفة فأقام حتى يجتمع إليه أصحابه

ويراه الناس عازماً على الخروج إلى الشام لحرصه على إسلام الناس فنزل قوله جل وعلا :

﴿ وَإِنْ كَادُوا ﴾ أى اليهود . ﴿ لَيَسْتَفِزُّونَكَ ﴾ يستخفونك بمكرهم وحيلهم ويعجلونك . ﴿ مِنَ الأَرْضِ ﴾ أرض المدينة ﴿ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ﴾ فرجع إلى المدينة ثم قاتل بنى قريظة وأجلى بنى النضير فالآية مدنية فى سورة مكية . قال الحضرمى : والصحيح عندى أن الآية مكية وإن الواو ضمير لكفار قريش وأن الأرض أرض مكة يريدون أن يستخفوه ويزعجوه عنها .وهو قول ابن عباس ومجاهد وهو أليق بالسورة وبالآية قبل هذه الآية ،وقيل المراد المشركون كلهم تظاهروا عليه أن يستفزوه عن أرض العرب ﴿ وَإِذا ﴾ لو خرجوك منها أو او استفزوك هذا معنى إذاً والك تقدير او بعد . ﴿ لَّا يَلْبَثُونَ ﴾ بالرفع لكونه مع إذاً معطوفاً على يستفزونك وهو مرفوع واقع موقع المفرد لأن الفعل فى خبر كاد واقع موقع الاسم، كذا قال الزمخشرى فى التعليل أو لأنه جواب للو محذوفة ، وقال الصفاقصى جواب قسم أى والله إذاً لو أن استفزوك

وقرأ أبى لا يابثوا بالنصب بإذا والعطف كما ذكر أو على جملة وإن كادوا ليستفزونك وعينه الزمخشرى فى قراءةالنصب ، والذى عندى جواز العطفين فى كل من القراءتين ووجه إهمالها فى قراءة الرفع اعتماد ماقبلها على مابعدها ، وقد تقرر جواز إعمالها وإهمالها بعد العاطف ﴿خِلَافَكَ﴾ أى لا يلبثون فى تلك الأرض بعد خروجك منها . (إِلَّا قَلِيلًا) لبثا قليلا أو زماناً قليلا ثم نهلكهم أو نخرجهم ، وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائى ويعقوب وحفص خلافك بكسر الخاء وبألف بعد اللام بمعنى خلف وهو لغة . قال الشاعر :

عفت الديار خلافهم فكأنما بسط الشواطب بينهن حصيرا

والشواطب النساء اللاتى يشققن الجريد ليعمل منه الحصير والشطب سعف النخل الأخضر ،والآية تعطى أن اليهود لم يستفزوه فلم يهلكوا إهلاكاً يكون جزاء لاستفزازهم وإهلاكهم وإخراجهم الواقعان إنما هما لغير الاستفزاز وذلك قريظة أهلكوا والنضير أجلوا ، وعن ابن عباس أن قريشاً استفزوه بعد أن كادوا يستفزونه فأهلكوا بعد إخراجهم

إياه بقايل وهو عام يوم بدر ووجهان ووجه أن يقدر أن الشرطية أو لو الشرطية غير الامتناعية بعد إذا وضمن إذا معنى ذلك وإن إخراجهم إياه هو تضييقهم عليه حتى خرج ، وعن مجاهد أن قريشاً تريد إخراجه فلم يقع لما أراد الله سبحانه بقاء قريش من الاستئصال .

﴿ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ﴾ نصب سنة على المفعولية المطلقة ،أى سن الله ذلك سنة وهو أن يهلك أو يخرج كل أمة أخرجت رسولها فالسنة لله كما أضافها إليه فى غير هذه السورة وفى قوله . ﴿ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴾ تبديلا وتغييراً وإنما أضيفت إلى من قد أرسلنا لأنها من أجل الرسل . وقال الحسن: المعنى وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها بالقتل ولو فعلوا لقتلناهم كلهم كما هو سنتنا فى من قتل نبينا ، قال ابن مسعود : أشد الناس عذاباً من قتل نبياً أو قتله نبى .

﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ ﴾ أى ائت بالصلاة مستقيمة تامة . ﴿ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ ﴾ أى زوالها عن وسط السماء وأصل مادة ذلك الانتقال، ومنه الدالك فى

الغسل ، فإن الدالك لا تستقر يده فى موضع واحد وقد قيل إن من
الدالك لأن الناظر إليها يدلك عينيه ليدفع شعاعها وهكذا ما يتركب
من دال ولام كدلج بالجيم أى سار أول الليل أو آخره ودلح بالحاء المهملة أى
مشى بالحمل الثقيل رويداً ، ودلع أى خرج لسانه من فِيهِ
ودلع الشىء خرج ودلف أى مشى رويداً ،ودلف الشيخ مشى وقارب
الخطو وده الإنسان تحير وهدر واللام للتوقيت كقوالك كتبته
لثلاث ليال مضين،وفى معناه قول بعض أنها بمعنى بعده ، وقول بمعنى
عنده ، وذكر ابن هشام أن اللام تكون بمعنى عند ومثل له بقولهم
كتبته لخمس خلون،وبمعنى بعد ومثل له بالآية ، وقيل بمعنى من
الابتدائية أى من وقت دلوك الشمس ، وذكر إلى بعد ذلك أنسب
به ولو كانت عند وبعد يصح تغيبتهما بإلى أيضاً،وذلك إشارة إلى
صلاة الظهر والعصر فإن زوال الشمس عن وسط السماء أول الظهر
ثم يدخل وقت العصر بعد . ﴿ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ ﴾ أى ظهور ظلمته أى إلى وقت
غسقه وهو المغرب فحينئذ تصلى صلاة المغرب ثم بعد ذلك تصلى
صلاة العشاء فهذه إشارة إلى صلاة المغرب والعشاء وذلك قول ابن عباس

وقيل غسق الليل اشتداد ظلمته وهو وقت العشاء فتدخل صلاة العشاء به وصلاة المغرب بكونها بين المبدأ والمنتهى فهى والعصر والظهر داخلات بما قبل الغسق وعلى القولين الآية شاملة للصلوات الخمس إذ ذكر صلاة الفجر بعد ، والمشهور من القولين هو الأول وتفسير الدلوك بزوال الشمس هو المشهور أيضاً، وهو قول ابن مسعود وابن عمر وجابر ابن عبد الله وعطاء وقتادة ومجاهد والحسن وأكثر التابعين ذكر الحسن أنه - صلى الله عايه وسلم - لما زالت الشمس أمر مناد بالصلاة جامعة فاجتمعوا فصلوا الظهر أربعاً يسر فيهن ثم لما صارت بيضاء نقية أمر كذلك فصلوا العصر أربعا يسر فيهن ، ولما غابت أمر كذلك فصلوا المغرب ثلاثاً يعلن فى الركعتين الأوليين ويسر فى الثالثة ، ولما غاب الشفق أى الأحمر أمر كذلك فصلوا أربعاً يعلن فى الركعتين الأوليين ، وبات الناس لا يدرون أيزيدون أو لا حتى طلع الفجر، أمر كذلك فصلوا ركعتين يعلن فيهما وفى كل ذلك جبريل عليه السلام يصلى بالنبى - صلى الله عليه وسلم - والنبى - صلى الله عليه وسلم - يصلى بالناس ، وكلما صلى ذهب ، رواه الشيخ هود رحمه الله ، وروى النسائى

وبعض أصحابنا عن جابر بن عبد الله أن جبريل أتى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يعلمه مواقيت الصلاة ، فتقدم جبريل ورسول الله خلفه والناس خلف رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فصلى الظهر حين زالت الشمس وأتاه حين كان الظل مثل شخصه فصلوا العصر كذلك ثم حين وجبت الشمس فصلوا المغرب كذلك ثم حين غاب الشفق فصلوا العشاء كذلك،ثم حين انشق الفجر فصلى الغداة كذلك ، ثم أتاه فى اليوم الثانى حين كان ظله مثل شخصه فصلوا الظهر كذلك ثم أتاه حين كان ظله مثليه فصلى العصر ثم حين غابت الشمس فصلى المغرب كذلك،ثم حين غاب الشفق فصلى العشاء كذلك ثم امتد الفجر والنجوم بادية مشتبكة فصلى الغداة ثم قال ما بين الصلاتين وقت انتهى باختصار وفى كل ذلك جبريل عليه السلام أمام النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ والنبى أمام القوم كما أشرت إليه بقولى كذلك .

وفى رواية صلى الظهر حين زالت الشمس وكان الفىء قدر الشراك ثم العصر حين كان قدر الشراك وظل الرجل،ثم المغرب حين غابت ثم العشاء حين غاب الشفق ثم الفجر حين طلع الفجر ثم الظهر حين

كان ظله مثله ثم العصر حين كان مثليه ثم المغرب حين غابت ثم العشاء إلى ثلث الليل أونصفه . شك أحد رواته ثم الفجر وأسفر وذلك كله بإمامة جبريل كما رواه ابن عباس عنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أمنى جبريل عند البيت مرتين ، صلى بى الظهر حين كان الظل قدر الشراك ، والعصر حين كان ظل الشىء مثله ، ثم المغرب حين وجبت الشمس وأفطر الصائم ثم العشاء حين غاب الشفق ثم الفجر حين برق الفجر وحرم الطعام على الصائم ، ثم الظهر حين كان ظله مثله ثم العصر حين كان ظله مثليه ثم المغرب كأمس ثم العشاء حين ذهب ثلث الليل ثم الصبح حين أسفر ثم التفت إليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ جبريل فقال : يامحمد هذا وقت الأنبياء من قبلك . والوقت فيما بين هذين الوقتين ، رواه الترمذى وقوله : صلى بى الظهر حين كان ظله مثله ، أى فرغ منها حينئذ كما شرع فى العصر فى اليوم الأول وهكذا يقول من قال لاشتراك بينهما فى وقت ويدل له حديث مسلم وقت الظهر إذا زالت الشمس ما لم يحضر العصر وقوله فى حديث جابر ابن عبد الله فصلى الظهر حين زالت الشمس يقتضى جواز صلاة

الظهر إذا زالت الشمس وللمنتظر وجوباً ولا ندباً مصير الفئ مثل الشراك ،وأما حديث ابن عباس فالمراد فيه أنه حين زالت الشمس كان الفيء قدر الشراك ، وذكر ابن إسحاق أن ذلك كان صبيحة ليلة الإسرى نزل عليه جبريل حين زالت الشمس وفيه رد على من زعم أن بيان الأوقات كان بعد الهجرة ، وإنما ناداهم الصلاة جامعة لأنه لم يشرع الأذان إلا فى المدينة واستدل بعضهم بالحديث على جواز الإئتمام بمن يأتم بغيره وأجيب بأنه كان مبلغاً فقط وفيه أن المامومين لا يعلمون أنه مبلغ بل يأتمون به ،ومذهبنا عدم جواز الائتمام وعدم جواز المسمع المبلغ لأن النبى – صلى الله عليه وسلم–فعل ذلك للتعلم – وصلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – العصر والشمس فى حجرة عائشة كما فى مسند الربيع عن أبى عبيدة عن جابر عن عائشة كان النبى – صلى الله عليه وسلم – يصلى الظهر والعصر والشمس فى حجرتها لكن يحتمل قصر الحائط وطوله ، وعن أنس ، كان – صلى الله عليه وسلم – يصلى العصر والشمس مرتفعة يذهب الذاهب إلى العوالى فيأتيهم والشمس مرتفعة وبعض العوالى من المدينة على أربعة أميال رواه مسلم

والبخارى،وذلك تعجيل قيل المراد بالشمس ضوؤها ، وروى الربيع
عن أبى عبيدة عن جابر بن زيد عن أنس بن مالك كنا نصلى الظهر
مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم يخرج الإنسان إلى بنى عمرو
ابن عوف فيجدهم يصلون العصر ، وعن رافع بن خديج كنا نصلى
المغرب معه ـ صلى الله عليه وسلم ـ فينصرف أحدنا وإنه ليبصر
مواقع نبله ، رواه البخارى ومسلم وذلك تعجيل ، وكان ـ صلى الله
عليه وسلم ـ إذا كان الحر أبرد بالصلاة ، وإذا كان البرد عجل . رواه
النسائى من حديث أنس ويؤخر العصر ما دامت الشمس بيضاء نقية
رواه أبو داود من رواية على بن شيبان وكانوا يصلون فيما بين مغيب
الشفق إلى ثلث الليل الأول وذلك فى المدينة قبل أن يفشو الإسلام
وقال لولا ضعف الضعيف وسقم السقيم لأخرت هذه الصلاة إلى شطر
الليل ، رواه أبو داود عن أبى سعيد مرسلا وفى رواية أبى هريرة لولا
أن أشق على أمتى لأمرتهم أن يؤخروا العشاء إلى ثلثه أو نصفه صححه
الترمذى ويؤخذ من ذلك استحباب التأخير على من قدر ولم يشق على
غيره ولم يغلبه النوم ،وهكذا يقول النووى تقريرا فى شرح مسلم وكثير

من أهل الحديث من الشافعية وغيرهم ، وقال الطحاوى يستحب إلى الثلث وبه قال مالك وأحمد وأكثر الصحابة والتابعين وللشافعى قولان تفضيل التعجيل، واختاره النووى وتفضيل التأخير ، وقال النخعى ومقاتل والضحاك والسدى : دلوك الشمس غروبها وهو رواية عن ابن مسعود روى عنه أنه قال : والذى لا إله غيره إن هذه الساعة لميقات هذه الصلاة يعنى المغرب وعليه فالآية غير شاملة للظهر والعصر وقيل إن المراد بالصلاة صلاة المغرب وحدها، وإن قوله لدلوك الشمس بيان لمبدأها، وقوله إلى غسق الليل بيان لمنتهاه وأن ذلك دليل على امتداد وقت المغرب إلى غروب الشفق . ﴿ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ ﴾ أى وصلاة الفجر وعبر عنها بالقرآن لأنها كلها لا تجوز إلا بالسورة مع الفاتحة ولأن القراءة ركن من الصلاة فسميت بها كما سميت الصلاة ركوعاً وسجوداً وتسبيحاً وخصت باسم القرآن تنبيهاً على فضل إكثار القراءة فيها وهى أكثر الصلاة قراءة وزعم ابن علية والأصم أن القراءة ليست ركناً فى الصلاة، والآية رد عليه إذ المناسب لتسمية صلاة الفجر بقرآن الفجر تكون القراءة ركناً، ولكن هذا الرد يتوجه فى جانب صلاة

الفجر فقط إلا إن فسرنا قرآن الفجر بالقراءة فى صلاة الفجر أو
بالمقروء فيها فيدل الأمر بإقامتها على وجوبها فى صلاة الفجر نصاً وفى
غيرها قياساً ، فإن قرآن بالنصب معطوف على الصلاة أى أقم الصلاة
لدلوك الشمس إلى غسق الليل ، وأقم قرآن الفجر وعلى ذلك فإضافة
القرآن للفجر إما لقراءته فى الوقت الذى هو الفجر لأن الصلاة فيها
كما أضيفت سائر الصلوات لأوقاتها ، وإما على حذف مضاف أى
وقرآن صلاة الفجر ، وإما على أن الفجر اسم للصلاة الواقعة فى ذلك
الوقت . ﴿ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ ﴾ فيه الأوجه السابقة .﴿ كَانَ مَشْهُوداً ﴾
أى تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار . قال أبو هريرة سمعت النبى
ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : تفضل صلاة الجمع صلاة الفرد بخمسة
وعشرين جزءا ، وتجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار فى صلاة الفجر ،
رواه البخارى ، وكذا روى الربيع عن أبى عبيدة عن جابر بن زيد
عن أبى هريرة إلا أنه لم يذكر قوله : وتجتمع . . الخ . قال أبو
هريرة : اقرأوا إن شئتم : إن قرآن الفجر كان مشهوداً . قال الفجر هذا
دليل على أن التغليس أى إيقاع صلاة الفجر فى الغلس وهو الظلمة

أول طلوع الفجر الصادق إذا تم أفضل من التنويرأى من تأخيرها
إلى أن ينتشر الضوء ويسمى إسفار لأن الإنسان إذا شرع فيها من
الصبح فالظلمة باقية فيكون ملائكة الليل حاضرين ثم إذا امتدت
الصلاة بترتيل القرآن وتكثيره وظهر الضوء حضرت ملائكة النهار
أما إذا ابتدأ بها فى وقت الإسفار فإنه لم يبق أحد من ملائكة الليل
فأول وقتها أفضل ا . ه ، وظاهره أن الإنسان قد يخلو من ملائكة
الليل وملائكة النهار بأن يطلع ملائكة الليل قبل نزول ملائكة النهار
وفيه بحث . وكذا روى الربيع عن أبى عبيدة عن جابر بن زيد عن
عائشة كان النبى – صلى الله عليه وسلم – يصلى الصبح والنساء متلفعات
بخمرهن مايعرفن من الغبش والغلس ،لكن يجوز أن يكون معنى قولها يصلى
يفرغ من الصلاة وهو المتبادر ويجوز أن يكون معناه أنه يشرع فيها
واعلم أنه يجوز أن يكون معنى قوله مشهوداً أنه يحضره كثير من
المصلين أو يحضره الجماعة الكثيرة عند من يصلى بصلاته الكثير
فيرغب فى القراءة فيكثر سماع الناس فيكثر الثواب ويجوز أن يكون
معناه أنه يحضر عنده شواهد القدرة من تبدل الظلمة بالنور والنوم

الذى هو أخو الموت بالانتباه الذى هو أخو البعث . قال – صلى الله عليه وسلم – أفضل الصلوات صلاة الصبح يوم الجمعة فى جماعة ، وما أحسب شهدها منكم إلا مغفوراً له .

﴿ وَمِنَ الَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ ﴾ من معنى فى وقيل بمعنى بعض ولا منافاة فإن من قام بعض الليل صح أن يقال قام فى الليل ويجوز إبقاء الليل على كليته ومن بمعنى فى على أنه قيل كان قيام الليل كله واجباً عليه ،ويأتى كلام فى ذلك وذلك متعلق بتهجد والفاء صلة للتأكيد والتهجد الخروج عن النوم وتركه كأنه قيل اترك الهجود للصلاة وهو نوم الليل كالتحرج والتاء ثم بمعنى ترك الحرج والإثم وذلك ليشمل قياماً بعد نوم أو قبله وقال علقمة وغيره التهجد بعد نومه ، وقال الحجاج ابن عمرو : التهجد بعد رقدة ، وقال الحسن :إذا قال التهجد ماكان بعد العشاء الأخيرة . قال أبو عبيدة الهاجد النائم والهاجد المصلى بالليل . وعن المازرى التهجد الصلاة بعد الرقاد، ثم صلاة أخرى بعد رقدة ، ثم صلاة أخرى بعد رقدة . قال وهكذا كانت صلاة رسول الله – صلى الله عليه وسلم –والهاء فى به للقرآن المعبر به عن الصلاة بجملتها أو

القرآن الواقع فى الصلاة ويكون الضمير عائداً إلى قرآن من قوله : وقرآن الفجر بدون اعتبار لفظ الفجر ويجوز كونها عائدة إلى وقت محذوف منعوت بقوله : من الليل أى ووقتاً ثابتاً من الليل وعلى هذا يتعلق هذا الوقت المقدر بمحذوف من باب الاشتغال والباء بمعنى فى على هذا الوجه وهكذا يكون من الاشتغال بأن نجعل من الليل بمعنى بعض الليل ونجعل الباء للتبعية والهاء لليل أو نجعلهما معاً فى والهاء لليل . ﴿ نَافِلَةً ﴾حال من الهاء فى به ﴿ لَّكَ ﴾ أى عبادة زائدة فى فرائضك فهى واجبة عليك . قاله ابن عباس،ويدل له لفظ تهجد فإنه أمر،والأمر للوجوب ما لم يصرفه دليل عن الوجوب . روى الطبرى عن ابن عباس أن النافلة للنبي – صلى الله عليه وسلم – خاصة لأنه أمر بقيام الليل وكتب عليه دون أمته وإسناده ضعيف ، وقال مجاهد معناه زيادة لك خالصة لأن تطوع غيره يكفر ما على صاحبه من ذنب ويجبر فرائضه وتطوعه – صلى الله عليه وسلم – يقع خالصاً لكونه لا ذنب عليه فإن كل طاعة منه زيادة درجات وقيل معنى نافلة فضيلة لك باختصاص وجوبه بك .

وعن عائشة أن الله افترض قيام أول الليل فى سورة المزمل فقام هو

وأصحابه حولا حتى أنزل الله فى آخرها التخفيف فصار تطوعاً ، رواه مسلم وروى محمد بن نصر عن ابن عباس : شاهد الحديث عائشة رضى الله عنها أن بين الإيجاب والنسخ سنة ، وروى الشافعى أن آخر سورة المزمل نسخ فرض قيام الليل إلا ما تيسر منه ثم نسخ فرض ما يتيسر بالصلوات الخمس ، وروى محمد بن نصر من حديث جابر ابن عبد الله أن نسخ قيام الليل كان حين توجهوا مع أبى عبيدة بن الجراح فى جيش القبط. وفى إسناده على بن زيد بن جذعان وهو ضعيف ووجوب قيام الليل نسخ فى حقنا وهل نسخ فى حقه - صلى الله عليه وسلم - قال أكثر الشافعية لا والصحيح نعم ، ونقله الغزالى عن نص الشافعى وعن عائشة عنه - صلى الله عليه وسلم - ثلاث هن على فريضة وهى سنة لكم الوتر والسواك وقيام الليل ، وقيل لم يفرض علينا قط كما يدل عليه ظاهر هذا الحديث فصل ، قال الحسن لم يقم النبى - صلى الله عليه وسلم - أقل من ثلث الليل وذكروا أنه إذا شغله شىء عن صلاة الليل صلى من النهار اثنتى عشرة ركعة ، قال عبد الله ابن الحاج فى المدخل قالوا من كان يتفلت منه القرآن فليقم به فى

الليل فإنه يثبت له ببركة امتثال السنة ولا سيما الثلث الأخير من الليل، ولا ينبغى لطالب العلم أن يفوته قيام الليل فإنه يحط الذنوب كما يحط الريح العاصف الورق اليابس من الشجر وينور القبر ويحسن الوجه أو يذهب الكسل وترى موضعه الملائكة من السماء كما ترى الكوكب الدرى ، قال - صلى الله عليه وسلم - عليكم بقيام الليل فإنه من دأب الصالحين قبلكم ، وإن قيام الليل قربة إلى الله تعالى ومنهاة عن الآثام وتكفير للسيئات ومطردة للداء عن الجسد ، رواه الترمذى عن أبى أمامة ، وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من قام بعشر آيات لم يكتب من الغافلين ، ومن قام بمائة آية كتب من القانتين ، ومن قام بألف كتب من المقنطرين ، رواه أبو داود فى سننه عن عبد الله بن عمر وابن العاصى . قال ابن عباس : بت عند ميمونة زوج النبى - صلى الله عليه وسلم - وهى خالته فاضطجعت عرض الوسادة واضطجع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأهله على طولها ، فنام رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على طولها حتى انتصف الليل أوقبله بقليل أوبعده بقليل فاستيقظ فجعل يمسح النوم عن وجهه

بيده ثم قرأ العشر الآيات الخواتم من سورة آل عمران ، ثم قام إلى شن معلق فتوضأ منه فأحسن وضوءه ثم قام يصلى فقمت وصنعت مثل ما صنع ثم ذهبت فقمت إلى جنبه فوضع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يده اليمنى على رأسى وأخذ بأذنى يفتلهُ ، ثم صلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم - اثنتى عشرة ركعة ، ثم أوتر ثم اضطجع حتى إذا جاء الموعد فقام فصلى ركعتين خفيفتين ثم خرج فصلى الصبح ، رواه الربيع عن أبي عبيدة عن جابر بن زيد ن ابن عباس قال : قال لى ابن عباس كذلك فافعل ياجابر وثن فى رمضان وبذلك السند عن عائشة بعد ما ساءلها جابر : ما كان - صلى الله عليه وسلم - يزيد فى رمضان على ثلاث عشرة ركعة ، وقالت له : أتنام قبل أن توتر فقال ياعائشة : إن عينى تنامان ولا ينام قلبى . قال زيد بن خالد الجهنى : توسدت عتبة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أو فسطاطه لأرى صلاته فصلى ركعتين خفيفتين ثم ركعتين طويلتين طويلتين طويلتين ثم ركعتين دون اللتين قبلهما ثم ركعتين دون اللتين قبلهما ثم ركعتين دون اللتين قبلهما ثم ركعتين دون اللتين قبلهما ثم

أوتر،فذلك ثلاث عشرة ركعة،رواه أبو داود ، وسأل أبو سلمة بن عبد الرحمن عائشة : كيف كانت صلاة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى رمضان . قالت : ما كان يزيد فى رمضان ولا فى غيره على إحدى عشرة ركعة يصلى أربعاً لا تسأل عن حسنهن وطولهن ثم أربعاً لا تسأل عن حسنهن وطولهن ثم يصلى ثلاثاً . فقلت يارسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أتنام قبل أن توتر . فقال : ياعائشة إن عينى تنامان ولا ينام قلبى ، رواه البخارى ومسلم ، ورويا عنهما أنه يصلى بعد العشاء إحدى عشرة ركعة يسلم بين كل ركعتين ويوتر بواحدة ويسجد سجدتين قدر ما يقرأ أحدكم خمسين آية وإذا نودى للفجر وتبين قام فصلى ركعتين خفيفتين ثم اضطجع على شقه الأيمن حتى يأتيه المؤذن للإقامة ، ورويا عنها أنه كان ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا قام من الليل افتتح صلاته بركعتين خفيفتين ، وعن عوف بن مالك الأشجعى قمت مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليلة فقام فقرأ سورة البقرة لا يمر بآية رحمة إلا وقف وسأل ولا يمر بآية عذاب إلا وقف وتعوذ ، ثم ركع بقدر قيامه ، يقول فى ركوعه سبحان ذى

الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة ، ثم سجد بقدر قيامه وقال في سجوده مثل ذلك ثم قام فقرأ بآل عمران ، ثم قرأ سورة النساء أخرجه أبو داود والنسائى وأخرج الترمذى عن عائشة ، قام رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بآية من القرآن ليلة ، قال الأسود : سألت عائشة :كيف كانت صلاة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من الليل . قالت : ينام أوله ويقوم آخره فيصلى ثم يرجع إلى فراشه فإذا أذن المؤذن وثب فإن كانت به حاجة اغتسل وتوضأ ، رواه البخارى ومسلم . قال أنس ما كنا نشاء أن نرى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى الليل مصلياً إلا رأيناه ولا نشاء أن نراه نائما إلا رأيناه . أخرجه النسائى وزاد غيره وكان يصوم من الشهر حتى لا تقول لا يفطر منه شيئاً ويفطر حتى تقول لايصوم منه شيئاً،وقام رسول الله-صلى الله عليه وسلم-حتى انتفخت قدماه فقيل له : أتتكلف هذا وقد غفر الك ما تقدم من ذنبك وما تأخر . قال أفلا أكون عبداً شكوراً ، رواه البخارى ومسلم عن المغيرة بن شعبة ، قال شريح بن هانئ ، قالت عائشة : ما صلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - العشاء قط فدخل بيتى

إلا صلى أربع ركعات أوست ركعات ـ رواه أبو داود وكان يقوم إذا سمع الصارخ ، رواه البخارى ومسلم من حديث عائشة وهو يصرخ فى النصف الثانى، قالت :وكان عليه الصلاة والسلام ينام أول الليل ويقوم آخره فيصلى ثم يرجع فى فراشه فإذا أذن المؤذن وثب فإن كانت حاجة اغتسل وإلا توضأ وخرج.رواه البخارى ومسلم . وقالت أيضاً : كان عليه الصلاة والسلام ربما اغتسل فى أول الايل وربما اغتسل فى آخره وربما أوتر فى أول الليل وربما أوتر فى آخره وربما جهر بالقراءة وربما خفت خفف ، وقالت أم سلمة كان يصلى بنا ثم ينام قدر ما صلى ثم يصلى قدر ما نام ثم ينام قدر ما صلى حتى يصبح . رواه أبو داود والترمذى والنسائى ، وفى رواية للنسائى مثل ذالك بالمعنى بزيادة أنه يسبح بعد العتمة ، وقيل صلاة النفل التى تليها وإن صلاته الأخيرة تكون إلى الصبح و ن عائشة كان عليه الصلاة والسلام إذا هب من الليل كبر عشراً وحمد الله عشراً وقال سبحان الله وبحمده عشراً وقال سبحان الملك القدوس عشراً واستغفر عشراً وهالل عشراً ثم قال : اللهم إنى أعوذ بك من ضيق الدنيا ومن ضيق يوم القيامة عشراً ثم يفتتح

الصلاة،رواه أبو داود . قال ابن القيم إذا اختلف ابن عباس وعائشة

فى شىء من أمر يامه ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالليل فالقول قول عائشة

لأنها أعلم الخلق بقيامه بالليل ، ومن حديث بت عند خالتى ميمونة

زوج النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتحدث ـ صلى الله عليه وسلم ـ

معها ساعة ثم رقد فلما كان ثلث الليل الأخير أو بعضه قعد ينظر

إلى السماء فقرأ:إن فى خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار

حتى ختم السورة ثم قام إلى القربة فأطلق شناقها ثم صب فى الجفنة

ثم توضأ وضوءاً حسناً بين الوضوءين لم يكثره ، وقد أبلغ فقام

فصلى فقمت فتوضأت فقمت عن يساره فأخذ بأذنى فأدارنى عن يمينه

فتتامت صلاته ثلاث عشرة ركعة ثم اضطجع فنام حتى نفخ وكان

إذا نام نفخ فأذنه بلال بالصلاة فصلى ولم يتوضأ وكان فى دعائه

االهم اجعل فى قلبى نوراً ، وفى بصرى نوراً ، وفى سمعى نوراً ، وعن

يمينى نوراً ، وعن يسارى نوراً ، وفوقى نوراً ، وتحتى نوراً ، وأمامى

نوراً ، وخلفى نوراً ، واجعل لى نوراً ، وزاد بعضهم وفى لسانى نوراً .

وذكر عصبى ولحمى ودمى وشعرى وبشرى ، وفى رواية فصلى ركعتين

خفيفتين ، قلت قرأ فيهما بأُم الكتاب فى كل ركعة ثم سلم ثم صلى إحدى عشرة ركعة بالوتر ثم نام فأَتاه بلال فقال : الصلاة يارسول الله . فقام فركع ركعتين ثم صلى بالناس ، وفى رواية فقام فصلى ثلاث عشرة ركعة منها ركعتا الفجر حرزت قيامه فى كل ركعة بقدر يا أيها المزمل ،وفى رواية فصلى ركعتين ركعتين حتى صلى ثمانى ركعات ثم أوتر بخمس لم يجلس فيهن ، وفى رواية للنسائى صلى إحدى عشرة ركعة بالوتر ثم نام ونفخ وأتاه بلال ، الحديث. وفى أخرى له فتوضأ واستاك وهويقرأ : إن فى خلق السماوات والأَرض - الآية ثم صلى ركعتين فنام حتى نفخ ثم توضأ واستاك وصلى ركعتين فنام حتى نفخ ثم توضأ واستاك وصلى ركعتين ونام ثم توضأ واستاك وصلى ركعتين وأوتر بثلاث وروى مسلم فاستيقظ فتسوك وتوضأ وهو يقول إن فى خلق السماوات والأَرض حتى ختم السورة ثم قام فصلى ركعتين أطال فيهما القيام والركوع والسجود ثم انصرف فنام حتى نفخ ثم فعل ذلك ثلاث مرات بست ركعات كل ذلك يستاك ويتوضأ ويقرأ هذه الآيات ثم أوتر بثلاث . قال سعد بن هشام : يا أم المؤمنين

أنبئينى عن وتر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقالت : كنا نعد له - صلى الله عليه وسلم - سواكه وطهوره فيبعثه الله لما شاء أن يبعثه من الليل فيستاك ويتوضأ ويصلى تسع ركعات ولا يجلس فيهن إلا عند الثامنة فيذكر الله تعالى ويحمد الله تعالى ويصلى على نبيه ويدعو بينهن ولا يسلم ثم يصلى التاسعة ويقعد ويحمد الله ويصلى على نبيه ثم يسلم تسليماً يسمعنا ثم يصلى ركعتين ، وفى رواية ثم لما أسمن وأخذه اللحم أوتر بسبع وصنع فى الركعتين الأوليين مثل صنيعه فى الأول ثم صلى ركعتين وهو جالس بعد ما سلم فتلك تسع أى نبى ، وفى رواية له فصلى ست ركعات يخيل إلى أنه سوى بينهن فى القراءة والركوع والسجود ثم يوتر بركعة ثم يصلى ركعتين وهو جالس ثم يضع جنبه ، وقالت كان يصلى ثلاث عشرة بوتر من ذلك بخمس ولا يجلس فى شىء إلا فى آخرها ، رواه البخارى ومسلم وسألها مسروق عن صلاته - صلى الله عليه وسلم - فقالت : سبعاً وتسعاً وإحدى عشرة سوى ركعتى الفجر ،والاضطراب فى تلك الروايات عن عائشة لاختلاف الرواة واختلاف الأوقات فيحمل ذلك على أوقات متعددة وأحوال

مختلفة بحسب النشاط وبيان الجواز، كما نصت عليه رواية مسروق المذكور . وروى القاسم عن محمد عنها ، كان ـ صلى الله عليه وسلم ـ يصلى ثلاث عشرة ركعة منها الوتر وركعتا الفجر وحمل على أن هذا غالب أحواله والحكمة قيل فى عدم الزيادة على إحدى عشرة أن صلاة الظهر والعصر ثمانى ركعات وهن صلاة النهار والمغرب وتر النهار وهى ثلاث فذلك إحدى عشرة فناسب أن تكون صلاة الايل كصلاة النهار فى العدد جملة وتفصيلا ، وأما مناسبة ثلاث عشرة فبضم ركعتى الفجر لكونها نهارية إلى ما بعدها فقيامه فى الليل أنواع :الأول ست ركعات يسلم ركعتين ثم يوتر بثلاث،الثانى أنه يفتح صلاته بركعتين خفيفتين ثم يتم ورده إحدي عشرة يسلم من كل ركعتين يوتر بركعة، الثالث ثلاث عشرة، كذلك الرابع ثمانى ركعات يسلم من كل ركعتين ثم يوتر بخمس سرداً لا يجلس إلا فى آخرهن ، الخامس تسع ركعات لا يجلس إلا فى الثامنة فيذكر الله ويحمده ويدعوه ثم يسلم ثم يصلى التاسعة ،ويصلى ركعتين بعد مايسلم فاعلا. السادس سبع كالتسع ثم يصلى ركعتين جالساً السابع أنه يصلى مثنى مثنى ثم يوتر بثلاث لا يفصل

بينهن ، الثامن ما رواه النسائى عن حذيفة أنه ـ صلى الله عليه وسلم صلى فى رمضان فركع فقال فى ركوعه سبحان ربى العظيم مثل ما كان قائماً ثم جلس يقول ربى اغفر لى فما صلى إلا أربع ركعات حتى جاء بلال يدعوه إلى الغداة ، وروى عنه أبو داود أنه رأى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يصلى من الليل فكان يقول : الله أكبر ثلاثاً ، ذو الملكوت والجبروت والكبرياء والعظم ، ثم استفتح فقرأ البقرة ثم ركع فكان ركوعه نحواً من قيامه وكان يقول فى ركوعه : سبحان ربى العظيم ثم رفع رأسه من الركوع فكان قيامه نحواً من ركوعه يقول: لربى الحمد ثم سجد فكان سجوده نحواً من قيامه وكان يقول فى سجوده : سبحان ربى الأعلى ثم رفع رأسه من السجود وكان يقعد فيما بين السجدتين نحواً من سجوده وكان يقول : ربى اغفر لى ، فصلى أربع ركعات قرأ فيهن البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، شك شعبة وذكر البخارى ومسلم أنه كان يقول سمع الله لمن حمده ، ربنا لك الحمد وأنه لايمر بآية تسبيح إلا سبح ولابآية سؤال إلا سأل ولا بتعوذ إلا تعوذ ، وزاد النسائى لا يمر بآية تخويف أو تعظيم لله عز وجل إلا ذكره وكان

أكثر صلاته قائماً . قالت حفصة ما رأيته ـ صلى الله عليه وسلم ـ صلى قاعداً حتى كان قبل وفاته بعام كان يصلى فى سبحته أى نافلته قاعداً،رواه أحمد ومسلم والنسائى وصححه الترمذى وكان يصلى قاعداً ويركع قاعداً ، رواه البخارى ومسلم وغيرهما من حديث عائشة بلفظ وإذا قرأ وهو قاعد ركع وسجد وهو قاعد ، وروى مسلم من حديثها أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يصلى جالساً ويقرأ وهو جالس فإذا بقى من قراءته قدر ما يكون ثلاثين آية أو أربعين قام وقرأ ثم ركع وسجد ثم يفعل فى الركعة الثانية مثل ذلك،وروى الدارقطنى عنها أنه كان يصلى متربعاً وذلك إما لأنه نفل وإما لأنه مختص بجواز التربيع وقد نهى عنه ،وإما لكونه كان جائزاً ثم نسخ ، وعن عائشة كان يوتر بواحدة ثم يركع ركعتين يقرأ فيهما وهو جالس فإذا أراد أن يركع قام فركع ، رواه ابن ماجه ، وعن أبى أمامة أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يصلى ركعتين بعد الوتر وهو جالس يقرأ فيهما إذا زلزلت والكافرون ، رواه أحمد وأنكر مالك هاتين الركعتين والنووى فى المجموع ، وقال أحمد لا أفعل ولا أمنعه

والصحيح أنه فعل ذالك بياناً بجواز الصلاة بعد الوتر ولفظه كان يصلى لا يفيد هنا دواماً ولا أكثرية وغلط من ظنهما سنة راتبة لأنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما داومها ﴿ عَسَى أن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ هذا ذكر لما قيام الليل سبب له وهو المقام المحمود . قال ابن العربى : اختلف فى وجه كون قيام الليل سبباً للمقام ، فقيل إن البارىء تعالى يجعل ما يشاء من فضله سبباً لفضله من غير معرفة لنا بوجه الحكمة ، وقيل إن قيام الليل فيه الخلو بالبارىء تعالى والمناجاة عنده دون الناس فيعطى الخلوة به ومناجاته فى القيامة ويتفاضل الخلق فى ذلك وأجلهم فيه درجة نبينا محمد ـ صلى الله عليه وسلم فيعطى من المحامد ما لم يعط أحد ويشفع فيشفع ، قال فى المواهب اتفق المفسرون على أن عسى من الله وأحب ، قال أهل المعانى لفظة عسى تفيد الإطماع ومن أطمع إنساناً فى شىء ثم حرمه كان عاراً والله تعالى أكرم من أن يطمع أحداً فى شىء ثم لا يعطيه ذا وقد اختلف فى تفسير المقام المحمود فقيل إنه الشفاعة ، قال الواحدى : أجمع عليه المفسرون كما قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى هذه الآية

هو المقام المحمود الذى أشفع فيه لأُمّتى ، قال ابن الخطيب اللفظ مشعر بذلك لأَن الإنسان إنما يصير محموداً إذ حمده حامد والحمد إنما يكون على الأَنعام فهذا المقام المحمود يجب أن يكون مقاماً أنعم فيه رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ على قوم فحمدوه على ذلك الأَنعام وذلك الإنعام لايجوز أن يكون هو تبليغ الدين وتعليم الشرع لأَن ذلك كان حاصلا فى الحال وقوله عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً يدل ع أنه يحصل النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى ذلك المقام حمد بالغ عظيم كامل ومن المعلوم أن حمد الإنسان على سعيه فى التخلص عن العذاب أعظم من سعيه فى زيادة من الثواب ولا حاجة به إليها لأَن احتياج الإنسان فى دفع الآلام العظيمة عن النفس فوق احتياجه إلى تحصيل المنافع الزائدة التى لا حاجة إلى تحصيلها فتحصل أن المقام المحمود هو الشفاعة لأَهل المحشر بعد مدافعتهما بين الرسل وفيها تخليص المؤمنين من الآلام والعذاب ، وفى البخارى عن ابن عمر سئل رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ عن المقام المحمود ، فقال : هو الشفاعة ، وفيه أيضاً عنه قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ إن

الناس يصيرون يوم القيامة جثا كل أمة تتبع نبيها يقولون يافلان اشفع لنا حتى تنتهى الشفاعة إلىّ ، فذلك المقام المحمود ويؤيده الدعاء المشهور وابعثه مقاماً محموداً يغبطه فيه لأولون والآخرون ونصب قوله مقاماً على الظرفية بمحذوف أى وبعثه يوم القيامة فأقيمك مقاماً محموداً فحذف العاطف والجملة المعطوفة أو على أنه مفعول به وضمن معنى يبعثك معنى قيمك ويجوز كونه حالا أى ذا مقام ، قال الطيبى نكر لأنه أفخم وأجزل أى مقاماً محموداً بكل لسان ا . ه ، ويحمده القائم فيه وكل من عرفه ، قال ابن الجوزى الأكثر على أن المقام المحمود الشفاعة وادعى الفخر الاتفاق عليه ، قال أبو هريرة : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — هو المقام الذى أشفع فيه لأمتى ، رواه الترمذى والآية تشعر بأن الناس يحمدونه لقيامه فيه وما ذاك إلا مقام الشفاعة وعن أنس أن النبى — صلى الله عليه وسلم — قال : يجمع الله يوم القيامة فيهتمون لذلك، وفى رواية فيلهمون لذلك فيقولون لو استشفعنا إلى ربنا فيريحنا من مكاننا فيأتون آدم فيقولون أنت آدم أبو البشر خلقك الله بيده وأسكنك جنته وأسجد لك ملائكته وعلمك أسماء كل

شيء، اشفع لنا عند ربك حتى يريحنا من مكاننا هذا ، فيقول : لست هنا لكم ويذكر خطيئته التى أصاب فيستحى من ربه منها ، ولكن ائتوا نوحاً أول رسول بعثه الله إلى الأرض ، فيأتون نوحاً فيقول : لست هنا لكم فيذكرون خطيئته التى أصاب فيستحى من ربه منها ، ولكن ائتوا إبراهيم الذى اتخذه الله خليلا فيأتون إبراهيم فيقول است هنا لكم ويذكر خطيئته التى أصاب فيستحى من ربه منها، ولكن ائتوا موسى الذى كلمه الله وأعطاه التوراة فيأتونه فيقول : است هنا لكم ويذكر خطيئته التى أصاب فيستحى من ربه منها، ولكن ائتوا عيسى روح الله وكلمته فيقول : لست هنا لكم لكن ائتوا محمداً – صلى الله عليه وسلم – عبداً قد غفر له من ذنبه ما تقدم وما تأخر، فيقول إذا أتوه: أنا لها ، أنا لها ، ثم تلى – صلى الله عليه وسلم – عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً ، قال أنس هذا المقام الذى وعده نبيكم محمداً – صلى الله عليه وسلم – ومثل ذلك عن الحسن ولكن فى رواية المخالفين عنهما إثبات الرؤية وإخراج أهل النار الموحدين بهذه الشفاعة وإزاحة بعض الشقاة الموحدين عنها بهذه الشفاعة قبل

دخولها ، ويقولون إنها لأهل الكبائر المصرين . قال الربيع بن حبيب ـ رحمه الله، قال جابر بن زيد، قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليست الشفاعة لأهل الكبائر من أمتى ثم حلف جابر عند ذلك ما لأهل الكبائر شفاعة لأن الله قد أوعد لهم النار فى كتابه ، وإن جاء الحديث عن أنس بن مالك أن الشفاعة لأهل الكبائر فهو والله ما أعنى القتل والزنى والسحر وما أوعد الله عليه النار ، وذكر أن أنس بن مالك يقول: إنكم لتعملون أعمالا هى أدق فى أعينكم من الشعر ما كنا نعدها على عهد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلا من الكبائر ، وذكر الربيع من حديث الشفاعة أن أهل الإيمان يحبسون فى الموقف بعد ما بشروا وعند الموت وبعد ما أجابوا عند المحنة فى القبور أن الله ربهم قد غفر لهم وأخذ لهم كتبهم بإيمانهم وابيضت وجوههم وثقلت موازينهم فأراد الله أن يدخلهم الجنة بالشفاعة والشفاعة مخزونة لا يصل إليها نبى ولا ملك حتى يفتحها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : والأنبياء ومن اتبعهم محبوسون الأولون والآخرون فبينما هم كذلك فيقولون لو استشفعنا إلى ربنا فيريحنا من هذا المقام فيقول بعضهم

لبعض عليكم بآدم ، فيقولون:أنت الذى خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأسجد لك ملائكته لو استشفعت لنا إلى ربك فيريحنا من هذا المقام ، فيقول:إنى أكلت من الشجرة التى نهانى الله عنها ، وإنى أستحى من لقاء ربى ، ولكن عليكم بنوح فإنه أول نبى أرسله الله فيأتون نوحاً فيقولون له لو استشفعت لنا إلى ربك . فيقول إنى سألت ربى ما ليس لى به علم ، وأنا أستحى من لقاء ربى ولكن عليكم بإبراهيم خليل الرحمن فيأتونه فيقولون له :لواستشفعت لنا إلى ربك. فيقول إنى استحى من لقاء ربى ولكن عليكم بموسى عليه السلام ، كليم الله ، فيأتونه فيقولون له : لو استشفعت لنا إلى ربك ، فيقول : إنى قتلت نفساً فأنا أستحى من لقاء ربى ولكن عليكم بعيسى فإنه روح الله وكلمته ،فيأتونه فيقولون لو استشفعت لنا إلى ربك فيقول : أنا عبدت من دون الله فإنى أستحى من لقاء ربى ولكن عليكم بمحمد عبد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر . قال النبى – صلى الله عليه وسلم – يأتونى فأمشى بين سباطين من المؤمنين فأقرع باب الجنة فيفتح لى ويقال : يامحمد شفع تشفع فأقول : يارب ما بقى إلا من حبسه القرآن ، يعنى

أوجب عليه الخلود فى النار ، قال أهل العلم : هو المقام المحمود الذى يحمده فيه الأولون والآخرون حيث نجاهم الله من ذلك المقام ويحمده الأولون بما فتح لهم من الشفاعة وكانت مخزونة لا يصل إليها أحد حتى فتحها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يشفع آدم فى وقت وقت له فى ولده ثم تشفع الأنبياء كل نبى يشفع لأمته ويشفع المؤمنون وكذلك شاء الله أن يدخل المؤمنين الجنة بالشفاعة حتى بلغنا أن الشهيد يشفع فى سبعين من أهل بيته إذ كانوا مؤمنين متقين ، وقد كنت أستشكل ما مر فى حديث أنس وفى رواية الربيع بن حبيب رحمه الله من أن نوحا أول الرسل مع أن آدم وشيث وإدريس رسل قبل نوح كما ثبت عندنا وعند غيرنا ومن ذلك حديث أبى ذر الذى فى القواعد أن آدم رسول ، وكذا رواه ابن حبان وصححه وفى حديث أبى ذر المذكور التصريح بإنزال الصحف على شيث،وهو من علامات الإرسال ومثل ذلك فى إدريس وأجاب بعض بأن الثلاثة أنبياء غير رسل وإلى هذا جنح ابن بطال فى حق آدم ويرده ما ذكرناه وأجاب بعض بأن الأولية مقيدة بقول أهل الأرض والثلاثة لم يرسلوا إلى أهل الأرض

وبعض بأن آدم كانت رسالته إلى بنيه وهم موحدون ليعلمهم شريعته ،
ونوح رسالته كانت إلى قوم كفار، ويبقى إدريس وشيث على هذا
القول . قال أبو سعيد : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنا سيد
ولد آدم ، ولا فخر يوم القيامة يفزع الناس ثلاث فزعات فيأتون
آدم فيقولون أنت أبونا اشفع لنا إلى ربك ، فيقول : إنى أذنبت
ذنباً عظيماً فاهبطت به إلى الأرض ولكن ائتوا نوحاً ، فيقول :
إنى دعوت على أهل الأرض فأهلكوا ولكن اذهبوا إلى إبراهيم فيأتون
إبراهيم فيقول إنى كذبت ثلاث كذبات . قال رسول الله ـ صلى الله
عليه وسلم ـ ما منها كذبة إلا أحل بها عن دين الله ، أى جادل ،
ولكن ائتوا موسى فيأتون موسى فيقول : قد قتلت نفساً ولكن ائتوا
عيسى فيأتون عيسى : فيقول : إنى عبدت من دون الله ولكن ائتوا
محمداً فيأتوننى فأنطلق معهم فيأخذ حلقة بباب الجنة فأقعقعها أى
أحركها حركة شديدة لها صوت كأنه قعقع ، فيقولون من هذا . فيقول :
محمد . فيفتحون لى ويرحبون فأخر ساجداً فيلهمنى الله سبحانه
من الثناء والحمد شيئاً عظيماً لم يلهمه غيرى ، فيقال لى ارفع رأسك
سل تعط ، اشفع تشفع ، وقل يسمع لقولك ، وهو المقام المحمود

الذى قال الله عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً ، والكذبات الثلاث قوله :إنى سقيم وقوله بل فعله كبيرهم هذا،وقوله للجبار فى زوجته :إنها أختى وهن معاريض أشفق منهن لأنهن بصورة الكذب ، وعن أبى زرعة عن أبى هريرة ، قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ أنا سيد الناس يوم القيامة ، هل تدرون مم ذلك يجمع الله الأولين والآخرين فى صعيد واحد،فيبصرهم الناظر ويسمعهم الداعى وتدنو الشمس فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون ، فيقول الناس : ألا ترون إلى ما أنتم فيه ، ألا ترون إلى ما بلغتم ، ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم،فيقول بعض الناس لبعض : أبوكم آدم فيأتونه فيقولون يا آدم أنت أبو البشر خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأمر الملائكة فسجدوا لك وأسكنك الجنة ألا تشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى ما نحن فيه ، وما بلغنا . فقال : إن ربى غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله ، وإنه نهانى عن الشجرة فعصيت،نفسى نفسى ، اذهبوا إلى غيرى ، اذهبوا إلى نوح . فيأتون كل رسول من الرسل المذكورين فيقولون له كما قالوا لآدم

فيقول لهم كل ما قال آدم ويذكر معصيته على حد ما مر ويرشدهم إلى غيره ثم يسمى لهم اسم من يأتيه فى القصة إلا عيسى فلم يذكر فى تلك الرواية ذنبه ويذكرون لنوح أنك أول الرسل إلى أهل الأرض عبد شكور ، ويذكرون لإبراهيم الخلة ، ولموسى الكلام ولعيسى أنه كلمة الله وكلمه الناس فى المهد ولنبينا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ أجمعين ويذكرون أنك خاتم الأنبياء مغفور لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ،فيأتى العرش فيسجد لله تعالى ويفتح الله تبارك وتعالى عليه ما لم يفتح على أحد من المحامد وحسن الثناء ، ثم يقال يامحمد ارفع رأسك سل تعط ، واشفع تشفع ، فأرفع رأسى فأقول أمتى يارب ؛ أمتى يارب ، فيقال : يامحمد أدخل من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن من أبواب الجنة وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب ، ورأيت فى كتاب كشف علوم الآخرة من تأليف الغزالى أن بين وقوفهم فى المحشر وإتيانهم آدم ألف عام ، وأن بين إتيانهم رسولا وإتيانهم الآخر ألف عام ،.وهكذا وأنهم يذكرون لآدم أن الكافر

يقول : يارب ارحمنى ولو بالنار،وأنه إذا دافعهم نوح إلى من بعده تشاوروا ألف عام ، وهكذا سائر الرسل المذكورين فى القصة ، وأن الزحام يشتد وأن موسى يذكر لهم إنى سألت الله تعالى أن آخذ آل فرعون بالسنين وأن يجعله مثلا للآخرين مع أشياء صدرت منى فى المناجاة توجب الهلاك إلا أنه ذو رحمة واسعة ، ورب غفور ، وأن موسى يذكر لهم أن عيسى عليه الصلاة والسلام أصح المرسلين يقيناً وأكثرهم معرفة وأشدهم زهداً وأبلغهم حكمة ، وأن كل رسول يذكر لهم خصال نبى يليه فى القصة وأنهم يقولون لعيسى أنت روح الله وكلمته ، أنت الذى سماك الله وجيها فى الدنيا والآخرة ، وأنه يقول لهم كيف أشفع لكم عند من عبدت معه،وسميت له ابناً وسمى لى أبا ، ولكن لو كان لأحدكم كيس فيه نفقة،أيقدر أن يحل الكيس حتى يفض الخاتم . قالوا : لا . قال : فاذهبوا إلى سيد المرسلين وخاتم النبيين ــ صلى الله عليه وسلم ــ وكثيراً ما أذاه قومه حتى هشموا جبهته وكسروا رباعيته وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً وإنه لأحسنهم خلقاً

وأكرمهم شرفاً ، وهو يقول كما يقول الصديق لإخوته: لاتثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وجعل يتلو عليهم من فضائله ما لم يسمعوه حتى امتلأت نفوسهم حرصاً على الذهاب إليه فيأتون منبره فيقولون أتينا فلاناً وفلاناً ولا مطلب بعدك ، فيقول : أنا لها وإنه يا خل العرش فيسجد سجدة طويلة يحمد الله تعالى فيها بالمحامد التى حمد الله نفسه بها يوم تم خلق السماوات والأرض فيتحرك العرش تعظيماً له ، وذكر ابن حجر إنى لم أقف لما ذكر الغزالى فى كتابه المذكور على أصل ، ولقد أكثر من إيراد أحاديث لا أصل لها فلا يعتبر بشىء منها ، وفى حديث النضر بن أنس عن أبيه ، حدثنى نبى الله – صلى الله عليه وسلم – إنى لقائم أنتظر أمتى إذ جاء عيسى فقال : يامحمد هذه الأنبياء قا جاءتك يسألونك أن تدعو الله ليفرق الأمم إلى حيث شاء لعظم ما هم فيه ، فأفادت هذه الرواية أن عيسى والأنبياء يسألون نبينا محمد فى الشفاعة ولعلهم سائر الأنبياء مع عيسى غير المطلوبين أو معهم ، وفى حديث سلمان ، يأتون محمداً فيقولون يانبى الله أنت

فتح الله بك وختم وغفر لك ما تقدم وما تأخر وترى ما نحن فيه فقم فاشفع لنا إلى ربنا فيقول أنا صاحبكم فيجوز الناس حتى ينتهى إلى باب الجنة وذلك لأن المحشر مقام خوف وإشفاق ومقام الشافع يناسب أن يكون إكراما ، وفى رواية أنه يلهم التحميد قبل السجود وفى بعض يلهم بعده،وفى أخرى فيه ويجمع بإثبات تلك الإلهامات كلها ،والذى عليه أصحابنا أن الذين يمشون من نبى إلى نبى هم المسلمون يستريحوا أهل المحشر جميعاً وستظهر بعض أنه لا يلحق المسلمين هول المحشر وأنهم آمنون مطمئنون للآيات الدالة أنه لا خوف عليهم ولا حزن وأن وجوههم مسفرة ضاحكة مستضيئة والأحاديث دالة على ذلك وأنه لا يجمع على أحد خوف الدنيا والآخرة،فمعنى قولهم فيريحنا من هذا المقام طلب الإراحة من النظر إلى الأهوال وإن لم يصل إليهم منها شىء كذا قيل،وليس كذلك عندى بل يصلهم الهول بقدر ما عملوا إلا من استثناه ونقف فى ظل العرش وأما تلك الآيات والأحاديث فإنما هى بعد إعطاء الصحف فى أيمانهم ؛وذكر بعضهم أن الكفار لايطلبون

الشفاعة العامة لأن ما يذهبون إليه من النار أعظم من هول المحشر

وورد فى أحاديث رواها قومنا أنهم يطلبونها وقد مر بعضها والشفاعات

أقسام ، الأول الشفاعة من المحشر وهى عامة والأصل فيها هذه الأمة

وغيرهم تبع لهم بدليل أنه يقول - صلى الله عليه وسلم - فيها أمتى

وهى تعم بنى آدم والجن والملائكة ، وظهر فضله فيها من حيث

اختصاصها به ، قال بعض لو لم يكن فى ذلك إلا الفرق بين من يقول

نفسى نفسى ، وبين من يقول أمتى أمتى لكان كافياً وفيه تفضيل الأنبياء

المذكورين فيه على من لم يذكر وقيل ليس ذلك تفضيلا بل آدم

لكونه أبا الجميع ونوح لكونه الأب الثانى ، وإبراهيم الآمر باتباع

ملته ، وموسى لأنه أكثر الأنبياء تابعاً ، وعيسى لكونه أولى الناس

بنبينا محمد - صلى الله عليه وسلم - ويحتمل أن يكونوا قد اختصوا

بذلك لأنهم أصحاب شرائع عمل بها من نبى ذكر أولا ومن بعده . الثانى :

إدخال قوم الجنة بغير حساب ، وقد مر أنهم يدخلون الجنة من الباب

الأيمن ويشاركون غيرهم فى باقى الأبواب . قال الغزالى : هم سبعون ألفاً

لا يرفع لهم ميزان ولا يأخذون صحفاً ، وإنما هى براءة مكتوبة لا إله إلا الله محمد رسول الله ـ هذه براءة فلان ابن فلان قد غفر له ، وسعد سعادة لا شقاء بعدها أبداً ، الثالث: رفع الدرجات لمن حوسب ومن لم يحاسب وهى مشهورة فى المذهب ولا يكاد يذكر غيرها فيه . وقد ذكرها النووى من الشافعية . الرابع: إدخال قوم قد حوسبوا حساباً يسيراً وماتوا تائبين وسبقت لهم السعادة عند الله وقضى الله أن يكون ذلك على يد محمد ـ صلى الله عليه وسلم . الخامس : إدخال أصحاب الأعراف الجنة ، أخرج الطبرانى عن ابن عباس أنه قال : السابق يدخل الجنة بغير حساب يعنى وبرحمة الله والمقتصد برحمة الله والظالم لنفسه وأصحاب الأعراف يدخلونها بشفاعته ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهذه الأقسام لا بأس بها على المذهب وزاد قومنا . سادساً : وهو إخراج الموحدين من النار ، وزاد عياض . سابعاً : هو إخراج أبى طالب من غمرات النار إلى ضحضاح منها يبلغ كعبيه يغلى منها دماغه وزاد بعض . ثامناً : هو الشفاعة لأهل المدينة لحديث سعد لا يثبت أحد

على لوائها إلا كنت له شهيداً أو شفيعاً ويجاب بأنه داخل فى بعض ما مر وبأنه لو فتح هذا الباب لعدت شفاعة أهل مكة وأهل الطائف ، قال عبد الملك بن عباد : سمعت النبى - صلى الله عليه وسلم - يقول : أول من أشفع له أهل المدينة ، ثم أهل مكة ، ثم أهل الطائف . رواه البزار وآخر لمن زار قبره الشريف ، وأخرى لمن أجاب المؤذن ثم صلى عليه - صلى الله عليه وسلم - وقيل المقام المحمود ما ذكره حذيفة يجمع الله الناس فى صعيد واحد فلا تكلم نفس فأول مدعو محمد - صلى الله عليه وسلم - فيقول : لبيك وسعديك والخير بيديك والمهتدى من هديت وعبدك بين يديك ولك وإليك ولاملجأ منك إلا إليك تباركت وتعاليت سبحانك رب البيت ، وزاد بعض وعلى عرشك استويت قيل قوله سبحانك رب البيت ، وزاد الشيخ هود وغيره بعد قوله الخير بيديك والشر ليس إليك ، قال فهذا هو المراد من قوله تعالى : عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً . رواه الطبرانى وزاد الشيخ هود فى آخره أنه قيل له اشفع فذلك هو المراد من قوله تعالى : الخ . .

قال الفخر: والقول بأنه الشفاعة العامة أولى لأن سعيه فى الشفاعة يفيد إقدام الناس على حمده فيصير محموداً ، وأما ما ذكره من الدعاء فلا يفيد إلا الثواب أما الحمد فلا فإن قيل له: لم لا يجوز أن يقال إنه تعالى يحمده على هذا القول ، فالجواب لأن الحمد فى اللغة مختص بالثناء المذكور فى مقابلة الإنعام فإن ورد لفظ الحمد فى غير هذا المعنى فمجاز ، وقيل إن المقام المحمود مقام تحمد عاقبته ، قال الفخر : هذا أيضاً ضعيف لما ذكرناه ، وقيل المقام المحمود إجلاسه – صلى الله عليه وسلم – على العرش ، وقيل على الكرسى . وروى عن ابن مسعود يقعد الله تعالى محمداً – صلى الله عليه وسلم – على العرش ، وعن مجاهد يجلسه معه على العرش . قال الواحدى : هذا قول رذل موحش فظيع ونص الكتاب ينادي بفساده ويدل على إفساده أن البعث ضد الإجلاس لكن يجاب بأن المعنى عسى أن يبعثك ربك ويقيمك مقاماً محموداً ، أو ضمن يبعث معنى يقيم كما مر ويدل على فساده أنه يلزم تحديد الله سبحانه وتعالى والمحدود محدث تعالى الله وأنه قال مقاماً ولم يقل

مقعداً أومجلساً، وهذا يجاب عنه بأن المقام قد يطلق على موضع
اللبث مطلقاً ؛ قلت محض الفساد القاطع هو قوله معه فإن صح ذلك
فمعنى المعية كمعنى العندية فى قوله تعالى : رب ابنِ لى بيتاً فى الجنة ؛
وقوله سبحانه : إن الذين عند ربك ، وقيل المقام المحمود كل ما له
من الفضائل فى المحشر ، واختلف فى فاعل الحمد من قوله تعالى : محمود
فالأكثر على أن المراد أهل الموقف ، وقيل النبى – صلى الله عليه وسلم –
أى أنه يحمد عاقبة ذلك المقام بتهجده فى الليل والأول أرجح
لحديث ابن عمر بلفظ مقاماً محموداً يحمده أهل الجمع كلهم ،
وقيل يحمده القائم فى ذلك المقام وكل من عرفه وهو مطلق فى كل
ما يجلبه الحمد من أنواع الكرامات،واستحسنه أبو حيان ومذهبنا
أن الشفاعة ليست لأهل الكبائر لقوله تعالى : ما للظالمين من حميم
ولا شفيع يطاع ، وقوله – صلى الله عليه وسلم – لاينال شفاعتى ظلوم
غشوم ورجل لا يراقب الله تعالى فى اليتيم ، رواه جابر بن زيد وقوله –
صلى الله عليه وسلم – لا تنال شفاعتى الغالى فى الدين ، والجافى عنه ،

يعنى الزائد فيه والناقص منه ؛ رواه جابر بن زيد ، وقوله — صلى الله عليه وسلم — صنفان من أُمتى لا تنالهما شفاعتى : القدرية ؛ والمرجئة ، رواه جابر بن زيد — رحمه الله — وغير ذلك .

﴿ وقُل ﴾ يامحمد ﴿ رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ ﴾ . قال ابن عباس نزل حين أمر رسول الله — صلى الله عايه وسلم بالهجرة ، قال المراد ادخلنى المدينة مدخل صدق لا أرى ما أكره ، وأخرجنى من مكة مخرج صدق لا ألتفت إليها بقلبى ،وروى عنه أدخلنى القبر بالموت مدخل صدق أى طاهراً من السيئات وأخرجنى منه بالبعث مخرج صدق أى ملقى بالكرامة مرضياً عنى ، وقيل أدخلنى الجنة وأخرجنى من مكة ، وقيل أدخلنى المدينة ، وأخرجنى إلى قتال بدر ، وقيل أدخلنى مكة ظاهراً علي أهلها بالفتح وأخرجنى منها آمناً من المشركين فيكون العطف عطف سابق على لاحق ، وقيل المراد إدخاله الغار وإخراجه منه سالماً ، وقيل أدخلنى فى أمرك الذى أرسلتنى به

من النبوة مدخل صدق وأخرجنى من الدنيا وافيا مبلغاً . وقيل أدخلنى
فى طاعتك مدخل صدق وأخرجنى من المناهى مخرج صدق وقيل دعاء
بتحسين حاله فى كل ما يتناول من الأمور الدينية والدنيوية وكأنه
قيل رب أصلح لى وردى فى كل الأمور وصدرى منها وهو أظهر وأحسن
لعمومه ، وقيل لا تجعلنى ممن يدخل بوجه ويخرج بوجه ومدخل
ومخرج مصدران ميميان من إدخال وإخراج الرباعيين أى إدخال
صدق وإخراج صدق واسما مكانين ، أى موضع إدخال الصدق
وموضع إخراج الصدق،وهذا ضعيف والموضعان مجازان عن الأمر
الذى يشرع فيه أو يفرغ منه أى لا تجعلنى ممن يفرغ من أمر غير صدق
أى لا تدخلنى فيه فضلا عن أن أخرج منه ، وقرأ بفتح الميمين على
أنهما مصدران ميميان من دخل وخرج الثلاثيين أى خروجاً ودخولا
ولا يخفى أيضاً ضعف المكان وهما على هذه القراءة اسما مصدرين باعتبار
أدخلنى وأخرجنى أو يقدر لهما عامل ثلاثى أى رب أدخلنى فأدخل دخول
صدق وأخرجنى فأخرج خروج صدق والصدق كون الشىء خالياً عن

مكدر كمعصية وخيانة وكذب ومضرة ، والآية للهإلى قوله نظيراً للدخول على السلطان وإزالة الخوف من القلب من أراد ذلك فليتطهر وليلبس ثوباً نظيفاً وليصل ركعتين ثم يتلوها فى طريقه إلى أن يقف بين يدى السلطان فإنه يرى منه الفضل إن شاء الله تعالى. ﴿ وَاجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ ﴾ من عندك. ﴿ سُلْطَانًا ﴾ برهاناً قوياً. ﴿ نَّصِيرًا ﴾ ينصرنى على من خالفنى أى تنصرنى به أو مُلكاً بضم الميم وإسكان اللام وعزا ينصر الإسلام على الكفر ، وبالأول قال مجاهد فوعده الله لينزعن ملك فارس والروم وغيرهما ويجعله له ، وأجاب دعاءه ، وقال والله يعصمك من الناس . وقال : ليظهره على الدين كله ، وقال : وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض وقال ألا إن حزب الله هم الغالبون ، وعنه ــ صلى الله عليه وسلم ــ أنه استعمل عتَّاب بن أسيد على أهل مكة ، وقال انطلق فقد استعملتك على أهل الله فكان شديداً على المريب ليناً على المؤمن ، وقال والله لا أعلم متخلفاً يتخلف عن الصلاة فى جماعة إلا ضربت عنقه فإنه لا

يتخلف عن الصلاة إلا منافق ، فقال أهل مكة : يارسول الله لقد استعملت على أهل دين الله عتاب بن أسيد أعرابيا جافيا ، فقال - صلى الله عليه وسلم - إنى رأيت فيما يرى النائم كأن عتاب بن أسيد أتى باب الجنة فأخذ بحلقة الباب وقلقلها قلقا لا شديداً حتى فتح الله له فد خلها فأعز الله به الإسلام لنصرته للمسلمين على من يريد ظلمهم فذلك السلطان النصير .

﴿ وَقُلْ جَاء الْحَقُّ ﴾ أى قل عند دخول مكة إذا فتحها لك جاء الحق أى دين الله . ﴿ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ ﴾ذهب دين الشيطان من زهقت روحه إذا خرجت وذلك التعميم أولى من قول قتادة الحق القرآن ، والباطل الشيطان ، وقول فرقة الحق الإيمان والباطل الكفر إلا إن أريد فى القولين العموم الذى ذكرت . ﴿ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ سريع الزوال ولو ثبت فى دولة ويفيد هذا الكلام قرب نزول عيسى بن مريم عليه السلام جداً وقرب قيام الساعة لانتشار الشرك وأعوانه فى هذا الوقت الذى نحن فيه انتشار لم يعهد فى هذه الأمة قط حتى أنا لا نظن

أنه يزول إلا بعيسى بن مريم . قال ابن مسعود :دخل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مكة يوم الفتح وحول البيت ثلاث مائة وستون صنما ، فجعل يطعنها بعود فى يده ويقول : جاء الحق وزهق الباطل وما يعبد رواه البخارى ومسلم والآية نزلت بمكة قبل الهجرة أمران يستشهد بهما عند الفتح وطعن الأَصنام ، وقيل نزلت الآية يوم الفتح ، فقال جبريل لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ خذ مخصرتك وهى ما يمسكه الإنسان بيده من عصاة وغيرها مما يختصره الإنسان ويطلق أيضاً على السوط وألقها على كتفك واطعن بها الأَصنام ، فكان يطعن بها كل صنم فى عينه بعد أن يقول : جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً ،فيخر كل صنم على قفاه لطعن غير شديد وكانت موثقة برصاص أو نحوه حتى ألقاها كلها ، أو كان كل صنم لقبيلة من العرب تحج إليه وتنحر إليه ، ولم يبق إلا صنم من قوارير من صفر لخزاعة فقال : يا على ارم به محمد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى صعد فرمى به فكسره وجعل أهل مكة يتعجبون من وقوع كل صنم على قفاه

بطعن ضعيف بآلة ضعيفة ، وقيل يشير إشارة فتقع ، ويقولون ما رأينا رجلا أسحر من محمد . وعن ابن عباس : شكا البيت إلى الله عز وجل فقال : يارب حتى متى تعبد هذه الأصنام حولى دونك فأوحى الله إلى أنى سأحدث لك نوبة جديدة فأملأك خدوداً سجداً يزفون إليك زفيف النسور ويحنون إليك حنين الطير إلى بيضها لهم عجيج حولك بالتلبية فكان ذلك من حين الفتح وتلك الشكاية حقيقة عندى بأن خلق الله فى البيت التمييز حينئذ ، وقال الزمخشرى تمثيل ومن كتب وقد جاء الحق الآية فى ورقة صفراء خمس مرات ونجمها تحت السماء وعلقها على من به السحر فإنه يبطل ويذهب عنه إن شاء الله تعالى .

﴿ وَنُنَزِّلُ ﴾ وقرأ أبو عمرو بن عامر بإسكان النون الثانية وتخفيف الزاى . ﴿ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ ﴾ أى ماهو فى تقويم دينهم واصلاح نفوسهم كالدواء الشافى للمريض ﴿ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ نعمة لهم ينتفعون به دنيا وأخرى ، ومن البيان لأن القرآن كله شفاء ورحمة ، وقيل للتبعيض ،والمعنى أن منه ما هو شفاء يرحم به من الضر كالفاتحة

وآيات الشفاء للمرض ولا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين
لكل كربة وسورة يس لما قرئت له وعنه - صلى الله عليه وسلم - من
لم يستشف بالقرآن فلا شفاه الله ، والقرآن شفاء لأمراض الجسم
وأمراض القلب بالاعتقاد الباطل كإنكار البعث والقدر والأخلاق
الذميمة الصادرة وآثارها من اللسان والجوارح ويجوز كون الرحمة
هى الشفاء بمعنى أن إنزال ما هو شفاء للمؤمنين رحمة لهم إذ لم يتركهم
بلا شفاء . ﴿ وَلَا يَزِيدُ ﴾ القرآن أو لا يزيد ما هو شفاء ورحمة وهو
القرآن كله ؛ على أن من للبيان أو لا يزيدهم بعضه الذى هو شفاء
وأخرى أن لا يزيدهم البعض الآخر ، فإنه إذا لم يزدهم ما هو منه فى
غاية من الإرشاد والصلاح حتى تأثر فى الأمراض الجسمية فأولى
أن لا يزيدهم البعض الآخر على أن من للتبعيض . ﴿ الظَّالِمِينَ ﴾
الكافرين . ﴿ إِلَّا خَسَارًا ﴾ لكفرهم به وكل ما سمعوا بنزول أو شىء منه
أو تلاوة شىء منه كذبوا به والتكذيب به خسار فخسارهم يتجدد
بتجدد النزول وتجدد السماع أو لأن المؤمن ينتفع بالقرآن ويربح

به أمر الدين والدنيا والكافر لا يربح به ولا ينتفع فذلك خساره .
قال قتادة : لم يجالس القرآن أحد إلا قام عنه بزيادة ونقص قضاء الله الذى قضى شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً .

﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا ﴾ بصحة الجسم وسعة الرزق ﴿ عَلَى الإِنسَانِ ﴾ الكافر ﴿ أَعْرَضَ ﴾ عن ذكر الله وشكره ودعائه كأنه مستغن عن الله مستبد به . ﴿ وَنَأَى ﴾ تباعد عن التقرب إلينا ﴿ بِجَانِبِهِ ﴾ بنفسه فإن من تباعد بجانبه فقد تباعد بكله لأنه جسم واحد متصل كنى عن ترك التقرب إلى الله تعالى بالتباعد الحسى بالجسم، ويجوز أن يكون نأى بجانبه بمعنى تبختر وتكبر لأن من عادة المتكبر أن يلوى جانبه، قرأ ورش فتحة همزة نأى بين بين وأمال خلف ، والكسائى فتحة همزة نأى وفتحة النون هنا ، وفى فصلت وأمال خلاد فتحة الهمزة فقط فى السورتين ، وروى عن أبى شعيب مثل ذلك وأمال أبو بكر فتحة الهمزة هنا وأخلص فتحها فى فصلت ، والباقون يخلصون فيهما، وقرأ ابن ذكوان وناء بتقديم الألف على الهمزة على القلب أو بمعنى نهض ذكر تلك القراءات أبو عمر

الدانى والقاضى ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ ﴾ كفقر ومرض وشدة أو نازلة . ﴿ كَانَ يَئُوسًا ﴾ شديد الإياس من رجوع ما كان فيه من النعمة والعافية وقيل إذا مسه الشر كان يئوسًا بتأخر الإجابة وذلك أنه إذا مسه الشر دعا الله وحده فى إزالة ذلك فإذا لم يعاجله بالإزالة أيس ولا ينبغى للإنسان ترك الدعاء ولو تأخرت الإجابة ،ويجوز عندى أن يكون المراد بالإنسان فى الآية المشرك والفاسق والمؤمن لأن الإعراض والتباعد والإياس مما يعرض للمؤمن أيضاً لكن لا يموت إلا تائبا مخاصاً فأقبل الحق ولا تقلد .

﴿ قُلْ ﴾ يامحمد للمشركين . ﴿ كُلٌّ ﴾ منا ومنكم تفسير ﴿ يَعْمَلَ عَلَى شَاكِلَتِهِ ﴾ طريقته التى تشاكل أى تناسب حاله فى الهدى والضلالة وتليق بحاله أو تشاكل روحه وأحواله التابعة لمزاج بدنه، فإن كانت روحه شريفة طاهرة صدرت أفعال جميلة ، وإن كانت خبيثة صدرت أفعال خسيسة ، وهكذا تختلف أفعاله فى المباح بحسب المزاج وبه تختلف الطبائع ، وقد فسر بعضهم الشاكلة بالطبيعة فإن المزاج ينشأ

عنه الطبع ، والطبع له أثر فى المبا ح والأُمور الدينية ؛ ألا ترى أن بعضاً ينقاد بطبعه إلى كلام من يكلمه حتى يفهمه ويتأمله ؛ وبعضاً ينفر من أول ما يسمع ، وفسر بعضهم الشاكلة بالعادة ، وبعض بالدين وقيل الشاكلة النية ، ورواه بعض أهل الأَندلس عن الحسن. ﴿ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا ﴾طريقاً فنثيبه عليه أنحن أم أنتم وهذا أشد مناسبة فى تفسير الشاكلة بالطريقة .

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ﴾ أى يسأَلك قريش عن الروح المركب فى الحيوان من الإنسان وغيره الذى به يحيا ما هو . ﴿ قُلِ ﴾ لهم ﴿ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ مما وجد الله بقوله كن من غير مادة وتولد من أصل كأَعضاء الجسد فإنها تولدت من نطفة والنطفة تولدت من متولد بواسطة مأْكول ومشروب إلى آدم المتولد من تراب، والمعنى : قل الروح وجد بأَمر ربى وحدث بتكوينه لكن هذا على أنهم سأَلوه هل الروح قديم أو حادث ؟ أوالمعنى قل الروح من أمور الله التى اختص بعلمها .

﴿ وَمَا أُوتِيتُم ﴾ وقرأ الأعمش وما أوتوا الخ ، وفى قراءة الجمهور التفات . ﴿ مِّنَ الْعِلْمِ ﴾ علم الدين وعلم الدنيا . ﴿ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ بالنسبة إلى علم الله فإن قريشاً قد علمت بعضاً كعلمهم بوجود الله وبأنه الرازق وعلمهم بأمور المعيشة، وأشار بهذا إلى أن الروح ممالايمكن معرفة ذاته إلا بعوارض تميزه عما يلتبس به فلذلك اقتصر على هذا الجواب كما اقتصر موسى على قوله رب السماوات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين، فى جواب قول فرعون وما رب العالمين. والقليل الذى أوتيتموه إنما هو بواسطة حواسكم فإن العلم النظرى إنما يستفاد من الضروريات المستفادة من إحساس الجزئيات ومن فقد حساً فقد علماً، وأكثر الأشياء لا تدركه الحاسة بذاته بل بواسطة القياس والتمثيل وغيرهما .

قال الكلبى بعث المشركون رسولا إلى المدينة يسألون اليهود عن نعت النبى الذى حل مبعثه ، فوجدوا بها علماء اليهود من كل أرض قد اجتمعوا فيها لعيد لهم فسألوهم عن محمد ووصفوه لهم . فقال : لهم حبر من أحبار اليهود : إن هذا نعت النبى الذى يبعثه الله فى هذه الأرض

فقال له رسل قريش : إنه فقير يتيم لم يتبعه من قومه من أهل الرأى ولا ذوى الشأن أحد ، فضحك الحبر ، قال كذلك نجده . قالت له رسل قريش : فإنه يقول قولا عظيماً ، يدعو إلى الرحمن الذى باليمامة الساحر الكاذب، يعنون مسيلمة ، فقالت لهم اليهود : لا تكثروا علينا اذهبوا فاسألوا صاحبكم عن خلال ثلاث فإن الذى باليمامة قد عجز عنهن فأما اثنتان فإنهما لا يعلمهما إلا نبى ، وأما الثالثة فلا يجترىء عليها أحد فإن أخبركم عن الاثنتين دونها فهو صادق . فقالت رسل قريش : أخبرونا بهن . فقالت اليهود : اسألوه عن أصحاب الكهف والرقيم فقصوا عليهم قصتهم واسألوه عن ذى القرنين وحدثوهم بأمره، واسألوه عن الروح فإن أخبركم بشىء فيه فكاذب ، فرجعت رسل قريش إليهم فأخبروهم بذلك ، فأرسلوا إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم- فلقيهم فقالوا يا ابن عبد المطلب نسألك عن خلال ثلاث فإن وافقت بالجواب فصادق وإلا فلا تذكر آلهتنا بسوء ، فقال

ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما هن . الوا : أخبرنا عن أصحاب الكهف فإنا قد أخبرنا عنهم بآية بينة ، وأخبرنا عن ذى القرنين فإنه قد أخبرنا عنه بآية بينة ، وأخبرنا عن الروح . فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم : أنظرونى حتى أنظر ماذا يحدث إلى فيه ربى . قالوا : فإنا ناظروك فيه ثلاثة أيام ، فمكث عنه جبريل لا يأتيه ، ثم أتاه فاستبشر ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقال : ياجبريل قد رأيت ما سألونى عليه ، ثم لم تأتنى . فقال له : وما تنزل إلا بأمر ربك إلى وما كان ربك نسياً ثم قال : ويسألونك عن الروح . قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ، ثم قال : أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا . . إلى آخر قصتهم . ثم قال : ويسألونك عن ذى القرنين... إلى آخر قصته . ثم لقى قريشاً فى آخر اليوم الثالث فقالوا : ماذا أحدث إليك ربك فى الذى سألناك عنه . فقص عليهم ، فعجبوا وغلب عليهم الشيطان أن يصدقوه . وعن ابن

عباس أن قريشاً اجتمعوا وقالوا : إن محمداً نشأ فينا بالأمانة والصدق وما اتهمناه بكذب قط وقد ادعى ما ادعى فابعثوا نفراً إلى اليهود بالمدينة اسألوهم عنه فإنهم أهل كتاب ، فبعثوا جماعة إليهم ، فقالت اليهود اسألوه عن ثلاثة فإن أجاب عن كلها أو لم يجب عن شىء منها فليس بنبى وإن أجاب عن اثنين ولم يجب عن واحدة فهو نبى،اسألوه عن فتية فقدوا فى الزمان الأول ما كان شأنهم، فإنه كان لهم حديث عجيب ، وعن رجل بلغ شرق الأرض وغربها ما خبره وعن الروح ، وسألوا النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : أخبركم بما سألتم غداً ، فلبث الوحى اثنى عشر يوماً فى ما قال مجاهد ، وقيل: خمسة عشر، وقيل:أربعين ، فقال أهل مكة : وعدنا محمد غداً ، وحزن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لذلك ثم نزل جبريل عليه السلام بقوله تعالى : ولا تقولن لشىء إنى فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله . ونزل أم حسبت أن أصحاب الكهف ... إلى آخره . ونزل : ويسألونك عن ذى القرنين..

الخ . . ويسألونك عن الروح ... إلى آخره . والآية مكية ، وقال ابن مسعود : الآية مكية والسائلون اليهود،أى ويسألك اليهود عن الروح ، قال ابن مسعود : بينما أنا أمشى مع النبى - صلى الله عليه وسلم - وهو يتوكأ على عسيب أى جريد النخل ، فمر بنفر من اليهود ، فقال بعضهم لبعض : اسألوه عن الروح . وقال بعض : لا تسألوا لئلا يسمعكم ما تكرهون ، فقاموا إليه . وفى رواية قام إليه رجل ، فقالوا أو قال : يا أبا القاسم ما الروح ؟ فسكت . وفى رواية حدثنا عن الروح ، فقام ساعة ينتظر وعرفت أنه يوحى إليه ، فتأخرت حتى صعد الوحى فقال لهم : ويسألونك عن الروح ، قل الروح من أمر ربى ، وما أوتيتم من العلم إلا قليلا . فقال بعض لبعض : قد قلنا لكم لا تسألوه ، وكان عندهم فى التوراة أن الروح مما انفرد الله سبحانه بعلمه ولا يطلع عليه ملك مقرب ولا نبى مرسل . قال عبدالله بن بريدة : إن الله لم يطلع على الروح ملكاً مقرباً ولا نبياً مرسلاً بدليل قوله تعالى : قل

الروح من أمر ربى أى من العلم الذى استأثر به الله تعالى : وهو الصحيح .
وقيل إن النبى قد علم به ولكن لم يخبرهم به لأن ترك الإخبار علامة لنبوته ،
وقيل إن ابن عباس وبعض السلف فسروه مرة واحدة ثم كفوا عن
تفسيره . وقال ابن دقيق العيد : رأيت كتاباً لبعض الحكماء فى
حقيقة النفس فيه ثلاثمائة قول ، قال القرافى : كثرة الخلاف
تؤذن بكثرة الجهالات ، واختلف علماء الإسلام فى جواز الخوض
فيه على قولين واختلف المجيزون هل هو عرض أو جوهر أو ليس جوهراً
ولا عرضاً وليس يوصف بأنه داخل الجسم ولا خارجه ، وبه قال
الغزالى : وقال قوم من المتأخرين إنها جسم نورانى شفاف سار فى الجسم
سريان الماء فى العود أو سريان النار فى الفحم ويدل على أنها فى الجسم
قوله عز وجل : فلولا إذا بلغت الحلقوم . قال الخطيب أبو محمد
البرجينى ، قال أبو الطاهر الركزكى : حضرت عند ولى من الأولياء
عند النزع فشاهدت نفسه قد خرجت من مواضع من جسده ثم تشكلت

على رأسه بشكله وصورته ثم صعدت إلى السماء وصعدت نفسي معها ، فلما انتهينا إلى السماء الدنيا شاهدت باباً ورجل ملك ممدودة عليه فأزال الملك رِجْلُهُ وقال لنفس ذالك الولى اصعدى فصعدت فأرادت نفسى أن تصعد معها ، فقال لها : ارجعى فقد بقى لك وقت ، فرجعت فشاهدت النفس دائرة على جسمى ، وقائل يقول مات ، وآخر يقول لم يمت ، فدخلت من أنفى ، أو قال : يقول من عينى وقمت ، ذكر ذلك الثعالبى سماعاً عن البرجيسى ، أما الثعالبى فمن الجزائر جزيرة مرغنة والبرجينى معروف عند أهل أفريقية ، وأبو الطاهر معظم عند أهل تونس يزار قبره بالزلاج ،وقيل الروح معنى اجتمع فيه النور والطيب والعلم والعلق والبقاء لوجود ذلك فى حياة الإنسان وفقده فى موته ، وأولى الأقاويل أن يوكل علمه إلى الله جل وعلا ،وهو قولنا معشر الأباضية وقول المالكية والشافعية والحنفية والحنبلية ، وقيل الروح المسئول عنه هو جبريل ، وهى رواية عن ابن عباس ، وقال على إنه ملك له سبعون

ألف وجه فى كل وجه سبعون لسانا يسبح الله تعالى بكلها ، وقال مجاهد : خلق على صورة بنى آدم لهم يد وأرجل ورءوس ليسوا بملائكة ولا ناس يأكلونا لطعام ،وقال سعيد بن جبير خلق لم يخلق الله سبحانه خلقاً أعظم منه غير العرش لو شاء أن يبتلع السماوات والأرضين ومن فيها بلقمة لفعل، ذلك على صورة الملائكة ووجهه كوجه الإنسان وهو على يمين العرش يوم القيامة يشفع لأهل التوحيد، ولولا أن بينه وبين الملائكة ستراً لاحترق أهل السماوات من نوره ، وقال الحسن : الروح هو القرآن لأنه سماه الله تعالى جل وعلا روحاً ، ولأن به حياة القلب ، والصحيح أنه الروح المركب فى الحيوان والخطاب فى قراءة الجمهور عام ، وقيل لليهود وكانوا يقولون : أوتينا التوراة وفيها العلم الكثير. فقيل لهم : إن علم التوراة قليل فى جنب علم الله تعالى . روى أنه لما قال لهم : وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ، قالوا : نحن مختصون بهذا الخطاب أم أنت معنا فيه . قال : نحن وأنتم ، رواه الطبرى . وقالوا ما أعجب

شأنك ساعة تقول : ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً ، وساعة تقول هذا ، فنزل قوله تعالى : ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام . . الآية ، وذلك جهل منهم لأن القلة والكثرة أمران إضافيان فالحكمة التى أوتيها العبد خير كثير فى نفسه ولو كانت تقل بالنسبة إلى علم الله .

﴿ وَلَئِن شِئْنَا ﴾ اللام الموطئة للقسم الممهدة له الجواب المؤذنة بتقديره قبل إن الشرطية التى بعدها فقوله :﴿ لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ جواب للقسم مغن عن جواب الشرط وقيل يقدر للشرط جواب والذى أوحينا إليك هو القرآن والذهاب به محوه من القلوب ومما كتب فيه فتبقون كما كنتم قبل إيحائه لا تدرون ما الكتاب ، وسيكون ذلك فى آخر الزمان . روى عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : أن أول ما تفقدون من دينكم الأمانة ، وآخر ما تفقدون الصلاة ، وليصلين قوم ولا دين لهم ، وأن هذا القرآن تصبحون يوماً وما فيكم منه شيء ،

فقال رجل : كيف ذلك وقد أثبتناه فى قلوبنا وأثبتناه فى مصاحفنا فعلمناه أبناءنا وعلمه أبناؤنا أبناءهم ، فقال : يسرى عليه فيصبح الناس منه فقراء برفع المصاحف ، وينزع ما فى القلوب . وفى رواية عنه يسرى من كلامه ليسرين على القرآن ليلة فلا تبقى منه آية فى قلب ولا فى مصحف إلا رفعت ، وقال أيضاً اقرأوا القرآن قبل أن يرفع فإنه لا تقوم الساعة حتى ترفع هذه المصاحف ، فقيل : فكيف بما فى القلوب . قال : يسرى عليه ليلا فيصبحون ما يحفظون شيئاً ولا يجدون فى المصاحف شيئاً ثم يفيضون فى الشعر . وعن عبد الله بن عمر وابن العاص لا تقوم الساعة حتى يرفع القرآن من حيث نزل ، له دوى حول العرش كدوى النحل ، فيقول الرب مالك . فيقول : يارب أتلى ولا يعمل بى . قال الداودى : ما نقل عن ابن مسعود لا يصح ، يعنى وكذا ما روى عن عبد الله بن عمر وابن العاص وغيرد فى ذلك المعنى لقوله — صلى الله عليه وسلم — لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق

حتى يأتى أمر الله وهم ظاهرون . قال البخارى : وهم أهل العلم ولا يكون العلم مع فقد القرآن . اهـ ، ولقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ولكن يقبضه بقبض العلماء ، وقد يجاب بأن المراد بقوله حتى يأتى أمر الله حتى يقرب أمر الله جدا ، وقد يجاب أيضاً بأنه تقوم الساعة على قوم ظاهرين على الحق وإنما يرفع القرآن من قلوب غيرهم ومصاحف غيرهم ، وأما قبض العلم فممكن مع بقاء قراءة القرآن وليست الآية فى إذهابه جزماً بل قال : ولئن شئنا ولم يشأ ﴿ ثُمَّ لَا تَجِدُ الك بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴾ أى قائماً متكفلا الك علينا به ،أى نرده محفوظاً مكتوباً بعد إذهابنا إياه من القلب والمصاحف .

﴿ إِلَّا رَحْمَةً مِّنْ رَّبِّكَ ﴾ استثناء من وكيل وهو متصل صور رحمته كأنها وكيل بالرد كأنه قيل إلا وكيلا هو رحمة من ربك إن شاء رده ويجوز أن يكون منقطعاً أى لكن رحمة من ربك تركته باقياً فى المصاحف والقلب فيكون امتناناً بإبقائه بعد المنة فى تنزيله وحفظه

وهما منتان يجب القيام بشكرهما على كل ذى عقل . ﴿ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴾ كإرسالك وإن زال القرآن عليك وإبقائه فى حفظك وفى المصاحف وإعطائك المقام المحمود وجعلك سيد ولد آدم وخاتم النبيين وغير ذلك .

﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ ﴾ ولم يذكر الملائكة لأن إتيانهم بمثل القرآن لا يخرجه عن كونه معجزة لقوتهم على الإتيان بالمعجز ولهذا مدحهم بقوله جل وعلا :يسبحون الليل والنهار لا يفترون،أو لم يذكرهم لأنهم وسائط فى إتيانه أو ذكر الإنس والجن فقط لأنهم الذين يكفرون به ويدعون أنه من كلام البشر . ﴿ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ ﴾ فى الفصاحة والبلاغة ﴿ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ﴾ جواب القسم لتقدمه على الشرط بدون أن يسبقه ذو خبر وأجاز الفراء إجابة الشرط مع تقدم القسم عليه ولو لم يتقدم ذو خبر ، ويقول الأكثر إجابة القسم عند تقدمه وعلى مذهبه يجوز أن نقول إن قوله لا يأتون جواب أن وكان

مرفوعاً لأن الشرط ماض .﴿ وَلَوْ كانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ معيناً على الإتيان بمثله مع ما فى الناس من العرب الخالصة وأرباب البيان والتحقيق،نزل ذلك لما قالت جماعة من قريش لو نشاء لقلنا مثل هذا فلو جئتنا بغيره آية ، والعرب لفصاحتها وبلاغتها اطلعت على ما فاق القرآن به سائر الكلام من البلاغة والفصاحة ، وغير العرب يطلع على ذلك استدلالا ونظراً وحصل علم قطعى بذلك الكل ليس متفاوتا ليس فى مرتبة واحدة ، وتجد كثيراً من الناس بل أكثرهم لا يطلعون على ذلك وإن لقن لهم ظنوا أن سائر الكلام كذلك ، والآية دليل على أن القرآن حادث مخلوق لأنه لو كان قديماً لم يصح أن يتحداهم ويستعجزهم بالإتيان بمثله ، لأن العجز إنما يكون حيث تكون القدرة أو بالإمكان لا حيث تستحيل والقديم يستحيل الإتيان بمثله فلا مدخل فيه للعجز ولا القدرة ولو قيل ذلك لجاز وصف الله بالعجز لأنه لا يوصف بالقدرة على المحال إلا أن يكابر القائلون بقدمه فيقولون

الله قادر على المحال أو يقلبوا الحقيقة فيقولوا إنه لو كان مخلوقاً لأتوا بمثله ورأس مالهم المكابرة وقلب الحقائق ، ويجوز أن يكون معنى الآية : قل لئن اجتمعت الإنس على أن يأتوا بمثله بعد ذهابه عنك لم يطيقوا فيكون تقريراً تقوله ثم لا تجد لك علينا به وكيلا .

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا ﴾ كررنا بوجوه مختلفة زيادة فى التقرير والبيان أو بينا . ﴿ لِلنَّاسِ ﴾ ليتعظوا . ﴿ فِى هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾ أى مثلا من جنس كل مثل والمراد بالمثل المعنى الذى هو كالمثل فى غرابته ووقوعه فى النفس موقعاً راسخاً ومن ذلك العبرة والأحكام والوعد والوعيد والقصص وغير ذلك . ﴿ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ ﴾ أهل مكة . ﴿ إِلَّا كُفُورًا ﴾ جحوداً للحق وإنما صح هنا الاستثناء المفرغ مع أنه لم يتقدم حرف النفى مثل لا وإلا فعل النفى كليس لأن الإباء منع والمنع نفى كما قال الشاعر :

تفسير إلا النشوء والوتد

﴿ وَقَالُوا ﴾ عطف على أبى أكثر الناس إلا كفوراً . ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ ﴾ أى لن نخضع لك بالتصديق أو جاءوا باللام لأن الإيمان شىء يحبه وينفعه ، أو اللام بمعنى الباء . ﴿ حَتَّى تَفْجُرَ ﴾ وقرأ الكوفيون ويعقوب بإسكان الفاء وتخفيف الجيم وإبقاء التاء مضمومة ، والجيم مكسورة رأى حتى يخرج ﴿ لَنَا مِنَ الأَرْضِ ﴾ أرض مكة . ﴿ يَنبُوعاً ﴾ عيناً ينبع منها الماء ولا يفور أو ماء نابعاً وهو يفعول من نبع الماء كيعبوب من عب إذا زخر لما أفحمهم بالقرآن الكريم وما انضم إليه من المعجزات كانشقاق القمر ونبع الماء من بين أصابعه ، أخذوا يتعللون باقتراح الآيات تعنتاً وعناداً لا طلباً للدليل ، فرد الله عليهم سواء لهم من التعجيز وكون التبيان والإسقاط والإتيان بالله والملائكة وكون بيت من زخرف له ، والرقى فى السماء مع إنزال كتاب منه مكتوب فيه أنك رسول كما تقول ، وليس ذلك بأعظم مما رأوا من الآيات بل ما رأوه أعظم ، ولو

جاءتهم كل آية لقالوا هذا سحر كما قال : ولو جاءتهم كل آية لا يؤمنوا بها ؛ وقال: ولو نزلنا عليهم كتاباً... الخ وافتحنا عليهم باباً من السماء .

﴿ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ ﴾ بستان . ﴿ مِّن نَخِيلٍ وَعِنَبٍ ﴾ أى يشتمل على النخيل والعنب ﴿ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا ﴾ أى وسط الجنة . ﴿ تفْجِيرًا . أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا ﴾ قطعاً أشار إلى ما ذكر لهم قبل ذلك من قوله تعالى : إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفاً من السماء . وسكن السين ابن كثير وأبو عمر وحمزة والكسائى ويعقوب فى جميع القرآن إلا فى الروم ففتحوه وابن عامر إلاها ففتحه كنافع وفتحه نافع وأبو بكر هنا وفى الروم وسكناه فى غيرهما ،وفتحه حفص فى الطور وسكنه فى غيرهما .والكسف بالإسكان إما مخفف من الكسف بالفتح وإنما حققوا المفتوح لثقله بكسر الأول وهو جمع كالمفتوح وإما مفرد بمعنى مكسوف أى مقطوع كالطحن

والنقض بمعنى المطحون والمنقوض . ﴿ أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴾ مقابلة وعياناً فنراهم أو يشهدون الك بصحة ماتقول، مفعول مطلق على حذف مضاف أى إتيان مقابلة أو قبيلا وصف بمعنى كفيلا بما تدعيه أى شاهداً على صحته ضامناً لما يخرج منه غير صحيح . وبه قال ابن عباس أو بمعنى مقابل كعشير بمعنى معاشر وعلى الوصفية هو حال من الله والملائكة لأن فعيلا بمعنى فاعل يصلح للواحد فصاعدًا أو أفرد ميلا إلى أنهم دليل واحد أوبرهان أو هو حال من لفظ الجلالة وحال الملائكة محذوف أى والملائكة قبيلين،ويجوز أن يكون القبيل بمعنى الجماعة فيكون حالا من الملائكة أى والملائكة أصناف وفرقًا لا نظير لها فينا والمفرد قبيلة .

﴿ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ ﴾ مما يتزين به كالذهب والجوهر والياقوت ، وقيل المراد هنا الذهب.وهو قول ابن‌عباس والمفسرين وأصله الزينة مطلقاً وقد قرأ بعض أويكون‌لك بيت من‌ذهب﴿أَوْ تَرْقَى﴾

تصعد ﴿ فِى السَّمَاءِ ﴾ أى إلى السماء وضمن ترقى معنى تدخل أو التقدير فيدخل فى معاريج السماء ﴿ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ ﴾ أى لأجل رقيك أو برقيك وحده فإن السحرة قد يفعلون ذلك ويأخذون بأعين الناس ﴿ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ ﴾ أمرنا فيه باتباعك وتصديقك قال عبد الله بن عباس . قال ابن أبى أمية : لن نؤمن لك حتى تتخذ إلى السماء سلماً ثم ترقى فيه وأنا أنظر حتى تأتيها ثم تأتى معك بصك منشور معه أربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول . وفى رواية حتى تنزل علينا كتاباً نقرأه من الله إلى عبد الله بن أبى أمية بن المغيرة أنى أرسلت محمداً وتجىء معك بأربعة من الملائكة أن الله هو الذى كتبه ثم والله ما أدرى بعد ذلك هل أومن لك أم لا ،وذكر الكلبى أنه اجتمع رهط من قريش بفناء الكعبة فسألوا نبى الله أن يبعث عليهم موتاهم أو يسخر لهم الريح أو يسير لهم جبال مكة فلم يفعل ، فقال عبد الله ابن أبى أمية : فوالذى يحلف به عبد الله لا أومن لك حتى تفجر لنا

من الأرض ينبوعاً ـ الآية . وروى عكرمة عن ابن عباس أن عتبة
وشغبة ابنى ربيعة وأبا سفيان بن حرب والنضر بن الحارث وأبا
البختري بن هشام والأسود بن عبد المطلب وزمعة من الأسود والوليد
ابن المغيرة وأبا جهل بن هشام وعبد الله بن أبي أمية بن خلف والعاص
ابن وائل ونبيهاً ومنبهاً ابنى الحجاج اجتمعوا بعد غروب الشمس
عند ظهر الكعبة . فقال بعضهم لبعض : ابعثوا إلى محمد فكلموه
وخاصموه حتى تعذروا فيه فبعثوا إليه أن أشراف قومك قد اجتمعوا لك
ليكلموك . فجاءهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ سريعاً يظن أن
قد بدا لهم فى أمره شيء وكان حريصاً يحب رشدهم حتى جلس إليهم
فقالوا يامحمد : إنا بعثنا إليك لنعذر فيك وإنا والله لا نعلم رجلا من
العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك، لقد شتمت الآباء وعبت
الدين وسفهت الأحلام وسببت الآلهة وفرقت الجماعة ، وما من قبيح
إلا وقد جئته فيما بيننا وبينك فإن جئت بهذا الحديث تطلب به مالا

جعلنا لك مالا حتى تكون أكثرنا مالا . وإن كنت تريد الشرف سودناك علينا ، وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا . وإن كان هذا الذى بك رئياً تراه قد غلب عليك لا تستطيع رده بذلنا أموالنا فى طلب الطب حتى نبرئك منه والرئى التابع من الجن . فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ما بى ما تقولون ، ما جئتكم بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف عليكم ، ولا الملك عليكم ، ولكن الله بعثنى إليكم رسولا ، وأنزل على كتابا وأمرنى أن أكون لكم بشيراً ونذيراً فبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ، فإن تقبلوا منى فهو حظكم من الدنيا والآخرة، وإن تردوا على أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم . فقالوا : يامحمد فإن كنت غير قابل منا ما عرضنا عليك فقد علمت أنه ليس أحد أضيق بلادا وأشد عيشاً منا فاسأل ربك الذى بعثك فليسير عنا هذه الجبال التى قد ضيقت علينا ويبسط لنا بلادنا ويفجر لنا الأنهار كأنهار الشام والعراق وليبعث لنا من آبائنا وليكن منهم قصى

ابن كلاب فإنه كان شيخاً صدوقاً فنسألهم عما تقول أحق هو أم باطل فإن صدقوك صدقناك ، فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما بهذا بعثت ،فقد بلغتكم ما أرسلت به فإن تقبلوه فهو حظكم ، وإن تردوه أصبر لأمر الله تعالى . قالوا : فإن لم تفعل هذا فاسأل لنا ربك أن يبعث ملكاً يصدقك واسأله أن يجعل لك جناناً وقصوراً وكنوزاً من ذهب وفضة يعينك بها على ما تريد ،فإنك تقوم بالأسواق تلتمس المعاش كما نلتمسه فقال : ما بعثت لهذا ، ولكن الله بعثني بشيراً ونذيراً . فقالوا : فأسقط السماء كما زعمت علينا أن ربك إن شاء فعل . فقال : ذلك إلى الله إن شاء فعل ذلك بكم . وقال قائل منهم لن نؤمن لك حتى تأتينا بالله والملائكة فقام رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومعه عبد الله ابن أمية وهو ابن عمته عاتكة ابنة عبد المطلب فقال : يامحمد عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله منهم ، ثم سألوك لأنفسهم أموراً يعرفون بها منزلتك عند الله فلم تفعل،ثم سألوك أن تعجل ما تخوفهم به

من العذاب فلم تفعل ، فوالله ما أومن بك أبداً حتى تتخذ إلى السماء
سلماً ترقى فيه وأنا أنظر حتى تأتيها فتأتى بسمة مشهورة معك ونفر
من الملائكة يشهدون لك بما تقول وأيم الله لو فعلت ذلك لظننت أنى
لا أصدقك فانصرف رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حزيناً إلى أهله
لمباعدتهم ، فأنزل الله عز وجل : وقالوا لن نؤمن لك- الآية. وقال
مجاهد حتى تنزل علينا كتاباً نقرأه من رب العالمين كل رجل منا
تصبح عند رأسه صحيفة موضوعة يقرأها ، وقيل حتى تنزل علينا
كتاباً إلى كل إنسان منا بعينه من الله إلى فلان ابن فلان أن آمنوا
بمحمد فإنه رسولى ، وأظنه تفسير الحسن﴿ قُلْ ﴾ لهم يامحمد متعجباً
من كلامهم أو منزها لربك عن أن يعاينه أحد أو عن أن يوصف
بالإتيان أو يتحكم عليه أحداً بما يريد أو يشاركه فى القدرة ﴿ سُبْحَانَ
رَبِّى ﴾ عن ذلك﴿ هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ كسائر الرسل لا يأتون
إلا بِمَا أراد الله ملائماً لحال قيامهم وليس أمر الآيات إليهم ولا فى

طاقتهم وأنتم أهون على الله أن يجيبكم إلى ذلك الذى سألتم والله منزه عنه وعن أن أسأله ما طلبتم ، وقرأ ابن كثير وابن عامر : قال سبحان ربى . . الخ . أى قال الرسول .

﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى ﴾ أى الوحى القرآن وغيره والنبوة لمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمراد بالناس كفار قريش أو غيرهم ممن فى زمانه ـ صلى الله عليه وسلم ـ كذلك قالوا وهو واضح ولكن لا مانع من أن يراد قوم كل رسول وهدى كل رسول فيكون قوله قل لو كان فى الأرض . . الخ . أمراً للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بإجابته فى حق كل نبى ﴿ إِلَّا أَن قَالُوا ﴾ أن مصدرية فى الموضعين ومصدر يؤمنوا مفعول ثان لمنع وعلى تقدير الجار أى من أن يؤمنوا أو عن أن يؤمنوا مصدر قالوا فاعل منع أى إلا قولهم عنادا ﴿ أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ منكرين أن يرسل الله بشراً فرسالة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ متضمنة بينة ولم يبق لهم إلا شبهة تتلجلج فى صدورهم هى كون

الرسول لا يصح بشراً والاستفهام للإنكار وبشراً حال موطئة ورسولا نعته ويجوز كون بشراً حالا من رسولا ورسولا مفعول والأول أوفق لأن محط الكلام فى الرسالة هل هى لبشر أو ملك والوجهان فى قوله تعالى أو ملكاً رسولا أيضاً .

﴿ قُل ﴾ لهم جواباً لشبهتهم . ﴿ لَّوْ كَانَ فِى الأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ ﴾ كبنى آدم ﴿ مُطْمَئِنِّينَ ﴾ ساكنين فيها لا يطيقون الطيران إلى السماء لاستماع الوحى وعلم ما يجب علمه ﴿ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴾ لأنهم المتمكنون من الاجتماع بالملك والتلقى منه . وأما الإنس فلا طاقة لهم على الاجتماع بالملك والتلقى منه لعدم تناسبهم للملك إلا خواص من الإنس اصطفاهم الله للنبوة وقواهم على الاجتماع بالملك والنقل منه وإنما قال ملائكة بالتنكير ، إما لأن الأرض لو عمرت بالملائكة كلها فما هم إلا قليل بالنسبة إلى باقى الملائكة . وإما إشارة إلى أنه لابد من الوحى والتكليف حتى أنه لو كان فى الأرض بعض

من الملائكة قليلا معمورون بغيرهم لم تهمهم عن التكليف بل لابد أن ننزل عليهم الوحى لكن على لسان ملك ليناسبهم، كذا ظهر لى ولم أر من تعرض له ،وملكا حال من رسول ورسولا مفعول به أو ملكاً مفعول به ورسولا نعته ، والأول أولى وكذا فى بشراً رسولا والله أعلم .﴿ قُلْ ﴾ لهم جواباً لقولهم من يشهد لك على ما تقول . ﴿كَفَى بِاللهِ ﴾ الباء صلة مؤكدة والله فاعل﴿ شَهِيدًا ﴾ حال وتمييز محول عن الفاعل أى كفت شهادة الله ، والأول أولى لأن الاشتقاق فى التمييز مرجوح مختلف فيه﴿ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ﴾ على أنى رسول إليكم مع الناس كلهم وأنى بلغت وأنكم كذبتمونى وعاندتم . وقال القاضى :على أنى رسول بإظهار للعجز على وفق دعواى﴿ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا ﴾ عليماً بأحوالهم الباطنة ﴿ بَصِيرًا ﴾ عليماً بأحوالهم الظاهرة فيجازينى بالخير الدائم على التبليغ والإيمان والإسلام ويجازيكم بالشر الدائم على التكذيب والعناد وذلك تسلية لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتهديد للكفار .

﴿ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ ﴾ يوفقه . ﴿ فَهُوَ الْمُهْتَدِى وَمَن يُضْلِلْ ﴾ يخذل .

﴿ فَلَن تَجِدَ ﴾ لن تعلم أو لن تلقى . ﴿ لَهُمْ ﴾ اعتبر معنى من هنا مجمع ليوافق المخاطبين ويكون أوضح فى شموله إياهم ﴿ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِهِ ﴾ يهدونهم أو ينصرونهم إذا جاءهم عقابى ، وقيل المعنى إن الله عليم بأحوال العباد كلها ،أحوال من قضى عليه بالإيمان فلا ينقلب إلى الكفر وأحوال من قضى عليه بالكفر فلا ينقلب إلى الإيمان وفى ذالك أيضاً تسلية وفيه أيضاً التهديد من حيث أن كفر الكفار ليس جبراً بل اختياراً منه أثبت نافع وأبو عمرو ياء المهتدى وصلا ووقفاً . ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ ﴾ من قبورهم ومن حيث كانوا إلى الموقف ﴿ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا ﴾ جمع أعمى . ﴿ وَبُكْمًا ﴾ جمع أبكم . ﴿ وَصُمًّا ﴾ جمع أصم لا يبصرون ولا ينطقون بعد نطقهم بقولهم ياويلنا من بعثنا من مرقدنا ولا يسمعون حتى يصلوا المحشر ،ويبصرون إذا أراد الله أن يبصروا كوقت قراءتهم كتبهم ،وينطقون إذا أراد الله نطقهم كما إذا قيل لهم أو لم تبلغكم

الرسل ويسمعوا إذا أراد الله سماعهم كما إذا قال الله لهم شيئاً مثل ذلك وكذلك يبصرون إذا أراد الله أن يبصروا النار كما قال : ورأى المجرمون النار ويسمعون إذا أراد الله أن يسمعوا، كما قال الله سبحانه : سمعوا لها تغيظاً وزفيراً . أو ما أشبه ذلك وإنما يحشرون كذلك لأنهم كانوا فى الدنيا لا يستبصرون ولا ينطقون بالحق ويعمون عن استماعه كما قال ، ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى : وقيل يحشرون إلى النار عمياً بكماً صماً، وإذا كانوا فيها سمعوا ونطقوا ونظروا إذا أراد الله وعموا وبكموا وصموا إذا أراد الله : وقيل عمياً لا يرون مايسوؤهم ، وبكماً لا ينطقون بحجة ، وصماً لا يسمعون ما يسوؤهم ، وقيل عمياً وبكماً وصماً بعد ما قال الله جل وعلا : اخسأوا فيها ولا تكلمون وعلى هذا فعمياً وبكماً وصماً أحوال مقدرة وكذا على القول قبله إذا فرضناه فى النار ومقارنة على غير ذلك :ويحتمل أن يراد بحشرهم إلقاؤهم فى النار وما تقدم من أنه الحشر من القبر

إلى الموقف أو من الموقف إلى النار أولى لما روى أنه قيل له ـ صلى الله عليه وسلم ـ كيف يمشون على وجوههم ؟ فقال الذى أمشاهم على أقدامهم قادر أن يمشيهم على وجوههم ، رواه الترمذى عن أبى هريرة وحسنه وفى رواية عنه أيمشى الكافر على وجهه فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ أليس الذى أمشاه على الرجلين فى الدنيا قادراً على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة ، قال قتادة حين بلغه ذلك بلى وعزة ربنا ، والرواية الآخرة هى التى بلفظ الترمذى . وروى الترمذى عن أبى هريرة عنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ يحشر الناس يوم القيامة ثلاثة أصناف : صنفاً مشاة ، وصنفاً ركباناً ، وصنفاً على وجوههم ، وروى أن كل واحد من أهل النار يجعل فى تابوت من نار، مساميره من نار، ويجعل ذلك التابوت فى تابوت مثله ويجعل هذا فى ثالث مثله أيضاً فهو يعذب فى تابوته بأنواع العذاب لا يسمع عذاب أحد ولا يعلم أن أحداً يعذب عذابه ، وتلا : وهم فيها لا يسمعون. ﴿ مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ أي مرجعهم

جهنم ﴿ كُلَّمَا خَبَتْ ﴾ سكن لهيبها بأن أكلت جلودهم ولحومهم وشعورهم وعظامهم حتى لتهجم على قلوبهم فتردعنها . ﴿ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴾ وقودًا بفتح الواو وهو ما تشتعل فيه النار وهو عظام ولحوم وجلود وشعور يجددها الله لهم ،فتشتعل فيها أيضاً لما كذبوا بالبعث جعل جزاءهم تسليط النار على إفناء أجزائهم ثم يعيدهم ولا يزالون كذلك ليزدادوا تحسراً على تكذيبهم بالبعث وكان ذلك أشد إيلاماً وليس العذاب مفترا عنهم بين الخبو والتجديد،ولذلك قال بعض : كل ما قاربت أن تخبو زدناهم سعيراً ، وقيل المعنى كلما خبت طفئت بانقضاء أجزائهم جددناهم وزدناها ما تشتد به اشتعالا كالكبريت ، وقيل السعير التلهب وشدة الاشتعال ، وإن قلت : فكيف حال من آمن بالبعث ودخل النار ،قلت : قال قومنا لا يبقى شيء من جسده فى النار ولقول أصحابنا: إن عدم العمل الصالح وعدم الانتهاء عن المعاصى وعدم التوبة بمنزلة إنكار البعث لأن حكمة البعث الجزاء فيقع به

ما يقع بالمشرك فى النار وكل ظرف زمان متعلق بزدناهم وما مصدرية

المصدر مما بعدها نائب عن اسم الزمان قبل إضافة كل ولما أضيفت

إليه اكتسبت منه الظرفية،وهى فى المعنى كاسم الشرط ولذلك ينصرف

الماضى المتعلقة هى به والماضى المضافة هى إلى مصدره إلى الاستقبال

كذا يظهر لى وأشار إلى ما مر من جعل جزاءهم من جنس ما كذبوا به

من الإعادة بعد الفناء بقوله :

﴿ ذَٰلِكَ ﴾ المذكور من زيادة السعير كلما خبت أو من زيادته

والحشر على الوجوه مع عمى وبكم وصمم.﴿جَزَاؤُهُم بِأَنَّهُمْ﴾ أى جزاؤهم

على التكذيب لأنهم أو جزاؤهم على أنهم﴿ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا

عِظَامًا ﴾ مجردة عن اللحم والجلد .﴿ وَرُفَاتًا ﴾ أجزاء متفتتة . ﴿ أَئِنَّا

لَمَبْعُوثُونَ ﴾ هذه الجملة هى مدخول الهمزة الاستفهامية الإنكارية

فى المعنى الداخلة على إذا فى اللفظ ﴿خَلْقًا جَدِيدًا ﴾ خلقا مصدريا وعلى

المصدرية مفعول مطلق أى بعثاً جديداً وبمعنى مفعول فهو حال بمعنى

مخلوقين وعليه فأفرد هو ونعته وهو جديداً مراعاة لأصل المصدرية

وأجابهم الله سبحانه ورد عليهم بقوله :

﴿ أَوَ لَمْ يرَوْا ﴾ أى أو لم يعلموا . ﴿ أنَّ اللهَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أن يَخْلُقَ مِثْلهُمْ ﴾ أى أن يبعث مثلهم فى الصغر فإنهم ليسوا مساوين للسماوات والأرض فى الشدة ولا فى العظم بل هن أشد وأعظم وليست الإعادة أصعب من الإبداء بل الذى فى العقول من عادة البشر أن إعادة الشىء أهون من بدائه وهما سواء عند الله . ﴿ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْب فِيهِ ﴾هو الموت أو القيامة من القبور يعذبون عند ذلك الأجل فإن شئت فقل التقدير وجعل لعذابهم أجلا والواو للاستئناف أو للحال أو للعطف على معنى أولم يروا لأن المعنى قد علموا بدليل العقل وما ينضم إليه أن الله الذى خلق السماوات والأرض الخ . . ﴿ فَأَبَى الظَّالِمُونَ ﴾ مع وضوح الحق ﴿ إِلَّا كُفُوراً ﴾ إلا جحوداً .

﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ ﴾ أنتم فاعل لفعل محذوف تقديره قل

لو تملكون بتأكيد الجملة الأولى بالثانية حذف فعل الأولى وانفصل
الفاعل لما حذف فعله وفسره فعل الثانية وبقى أنتم بصيغة المبتدأ
وليس بمبتدأ ولا سيما أن فعله حذف وجوباً لنيابة الثانى عنه فأفاد
الكلام بظاهره الاختصاص كما يفيده قولك أنت تقوم إذا قلته فى
مقام إرادة الحصر فى الكلام مع إيجازه تأكيد واختصاص وهكذا
إذا أدخلت أداة الشرط على الاسم المرفوع وقيد الاسم المرفوع مبتدأ .
﴿ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّى ﴾أى خزائن رزقه وسائر نعمه وسكن الياء غير
نافع وأبى عمر﴿ إِذاً لَأَمْسَكْتُمْ ﴾ عن الإنفاق لبخلكم ﴿ خَشْيَةَ الْإِنفَاقِ ﴾
أى خشية نفادها بالإنفاق مع أنها لا تنفد والك تقدير المضاف أى خشية
عاقبة الإنفاق وهو الفقر وقيد الإنفاق اسم بالافتقار هنا ولا وصف
بالشح أبلغ من هذا وهو غاية لا يبلغها الوهم إذ كانوا يشحون مما لا
ينفد لو ملكوه ، وإن قلت ؛ هل لهذا الكلام اتصال لما قبله . قلت :
يحتمل أن يكون كلاماً منقطعاً ، ويحتمل الاتصال ووجهه أنكم لو

ملكتم خزائن رحمة الله التى لا تنفد لبخلتم فكيف تسألون الينبوع والأنهار وغيرها ، وقيل الخطاب للمشركين عموماً ويسلك بنوع الإنسان مطلقاً مسلكهم كما يدل عليه قوله ، وكان الإنسان قتوراً، فإن الإنسان مطلقاً فيه أصل البخل إذ خلق محتاجاً فهو يختار لنفسه ولا يعطى وإذا أعطى فإنما يعطى لعوض دنيوى يساويه أو يقوله ، ولو ثناء أو لعوض أخروى يفوقه فهو بخيل إذ كان لا يعطى إلا لعوض بخلاف الله ،إنه يعطى بلا عوض ولاحاجة إلى من يأخذ ، وإن فرضنا من يعطى تعظيماً لله لا لخطور الثواب الأخروى فى قلبه فذلك قليل وكذا إن فرضنا من يعطى مهملا بلا قصد ثواب دنيوى ولا أخروى ووجه آخر اتصال هو أن فى طبعكم أيها المشركون أن الأشياء تتناهى حتى أنكم لو ملكتم خزائن الله لخشيتم نفادها فكذلكم تظنون أن قدرة الله تعالى تقف عن البعث،وليس كذلك بل قدرته لا تتناهى وكذا نعمه ونقمه وإن قلت : هل لأمسكتم مفعول. قلت : نعم تقدير لأمسكتم

أنفسكم أو أيديكم أو أموالكم عن الإنفاق كما تعلمه بما دخلت به بين قوله لأمسكتم وقوله خشية ،ويحتمل أن يضمن معنى بخلتم فلا يقدر له مفعول به . ﴿ وَكَانَ الْإِنسَانُ قَتُورًا ﴾ضيق النفس من حيث المال شحيحها لما مر من أنه خلق محتاجًا فكانت نفسه تدعوه إلى الإمساك ليدفع ضرر الحاجة عن نفسه .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم واليد والعصا والطمس والسنين ونقص الثمرات وقيل انفجار الماء من الحجر وانفلاق البحر ونتق الطور على بنى إسرائيل ، وقال ابن عباس السبع الأول وحل العقدة التى بلسانه ، وفلق البحر ، وقيل هكذا إلا فلق البحر واليد فعوضهما السنون ونقص الثمرات ، وقيل أيضاً بالطمس والبحر وبذل السنين والنقص ، واعلم أن المراد بالطمس هنا المسخ للأموال والأبدان صير الله عز وجل دراهمهم ودنانيرهم وبيضهم وخبزهم وثومهم وحمصهم وعدسهم

حجارة على صورة ما ذكر ومسخ قوماً حجارة على صورة الرجال والنساء . سأل عمر بن عبد العزيز ، محمد بن كعب عن الآيات فذكر منها : الطمس وحل العقدة ، فقال عمر : هكذا يجب أن يكون الفقيه ياغلام أخرج ذلك الجراب فأخرج فإذا فيه بيض مكسور نصفين ، وخبز مكسور وثوم وحمص وعدس كلها ، كان الرجل منهم مع أهله فى الفراش وقد صارا حجرين ، والمرأة قائمة تخبز وقد صارت حجراً ، وذكر ابن عرفة وغيره ممن قبله كالزمخشرى عن صفوان ابن غسان أن بعض يهود المدينة قال لصاحبه تعال نسأل هذا النبى . فقال له الآخر : لا تقل نبى فإنه لو سمع صارت له أربع أعين ، فسألاه عن هذه الآية : ولقد آتينا موسى تسع . . الخ . فقال : لا تشركوا بالله شيئاً ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا تزنوا ولا تأكلوا الربا ولا تسحروا ولا تمشوا ببرىء إلى سلطان يقتله ولا تقذفوا محصنة ولا تفروا يوم الزحف ولا تسرقوا وعليكم خاصة اليهود أن لاتعدوا

فى السبت فقبلا يده ورجليه وقالا نشهد أنك نبي . قال : فما منعكم أن تتبعونى . قالا : إنا نخاف إن اتبعناك تقتلنا اليهود . وروى ذلك أيضاً الترمذى، وقال حسن صحيح، لكن اختلفت الروايات بعض يزيد وبعض ينقص،وعلى هذا فالمراد بالآيات التسع الأحكام العامة للملل الثابتة فى كل الشرائع سميت بذلك لأنها تدل على حال من يتعاطى متعلقها فى الآخرة من السعادة والشقاوة وقوله وعليكم خاصة اليهود أن لا تعدوا حكم مستأنف زاد على الجواب عن التسع وكذلك غير فيه السياق،إذ لم يقل ولا تعدوا فى السبت ﴿ فَاسْأَلْ ﴾ يامحمد ﴿ بَنِى إِسْرَائِيلَ ﴾ عن الآيات التسع سؤال من علم الشىء فاسأل عنه سؤال استعجاز أو تقرير أوتوبيخ بحيث يعلمون ويتيقنون أنك عالم بها ويقولون لك أخبرنا أنت فيها فتخبرهم ليصدقوك ، أوسل بنى إسرائيل المؤمنين كعبد الله بن سلام ، وكعب الأحبار ، عن الآيات ليزدادوا يقيناً أو سل يامحمد بنى إسرائيل عنهن تتسلى بنفسك،أو لتعلم أنه تعالى

لو أتاك بما اقترحوا لأصروا على العناد كما أصر من قبلهم ممن شاهد
الآيات السبع أولتزداد يقيناً على يقينك كما قال إبراهيم ليطمئن
قلبي ،ويجوز أن يكون قوله سبحانه فاسأل خطاباً لموسى على حذف
تقديره :ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات ،فقلنا له اسأل بنى إسرائيل
هل يقدر غير نبي عليهن ،وهل يقدرون عليهن لو سألهم بأن يأتوا
بمثلهن إذا أنكروا رسالتك أو اسألهم ياموسى عن حال دينهم لاعن إيمانهم
والسؤال فى ذلك كسؤال استفهام ويجوز على هذا الوجه الذى هو كون
الخطاب لموسى أن يكون السؤال بمعنى طلب الإعطاء،أى سل ياموسى
بنى إسرائيل أن يعاضدوك على الدين وتكون قلوبهم وأبدانهم معك
أو اسأل فرعون بنى إسرائيل أى اطلبه أن يعطيكهم لتذهب بهم إلى
الشام كما قال ، فأرسل معنا بنى إسرائيل من فرعون بكسر الميم
والوجهان بمعنى ، ويجوز عند بعض على كون الخطاب لمحمد ـ صلى الله
عليه وسلم ـ أن يكون المراد سؤال بنى إسرائيل لفظاً ، وسؤال غيرهم

معنى ؛ وقرأ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فسأل بصيغة الماضى لكن بإسقاط الهمزة الأولى والثانية قيل هو لغة قريش والضمير فيه لموسى ، وهى قراءة تقوى كون الخطاب لموسى فى القرآن بصيغة الأمر على تقدير فقلنا له ،أى لموسى اسأل بنى إسرائيل . ﴿ إِذْ ﴾ متعلق بآتينا أو بمحذوف متعلق بيخبروك محذوفاً مجزوماً فى جواب الأمر الذى هو سأل أى فاسأل بنى إسرائيل يخبروك بحديث إذ جاءهم أو مفعول لأذكر محذوفاً مستأنفاً،هذا كله على أن الخطاب لسيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وإن قلنا إنه لموسى عليه السلام فإن إذ متعلقة بقلنا المقدر أو تتعلق بسل على قراءة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿ جَاءَهُمْ ﴾ موسى ليبلغهم . ﴿ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَامُوسَى مَسْحُورًا ﴾ أى سحرك أحد فخلط عقلك فكنت تثبت الربوبية لغيرى وتثبت الرسالة لنفسك،هذا ما يقتضيه كلام ابن عباس ، وقيل مسحوراً بمعنى ساحر،كما قيل فى حجاباً مستوراً بمعنى ساتر عكس

ما قيل فى ماء دافق بمعنى مدفوق ، فهذه العجائب التى تأتى بها من سحرك ، وبه قال ابن جرير الطبرى : والهاء فى جاءهم عائدة إلى بنى إسرائيل الذين فى زمان موسى وهم المذكورون فى الآية ، وإن قلنا الخطاب فى سل لمحمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ فكذلك على أنهم المراد فى الآية أو عائدة إلى الذين فى زمان سيدنا محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ على أنهم المراد فحينئذ يقدر مضاف أى إذ جاء آباؤهم .

﴿ قَالَ ﴾ موسى ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ ﴾ يافرعون، قال ابن عباس : إن فرعون قد علم ما قال موسى حقاً ولكنه عائد وهذا هو الواضح الصحيح ، وقرأ على وغيره والكسائى بضم التاء على إخبار موسى عن نفسه بأنى عالم بصحة الأمر ولست مسحوراً قال على : ما علم عدو الله قط وإنما علم موسى . ﴿ مَا أَنزَلَ ﴾ ماأوجد ﴿ هَؤُلَاءِ ﴾ الآيات التسع وفى هذا وقوع هؤلاء لغير العقلاء . ﴿ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ وجملة حرف النفى وما بعده سدت مسد مفعولى علم لأنها علقت بحرف النفى .

﴿ بَصَائِرَ ﴾جمع بصيرة أى بينات تبصر بها صدق كما يبصر الإنسان ببصيرة قلبه وباصرة وجهه ولكنك تعاند كقوله تعالى : وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً . وعن بعض أن بصائر بمعنى عبر أو عن بعض أنه بمعنى مطابق ما صدق الثلاثة واحد ولو اختلف المفهوم ونصب على الحال . ﴿ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴾ مهلكاً بضم الميم من مهلك وفتح اللام ، كذا قول ثم رأيته لمجاهد فى رواية عنه أو مصروفاً عن الخير مطبوعاً على قلبك ، وبه قال الفراء من قولك ما ثبرك عن هذا ، أى ما صرفك عنه ، وتفسير ابن عباس مثبوراً بملعوناً تفسير بالمعنى والماصدق، ورواه الكلبى وقيل مثبورا بمعنى ثابر أى هالك كما قيل فى مستوراً ومسحورا . وقرأ أبى بن كعب وإن أخالك يافرعون لمثبوراً بأن المخففة ولام الفرق وأخالك بمعنى ظن ، وإنما قال موسى أظنك مع أنه جاز مقابلة لقول فرعون أظنك وقلبا عليه والظن يستعمل بمعنى اليقين كما هنا ، وأما قول فرعون أظنك فيحتمل

أن يريد به اليقين على زعمه تعمد الكذب وأن يريد به الرجحان تعمداً للكذب أيضاً فإن ادعاء الظن كذب خالص لأنه جحد ما عرف صحته بخلاف ظن موسى فإنه يقين معضود بالآيات .

﴿ فَأَرَادَ ﴾فرعون . ﴿ أَن يَسْتَفِزَّهُم ﴾يعجل إخراج موسى وقومه الذين آمنوا به من بنى إسرائيل أو غيرهم أو قومه مطلقاً وينفيهم . ﴿ مِّنَ الْأَرْضِ ﴾ أرض مصر نفى تقوية مخصوصة بمن آمن أو قومه مطلقاً لا إرسالا لهم معه إلى الشام لأن هذا مرغوب فيه له أو المعنى أراد إخراجهم منها بالقتل وعلى هذا يجوز تفسير الأرض بمطلق الأرض أو بأرض مصر،وهكذا يجوز تفسير الأرض حيث ذكرت بما يناسب القصة . ﴿ فَأَغْرَقْنَاهُ ﴾ أى بعد فرعون أى بعد إغراقه . ﴿ وَمَن مَّعَهُ جَمِيعًا ﴾ عكساً للأمر عليه أراد استفزاز موسى ومن معه فاستفزه الله عز وجل بالقتل والإغراق واستأصلهم ونجينا موسى ومن معه .

﴿ وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِى إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ ﴾ أرض مصر التى

أراد أن يستفزكم منها فسكنوها حتى خرج بهم موسى إلى الشام .

وقيل لم يسكنوها بل خرج بهم موسى إلى الشام حين أغرق فرعون

فالمراد بالأرض المأمورين هم يسكنونها حقيقة الأرض الصادقة بأرض الشام

ثم ظهر لى وجه آخر هو أن مصر معدودة من الشام ، فالمراد هنا وهناك

أرض واحدة هى أرض الشام التى أرض مصر بعضها . ﴿ فَإِذَا جَاءَ

وَعْدُ الْآخِرَةِ ﴾ أى الساعة الآخرة أو الكرة الآخرة أو الحياة الآخرة أو الدار

الآخرة والمراد على كل حال وقت البعث .﴿ جِئْنَا بِكُمْ ﴾ إلى الموقف

بفرعون وقومه وبكم ياموسى وبنى إسرائيل وغلب الخطاب على الغيبة

فأدخلهم كلهم فى الخطاب . ﴿ لَفِيفًا ﴾جمعاً مختلطين من قبائل

ملفوفاً بعضه إلى بعض ويميز أشقياءكم وسعداءكم ، وقيل المراد

بوعد الآخرة نزول عيسى – على نبينا وعليه الصلاة والسلام – ونصب

لفيفاً وجميعاً على الحال .

﴿ وَبِالْحَقِّ ﴾ لابغيره . ﴿ أَنزَلْنَاهُ ﴾أى أنزلنا القرآن ولم يجر له

ذكر ، ولكن دل عليه الإنزال ، وقوله : وقرآناً فرقناه على أن قرآناً

حال من الهاء بعده والتقديم للحصر أى وما نزلناه إلا ملتبسا بالحكمة

المقتضية لإنزاله . ﴿ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ ﴾التقديم أيضاً للحصر أى وما نزل

إلا بالحق الذى اشتمل عليه من الهداية إلى كل خير محفوظاً من

تخليط الشياطين لا يأتيه الباطل من أول الأمر ولا من آخره ، هذا

ما ظهر لى ثم رأيت قولا لبعض مشتملا على ما عدا قولى محفوظاً

وقولا نصه : وما أنزلناه من السماء إلا محفوظاً ، بالرصد من الملائكة

وما نزل على الرسول إلا محفوظا بهم من تخليط الشياطين ويظهر لى

وجه آخر فليبادر معناه أنزلناه بالحق لا بغيره ونزل بذلك الحق

الذى أنزلناه﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا ﴾ للمؤمن المطيع بالجنة . ﴿ وَنَذِيرًا ﴾

لغيره بالنار وليس عليك شىء ، وراء التبشير والإنذار من إكراه على

الدين أو توفيق أو خذلان أو التمكن من إنزال الآيات متى شئت

أو شاءوا وقوله وما أرسلناك . . إلى قوله : تنزيلا . لزوال الغم والهم

وضيق الصدر وأحلام السوء والوسوسة وحديث النفس والوهم الفاسد ومن أراد زوال ذلك عاجلا صام عشرة أيام أو ما شاء ، وليفطر على حلال ثم يصلى العشاء الآخرة ثم يقرأ الآية على كوز ماء عشر مرات ويشرب منه وينام فإذا استيقظ شرب منه ثلاث جرع ويشرب الباقى فى السحور ثم يتلو الآية مرة .

﴿ وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ ﴾قرآنا حال من هاء فرقناه العائدة إلى ما عادت إليه هاء أنزلناه والعطف على أنزلناه أى وبالحق أنزلناه وبالحق نزل وفرقناه قرآناً ، وقيل النصب على الاشتغال الذى ظهر لى عند التأمل هو الأول ومعنى قرآنا مقروءًا أو معنى فرقناه أنزلناه مفرقاً منجما فى عشرين سنة بحسب المصالح من التسلية والموعظة وتعليم أمر الدين وجواب السؤال وغير ذلك،ويجوز كون فرقناه بمعنى بيناه ووضحناه على قدر ما تفهمون فلا تبقى لكم حجة ، ويجوز على كون النصب على لاشتغال أن يقال إن الهاء على نزع الخافض أى فرقنا فيه الحق

والباطل أو فرقنا به الحق من الباطل ، وقرأ ابن عباس وأبى بن كعب والحسن بتشديد الراء لينص على كثرة نجومه فإنه كما مر نزل فى ثلاث وعشرين سنة والتخفيف لفظ عام صالح للقلة والكثرة،هذا هو التحقيق لاما قيل إنه للقلة إلا إن أراد أنها تتبادر منه ﴿ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ ﴾ على مهل فى قراءته وترتيل،هذا قول ابن عباس ومجاهد وابن جريج وابن زيد ، وقيل على تطاول فى مدة نزوله وكل من ذلك أيسر للحفظ وأعون فى الفهم وقرأ بفتح الميم وهو لغة .
﴿ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا ﴾شيئاً بعد شيء على حسب المصالح والحوادث ، وإذا فسرنا المكث بالمهل والترتيل فى قراءته كان هذا تأسيساً ، وإن فسرناه بتطاول مدة النزول كان هذا تأكيداً ومعلوم أن التأسيس أولى من التأكيد ثم قرع المشركين بالحقارة ونوع من التوعد بقوله : ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد للمشركين . ﴿ آمِنُوا بِهِ ﴾ أى بالقرآن . ﴿ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا ﴾ فإن إيمانكم به لا يزيده كمالا وكفركم به لا يؤثره نقصاناً بل نفع الإيمان عائد لكم ومضرة الكفر به عائدة عليكم،مع أن خيراً

منكم وأفضل قد آمن به مما يبلغ كفركم به وأنتم أسافل وأراذل كما أشار إلى ذلك بقوله على طريق التعليل الجملى المستأنف . ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ﴾ كأنه قال إيمانكم وعدمه سواء لأن الذين ... الخ ويجوز أن يكون تعليلا لقوله قل كأنه قيل تسأل عن إيمانهم به وكفرهم به بإيمان العلماء لأن الذين ﴿ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ ﴾ أى من قبل القرآن أى من قبل نزوله وهم علماء أهل الكتاب المؤمنون ومن شابههم وهم كزيد ابن عمر بن نفيل ، وسلمان الفارسى ، وأبى ذر وغيرهم ممن كان يطلب الدين الحق قبل مبعث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويتطلع نحوه لاشتهار أن نبيا قرب مبعثه ولزيد بن عمر قصة فى صحيح الربيع بن حبيب والمراد بالعلم علم التوراة والإنجيل المشتمل على نبوتك ورسالتك إلى الكافة ونعتك وتمييز الحق والباطل . ﴿ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ ﴾ أى إذ يتلو القرآن عليهم . ﴿ يَخِرُّون ﴾ يسقطون سقوطاً سريعاً كأنه بدون اختبار ﴿ لِلْأَذْقَانِ ﴾ متعلق بما بعد واللام بمعنى لى كما قال ابن هشام أو للاختصاص أى جعلوا أذقانهم للخرور واختصوها به والأذقان جمع ذقن وهو أسفل الوجه حيث يجتمع اللحيان ، وقيل المراد بالأذقان الوجوه تعبيراً بالبعض عن الكل، وخص بالذكر لأنه

أول ما يلقى به إلى الأرض ووجه الأول أنه يسجد به بالقامة لو كان لا يصل الأرض﴿ سُجَّدًا ﴾ حال من الواو أى يخرون على أذقانهم حال كونهم ساجدين لله تعظيماً لأمره وشكراً لإنجاز ما وعد به وبشر به فى الكتب المنزلة من بعث محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وإنزال القرآن عليه وهو المراد بالوعد فى قوله إن كان وعد ربنا لمفعولا .

﴿ وَيَقُولُونَ ﴾ فى سجودهم وغيره. ﴿ سُبْحَانَ رَبِّنَا ﴾ تنزيهه عز وجل عن خلف الوعد . ﴿ إن ﴾ مخففة من الثقيلة .﴿ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴾ اللام لام الفرق أى لابد أن يفعل وقد فعل فالوصف للاستقبال حكاية ويجوز كون المعنى أنه قد فعل وعد ربنا فهو للمضى ويجوز أن يراد مطلق وعده لا خصوص ما ذكر بل كل ما وعد ولما يأتى وقته فالوصف للاستقبال تحقيقاً .

﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ ﴾ إنما أعاد ذكر الخرور للأذقان بإخلاف الحالين وهما : خرورهم فى حال كونهم ساجدين عند إيجاز الوعد . . وخرورهم فى حال كونهم باكين لاختلاف السببين فإن السجود الأول شكر لإنجاز الوعد ، والثانى لما أثر فيهم من مواعظ القرآن ولزيادة الثانى بوصف وهو البكاء . ﴿ وَيَزِيدُهُمْ ﴾ أى يزيدهم القرآن أى سماعه

أو التفكر فيه . ﴿ خُشُوعًا ﴾ تواضعاً لله عز وجل كما يزيدهم علماً ويقيناً لله سبحانه وتعالى ، وحكى الطبرى عن التميمى أنه قال : أن من أُوتى من العلم ما يبكيه لخليق أن يكون أوتى علماً ينفعه لأَن الله سبحانه نعت العلماء به ،ثم تلا الآية كلها أو نقل الغزالى عن ابن عباس ـ رضى الله عنه : أنه قال إذا قرأتم سجدة سبحان فلا تعجلوا السجود حتى تبكوا فإن لم تبك عين أحدكم فليبك قلبه . قال الغزالى فإن لم يحضره حزن وبكاء كما يحضر أرباب القلوب الصافية فليبك على فقد الحزن والبكاء فإن ذلك من أعظم المصائب ، والبكاء مستحب عند قراءة القرآن . قال أبو هريرة . قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ :لايلج النار أى لايدخلها رجل يبكى من خشية الله حتى يعود اللبن فى الضرع ولا اجتمع على عبد غبار فى سبيل الله ودخان جهنم ، أخرجه الترمذى وفى رواية النسائى ولا اجتمع فى منخرى عبد . . الخ . . أى أنفه ، وروى مسلم كالترمذى لكن زاد لفظ أبداً ، وعن ابن عباس رضى الله عنه عن رسول الله ـصلى الله عليه وسلم ـ سماعاً منه : عينان لا تمسهما النار : عين بكت من خشية الله ،

وعين باتت تحرس فى سبيل الله . أخرجه الترمذى ، وفسر بعضهم الخشوع بلين قلب ورطوبة عين،وبعض بالخوف الثابت فى القلب . وذكر الغزالى : أن الخشوع ثمرة الإيمان ونتيجة اليقين الحاصل من عظمة الله وأن من رزق ذلك يكون خاشعاً فى الصلاة وغيرها ، فإن موجب الخشوع استشعار عظمة الله سبحانه وتعالى ومعرفة إطلاعه على العبد ومعرفة تقصير العبد .

﴿ قُلِ ادْعُوا اللهَ أَوِادْعُوا الرَّحْمَنَ ﴾ أى سموا ربكم الله وسموه الرحمن فالدعاء بمعنى التسمية ومفعوله الأول محذوف فى الموضعين كما رأيت والتسمية ذكر الاسم أى ذكروه أى الاسمين شئتم فإن أوللتخيير هذا ما ظهر لى مطابقاً للقاعدة وليس الأمر كما قال بعض: يجوز أن يكون المعنى نادوه بأن تقولوا : يا الله أو يارحمن ولو كان كذلك قيل دعوانا يا الله أو يارحمن أو بيا الله أو بالرحمن، وسبب نزول الآية على ما روى عن ابن عباس أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - جعل يقول فى سجوده ذات ليلة يا الله يارحمن فسمعه أبو جهل ،فقال إن محمداً ينهانا عن آلهتنا وهو يدعو إلهين،وفى رواية ينهانا أن نعبد الهين وهو

يدعو إلهاً آخر مع الله فنزلت الآية تسوية بين اللفظين فإنهما مطلقان على ذات واحدة وإن اختلفا مفهوماً فإن مفهوم الله لمستحق للعبادة ومفهوم الرحمن كثير الرحمة والتوحيد إنما هو للذات الذى هو المستحق للعبادة ، وقيل سبب نزولها أن اليهود قالوا : إنك لتقل ذكر الرحمن وقد أكثر الله فى التوراة ذكره فنزلت تسوية بينهما فى حسن الإطلاق والإفضاء إلى المقصود ولو كان ذكر الرحمن فى القرآن أقل،وهذا أحسن جواباً لقوله: أياً ما تدعوا . . الخ. وقيل سبب نزولها قول المشركين:أما الظاهر فنعرفه وأما الرحمن فلا نعرفه ، وقوله قل ادعوا الله . . إلى آخر السورة للنشاط فى الطاعات تقوم ليلة الخميس وتتوضأ وتصلى ركعتين ثم تكتب ذلك فى جام زجاج بزعفران وماء ورد وتمحوه بماء ورد وتملأه ماء وتقول عليه يا مقلب القلوب وياعالم الخفوت ويا من لا ينسى من ذكره من الذاكرين ويا من لا يخيب السائلين ويا مجيب دعوة المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ، هب لى نشاطاً فى العمل ، وأجرنى من الفشل والكسل ، ووفقنى فى القول والعمل ، ثم تقرأ الآية سبع مرات وتصلى الفجر ثم

تدعو بزوال ذلك ، ثم تصلى الصبح تقرأ فى صلاته والضحى ، وألم نشرح ثم تشرب بقية الماء يزول عنك الهم والغم والحزن والقسوة والكسل والفشل وينشرح صدرك وترى فى نفسك أخلاقاً حسنة بإذن الله . ﴿ أَيًّا مَّا ﴾ أيا اسم شرط معرب مفعول لتدعوا جازم لهُ والتنوين عوض عن المضاف إليه وما صلة لتأكيد الإبهام فى أى ، ووقف حمزة والكسائى على أياً ووقف الباقون على ما . ﴿ تَدْعُوا ﴾ المعنى أى واحد ما من الاسمين سميتم . ﴿ فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴾ كنت أقول الجواب محذوف تقديره أيّاً ما تدعوا أنتم لحق حتى رأيت مثلهُ للزمخشرى والقاضى واللفظ له هكذا كان أصل الكلام أياً ما تدعو فهو حسن فوضع موضعه فله الأسماء الحسنى للمبالغة والدلالة على ما هو الدليل عليه . ا. ه قال الزمخشرى وضع موضعه قولهُ لهُ الأسماء الحسنى لأنه إذا حسنت أسماؤه كلها حسن هذان الاسمان لأنهما منها ـ انتهى . والحسنى مؤنث الأحسن ومعنى كونها حسنى أنها دالة على صفات الجلال كالحمد والقدس والعظمة وصفات الإكرام كالرزق والإنعام والعفو والغفران . ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ ﴾ أراد بالصلاة القراءة من الصلاة فإن كل جزء من الصلاة يسمى صلاة

لأن الصلاة اسم مصدر بمعنى المصدر ألا ترى أنك تقول فلان يصلى ، تقوله وهو فى أى جزء من أجزاء الصلاة وهذا ما ظهر لى وهذا إن شاء الله أولى من تقدير مضاف أى ولا تجهر بقراءة صلاتك ، ومن ملاحظة معنى ولا تجهر بقراءتك فى صلاتك ، وقيل المراد بالصلاة الدعاء ، أسند البخارى ومسلم عن عائشة أنها قالت نزل : ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها فى الدعاء ، وهكذا قال النخعى ومجاهد ومكحول وقيل كان أعراب من بنى تميم إذا سلم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من صلاته قالوا : اللهم ارزقنا مالا وولداً ، يجهرون بذلك ، فنزل ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها ، والمشهور أن المراد الصلاة الشرعية وإنما نهاه عن الجهر فى الصلاة ، لأن المشركين كانوا يسمعونه فيسبونه ويسبون القرآن ومن أنزله ، وهكذا روى ابن عباس وأثبته البخارى ومسلم وأصحابنا ، قال بعض أيضاً يلغون فيها ،وهكذا حكمهم فى الدعاء يلغون ويسبون وذلك فى مكة ، وروى أنه كان يصلى بأصحابه مكتتمين سنتين قبل الهجرة وصلى بهم صلاة الفجر والعشاء ركعتين مع كل سجدة ، فعل ذلك فى أول ما أتاه الوحى ستة أشهر وكان يصـ

بهم فى دار رجل من قريش كان فى أسفل الصفا يقال له عبد الله ابن أرقم ، ويكنى أبا الأرقم فيأتيه المشركون فيستمعون إلى قراءته فيلقون عليه النتن فيؤذيه وأصحابه ، وإن رفع صوته بالقراءة آذوه بالسب . ﴿ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا ﴾ لاتسرر بها ليستمع من خلفك من المؤمنين ووردت أحاديث تقتضى استحباب الجهر بالقرآن مطلقاً وأخرى تقتضى استحباب السر به ، وذكر منها بعضاً فى الصحيح الذى هو تكملة لصحيح الربيع بن حبيب وذكرت أوجها من الجمع بينهما ، وذكر الغزالى أنه إذا خاف الرياء أو تشويش مصل فالسر أفضل والا فالجهر أفضل،لأن فيه زيادة عمل يعنى تكثير الصوت،ولأن فائدته تتعدى إلى غيره ولأنه يوقظ قلب القارئ ويجمع همته إلى الفكر فيه ويصرف إليه سمعه ويطرد عنه النوم ويزيد فى النشاط ، فإذا اجتمعت هذه النيات تضاعف الأجر لأنه يتضاعف بكثرتها ويزكو ، وقيل الآية منسوخة بقوله تعالى:ادعوا ربكم تضرعاً وخفية ، وهو رواية عن ابن عباس . وقال الكلبى منسوخة بقوله فاصدع بما تؤمر ، وعن الحسن لا تجهر بصلاتك كلها ولا تخافت بها وهو رواية عن ابن عباس .

﴿ وَابْتَغِ ﴾ اطلب واقصد . ﴿ بَيْنَ ذَلِكَ ﴾ المذكور من الجهر والسر .
﴿ سَبِيلاً ﴾ طريقاً وسطاً اسماع أصحابك ، ومن قال لا تجهر بصلاتك
كلها ولا تخافت بها كلها ، قال معنى أبتغاء السبيل بين ذلك الجهر
فى صلاة الجهر والسر فى صلاة السر والمشهور غير هذا ، وعن أبى قتادة
الأنصارى أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال لأبى بكر : مررت بك
تقرأ وأنت تخفض الصوت . فقال : إنى سمعت من ناجيت . فقال :
ارفع قليلا . وقال لعمر : مررت بك وأنت تقرأ ترفع صوتك .
فقال : إنى أطرد الشيطان وأوقظ الوسنان . فقال : أخفض قليلا .
أخرجه الترمذى ، ورواه الزمخشرى وذكر فى كلام أبى بكر : أناجى ربى
وقد علم حاجتى وذكر ذلك أبو داود وغيره ، وذكر الشيخ هود وزاد
فى كلام عمر أرضى الرحمن ، مع ما تقدم وذكر فيه أنه قال أيضاً
إنه سمع بلالا يقرأ من هذه السورة ومن هذه السورة وأنه كلما أجابه
واحد قال : صدقت فيجيبه بما مر ، وقال لبلال إذا أخذت فى سورة
فلا تخرج منها .

﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ أول من يدعى

إلى الجنة يوم القيامة الذين يحمدون الله فى السراء والضراء . رواه ابن عباس ، قال عبد الله بن عمر عنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ الحمد رأس الشكر ، ما شكر الله عبد لا يحمده ، وقال جابر بن عبد الله عنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن أفضل الدعاء الحمد لله ، وأفضل الذكر لا إله ألا الله ، أخرجه الترمذى ، وقال حسن غريب وروى سمرة بن جندب عنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أحب الكلام إلى الله أربع : لا إله إلا الله ، والله أكبر ، وسبحان الله ، والحمد لله ، لا يضرك بأيهن ابتدأت أخرجه مسلم . ﴿ الَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا ﴾ لعدم احتياجه ولعدم اتخاذ الصاحبة ولاستحالة ذلك عنه لأنه نقص وشبه بالمخلوق ولزم معه حد ونهاية واتخاذ الولد ولادته ـ تعالى وتقدس عنه ـ وذلك رد على من يقول الملائكة بنات الله ، ومن يقول عزير ابن الله ومن يقول المسيح ابن الله ويجوز أن يكون المراد التبنى كما يتبنى الإنسان ولد غيره والله منزه عن ذلك لعدم احتياجه إلى ما يريده الإنسان ممن يتبناه . ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِى الْمُلْكِ ﴾ أى ملك الدنيا والآخرة وإنما يتملكه من يتملكه بهبة الله سبحانه وهو المالك له حقيقة ، كذا أقول ورأيت

لغيرى تفسير الملك بالالوهية وهذا رد على من جعل له شريكاً . ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ ﴾ ناصر يليه فى الدفع عنه . ﴿مِّنَ الذُّلِّ ﴾ مصدر ذل ضد عز ومن للتعليل يعلق بيكن كأنه قال أن كون ولى له من المذلة منتف فإنه لا ذل يلحقه فضلا عن أن يكون له ولى يدفع عنه الذل كما قال مجاهد لم يخالف أحداً ولا ابتغى نصر أحد ويجوز تعليقها بولى على أنها للابتداء لتضمنه معنى ناصر ودفع ومانع أى لم يكن له مانع من الذل لعدم الذل أصلا فضلا عن أن يتصور دفعه عنه ويجوز بقاؤها لتعليل مع تعليقه بولى على معنى أن ولاية أحد له لأجل ذل يلحقه منتفية لعدم لحوق ذل لهويجوز أنيكون المعنى لاولى له من الذل بل له أولياء ولوه بالطاعة ووليهم بالرضى عنهم وفيه من الأوجه السابقة كلها على هذا أيضاً وزعم بعض أن العرب كانوا يقولون لولا أن الله أنصار الذل فنزلت الآية رادة عليهم وإن قلت ما وجه التعليق الحمد بتلك الصفات السلبية قلت وجهه أن من يتخذ الولد يمسك النعم لولده ويبخل بها عن غيره والله تعالى منزه عن الولد فافاض نعمه علينا وأن الولد يقوم مقام والده بعد موته والله منزه عن الولد والموت

فالنعم أبداً بيده يعطيناها وأنه لو كان له شريك لم يجد ولم نجد أن يعطينا ما يجب ونحب وكان ملكه غير تام تعالى عن ذلك فلا يستحق الحمد التام تعالى عن ذلك وكذا لو كان دليلا لم يجد الدفع عنا كل الدفع فيصيبنا ونحن عبيده ما لا يحب تعالى عن ذلك كذا ظهر لى فتأمله ، وقال جار الله والقاضى : علق الحمد بتلك الصفات لأن من ذلك وصفه هو الذى يقدر على كل نعمة إيلاء فهو الذى يستحق جنس الحمد لأنه كامل الذات المنفرد بالإيجاد المنعم على الإطلاق وما عداه ناقص مملوك إما نعمه وإما منعم عليه ولذلك عطف على قل بقوله ﴿ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً ﴾ عظمه تعظيماً عاماً عن كل ما يليق به من ذلك وغيره فالعبد وإن بالغ فى تعظيمه تعالى وتنزيهه وتحميده وطاعته يجب عليه أن يعترف بالقصور عن حق الله جل وعلا فى ذلك قال معاذ الجهنى عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إنه كان يقول : آية العز الحمد لله الذى لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك فى الملك إلى آخر السورة ، رواه أحمد وكان صلى الله عليه وسلم ـ إذا أفصح الغلام من بنى عبد المطلب علمه هذه الآية وذكروا أيضاً أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يعلمهن الصغير والكبير من أهله. وعن كعب : فتحت

التوراة بالحمد لله الذى خلق السماوات إلى قوله يعدلون وختمت بالحمد لله الذى لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك فى الملك ولم يكن له ولى من الذل وكبره تكبيراً والله أعلم .

صلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .

* * *

* تمت القطعة التاسعة من تفسير القرآن العظيم من كلام رب العالمين *

* ويتلوها القطعة العاشرة التي أولها سورة الكهف من تصنيف *

* الشيخ * العالم الفقيه النحرير * محمد بن يوسف اليسجني الأباضي *

* الوهبي المغربي أبقاه الله تعالى وزاده علماً آمين * وصلى *

* الله على سيدنا محمد * وآله وصحبه وسلم *

* ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم *

* وكان تمامها يوم رابع *

* من شهر شعبان *

* من شهور *

* سنة *

١٣٠٨

*